AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

T
206 A

ERNEST RENAN AND THE ARAB ISLAMIC EAST

موقف ارنست رينان من المشرق والاسلام

By

Samar Mujaes

A Thesis

Submitted in partial fulfillment of the requirements
for the degree of M.A. in the
Department of Arabic & NEL.
American University of Beirut

Beirut, Lebanon
August 1991

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

Ernest Renan and the Arab Islamic East

موقف ارنست رينان من المشرق والاسلام

By

Mrs. Samar Mujaes
(Name of student)

Approved:

Prof. Nadeem Naimy — Advisor

Prof. Muhammad Najm — Member of Committee

Prof. Amineh Ghosn — Member of Committee

Member of Committee

Member of Committee

Date of Thesis Presentation: 5 / 9 / 1991

" THESIS RELEASE FORM"

American University of Beirut

I, Mrs. Samar Mujaes :

☐ authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

☑ do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

Samar Mujaes

Signature

August 1991

Date

المحتـــــويـــــات

الصفحة

المقـدّمـــــة أ ـ ب

الفصـــل الأوّل

ارنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) ٠ حياته ولمحات من فكره ٠

مولـده ١

دراسته الدينيـة ٢

دراسة العلوم التاريخية وبدء مرحلة الشك ٥

تركـه الحياة الكهنوتيـة ٨

أهمّيـة العلم الوضعـي ١١

إعجابه بالمفكّريـن الألمـان ١٢

مقارنـة بين الألمـان والفرنسيّين ١٤

متابعة دروسه الجامعية في لغات المشرق القديمة والفلسفة ١٦

دين العلـــــم ١٨

آراؤه في السياســة ٢٧

رحلة أثريّة إلـى ايطاليـــا ٣٠

أطروحـة الدكتوراه : "ابن رشد والرشدية" ٣٠

رحلة أثريّـة إلى بـــلاد الشـام ٣٢

دور سيـاســي ؟ ٣٤

وفـاة هنرييت أو نهاية الرحلـة ٣٨

رينـان والمـرأة ٣٩

نسبيّة المساواة بين النـاس ٤١

٠٠/٠٠

الصفحـــة

الحيـــاة الثانيـــة ٤٢

موقفـه من المسيـــح ٤٤

الإعجـاب بالحضارة الإغريقيـــة ٤٦

مرحلـــة الانتـاج الغـزيـــر ٤٨

وفـاتـــــه ٥٠

الفصـــل الثـــانـــي

نظـرة رينـان إلى الشعوب السامية والإسلاميّـة
مـن النواحي الدينيّة والحضارية والفكـريـــة ٠

١ــ رأي رينـان في الشعوب السامية ٥٣

٢ــ رأي رينـان في الإسلام والمسلمين ٦٦

الفصـــل الثالـــث

موقـف رينان من الشعر الجاهلي واللّغة العربية
وفلسفة العرب، والعلاقة بين موقفه من هذه
الفلسفة ودعوته إلى العلمنـة ٠

١ــ نظرية رينان النقدية في الشعر الجاهلي ٧٨

٢ــ رأي رينان في اللّغة العربيـــة ٨٨

٣ــ رأي رينان في فلسفة العـــرب ٩١

أ ــ رأيه في هويّة فلسفة العـرب ٩١

ب ــ رأيه في مضمون فلسفة العرب ٩٦

٠٠/٠٠

الصفحة

٤ــ تعامل المسلمين مع العلم والفلسفة ٩٩

٥ــ العلمنة عند رينان وارتباطها بمفهومه للقوميّات ١١٨

أ ــ العلمنة ١١٨

ب ــ مفهومه للأمّة ١٢٦

الفصل الرابع

أثر رينان في المفكّرين العرب

١ــ التيّار المسيحي ١٣٠

٢ــ التيّار الإسلامي ١٣٢

أ ــ لقاء رينان والأفغاني ١٣٣

ب ــ موقف الأفغاني من الفرنسيين ١٣٤

ج ــ مضمون محاضرة رينان ١٣٥

د ــ ردود الفعل على المحاضرة ١٣٧

هـ ــ تعليق الأفغاني على المحاضرة ١٣٩

و ــ ردّة فعل محمّد عبده على تعليق الأفغاني ١٥١

ز ــ ملاحظات رينان حول تعليق الأفغاني ١٥٤

ح ــ أثر المحاضرة المستمرّ ١٥٩

ط ــ محمّد عبده ١٦٢

٣ــ التيّار اللاديني ١٧٢

الصفحة

أ ـ فرح أنطون ١٧٣

ب ـ ردود الفعل ١٨٣

الخاتمة ١٩٠

المصادر والمراجع ١٩٢

المقدّمة

ممّا يستوقف الباحث في الفكر العربي الحديث كثرة الكلام على تأثّر هذا الفكر بالتيّارات الفكريّة الغربية والتحدّث باستمرار عن وجود بصمات تركها فيه عدد من المفكّرين الغربيين . غير أنّ ما قيل في هذا الموضوع لا يعدو أن يكون كلاما عامّا فضفاضا لا يغني الدارس ولا ينير له السبيل إلى تبيّن دقائق هذا التأثّر في مختلف مواضعه وتفاصيله. وقد استرعى انتباهي تردّد اسم المفكّر الفرنسي ارنست رينان الذي تحدّث كثيرون من كتّاب العصر الحديث عن أثره دون أن يبيّنوا طبيعة هذا الأثر أو مداه ، فكان هذا حافزا لي على الإطّلاع على أفكاره ودراسة آثاره ، ولا سيّما تلك التي تتعلّق بالمشرق وبمواقفه من الساميين والمسلمين، لعلّني أتمكّن من خلالها أن أحدّد العلائق التي قامت بينه وبين التراث العربي وأن أبيّن الأثر الذي تركه في هذا التراث . ومن أجل تحقيق هذه الغاية رأيت أن أبدأ بالتعريف برينان بهدف إظهار منازعه الثقافية واتّجاهاته الفكرية ، وقد شكّل ذلك مادّة الفصل الأوّل من هذه الدراسة . أمّا الفصل الثاني فقد تناولت فيه تحديد رينان للعرق السامي وفصّلت الكلام على رأيه في الساميّين والمسلمين. وأمّا الفصل الثالث فتكلّمت فيه على رأي رينان في اللّغة العربية والفلسفة العربية وأشرت إلى الأسباب التي حدته إلى محاولة تجريد هذه الفلسفة من هويّتها العربية كما أشرت إلى ارتباط موقفه هذا برأيه في العلاقة التي قامت بين الإسلام والفلسفة . وبعدما عرضت آراء رينان في شعوب الشرق وفي لغات هذه الشعوب وأديانها انتقلت في الفصل الرابع الأخير إلى دراسة الأثر الذي أحدثه هذا المفكّر

الفرنسي في بعض البارزين من المفكّرين العرب فتحدثت عن التيّارات التي نشأت في الفكر العربي الحديث متأثّرة به والتي كانت إمّا رجعا لصداه وإمّا ردّ فعل عليه .

والواقع أنّني عندما أقدمت على الخوض في جوانب من فكر رينان وحاولت تبيان أثرها في الفكر العربي الحديث ،كنت أعلم حقّ العلم أنّ هذا العمل ستتخلّله ثغرات كثيرة تنبع من طبيعة أيّ عمل مماثل كما تنبع من كونه محاولة أولى لم يتجشّم أحد من الباحثين عناء القيام بها من قبل . وإذا نحن أردنا ألاّ يبقى كلامنا على أثر الفكر الغربي في فكرنا العربي الحديث كلاما خاليا من أيّ مدلول واضح دقيق فإنّ علينا إنجاز دراسات مشابهة حول مفكّرين غربيّين آخرين قد تكون لنا عونا على تبيان حقيقة التفاعل الذي قام بين الحضارتين العربية والغربية في العصر الحديث والذي مهّد السبيل لظهور اتّجاهات فكرية متنوّعة في الفكر العربي في القرن التاسع عشر والربع الأوّل من القرن العشرين .

الفصـــــل الأول

ارنست رينـان (١٨٢٣ـ١٨٩٢)

حيـاتـه ولمحـات من فكـــره.

مـولـده

ولد ارنست رينان Ernest Renan في تريغييه Tréguier إحدى مدن منطقة بريتانيا الغرنسية Bretagne في ٢٨ شباط ١٨٢٣ . كان والده ضابطا في البحرية ، وذات يوم من تموز ١٨٢٨ عادت السفينة التي كان على متنها بدونه ، ووجدت جثّته بعد مدّة على شاطئ البحر. فعاشت العائلة منذ فقد الأب عيشة فقيرة. تولّت تربية رينان وأخيه الان Alain أمّه وأخته هنرييت التي تكبره باثنتي عشرة سنة . وقد أورثته عائلته نزعتيـــــن متناقضتين . فجدّته لأمّـه أورثته نزعة دينية ، في حين أنّ والده وجدّه وأعمامه أثاروا فيه حسّا لا دينيّا[١] . وكان له عمّ "ڤولتيري" يرى أن رينان سيصبح أحد دعائم الكنيسة[٢] . كما كان لمدينة تريغييه التي ولد فيها وتربّى أثر في توجّهه الفكري . يقول رينان في تريغييه إنّها كانت مدينة كهنوتيـــة بعيدة عن الحياة التجارية والصناعية . كانت مدينة أديار ومؤسّسات دينيّـة

١ـ Renan, Souvenirs d'enfance et de jeunesse, p.114
نذكره من بعد باسم Souvenirs .
و Renan, Lettres intimes, p. 17 .
نذكره من بعد باسم Lettres .

٢ـ Renan, Souvenirs, p. 121-122

لا يدخلها أيّ صوت من خارج . وكلّ ما كان العلمانيون يعتبرونه خرافة، كان بالنسبة الى أهل هذه المدينة حقيقة فريدة . يضيف رينان : في هذا الوسط نشأت وقد ترك فيّ آثارا لا تمحى (١) . فالإيمان مطبوع في الانسان منذ أن ميّز نفسه عن الحيوان . فهو يعيش في الطبيعة شيئا ما أبعد من الحقيقة ويعيش لنفسه شيئا ما أبعد من الموت . ولآلاف السنين توزع هذا الشعور الناس بطرق مختلفة غريبة بينها الإيمان بالسحرة وبالأصنام (٢) . ولذا لا يغفر رينان لپرودون Proudhon (٣) كفره في قوله إنّه قُدّر للإنسان أن يعيش بلا دين وإنّ المجتمع يتخلّص تدريجيّا من هذا الغطاء الذي أصبح بلا جدوى (٤) .

دراسته الدينيّة

دخل رينان معهد تريغييه الاكليركي سنة ١٨٣٢ وهو في التاسعة من العمر . وفي سنة ١٨٣٨ حاز جميع الجوائز المخصّصة لصفّه فقرّر مدير المعهد أن يرسله الى باريس لمتابعة دراسته . وقد وصف رينان هذا القرار بأنّه كان مصيريّا . يقول في مذكّراته : في ٧ أيلول ذهبت الى باريس فرأيت

١ــ Renan, Souvenirs, p. 26

و Renan, Lettres, p. 14 .

ومن أجل وصف مفصّل لمدينة Tréguier ،عد الى: Lettres, pp. 13-15 .

٢ــ Renan, Vie de Jésus, p. 2 . تذكره من بعد باسم Vie .

٣ــ P.J. Proudhon فيلسوف اشتراكي فرنسي (١٨٠٩ــ١٨٦٥) .

٤ــ Renan, L'Avenir de la Science, p. 474

تذكره من بعد باسم Avenir .

أشياء جديدة بالنسبة إليّ أحسستني ازاءها كما لو كنت آتيا الى فرنسا من تاهيتي أو تومبوكتو Tombouctou . إنّ مجيئي الى هذه المدينة كان بمثابة انتقالي من دين الى آخر . فالمسيحية فيها تختلف عن المسيحية التي ألفتها . لقد شعرت بأنّني أمرّ بأخطر أزمة في حياتي . فالشاب الآتي من منطقة بريتانيا سيصعب زرعه في باريس، والتغيير الأخلاقي والتبدّل الشامل في النظام والعادات سيدفعان بي إلى الاحساس بالحنين الى مدينتي (١) .

دخل رينان في باريس مدرسة Saint-Nicolas de Chardonnet الاكليركية بواسطة منحة دبّرتها له أخته، وبقي فيها ثلاث سنوات أي الى سنة ١٨٤١ . ولقد وصف التحاقه المنتظر بالسلك الكهنوتي فقال : ولدت كاهنا مسبقا " a priori " كما يولد آخرون محاربين أو قضاة . والذي ينجح في مدرستنا كان مقدّرا له أن يصبح كاهنا وإلّا فلمَ تعلّم اللّغة اللاتينيّة ؟ الكهنوت كان إذن نتيجة مثابرتي في الدرس (٢) . واستطاع أستاذه في هذه المدرسة الاكليركية أن يجعل من ذاك "الريفي الصغير المقيّد فكرا منفتحا وناشطا" (٣) . ويقول رينان إنّ أساتذته علّموه أمورا لم يغيّرها على الاطلاق . علّموه حبّ الحقيقة واحترام

١ــ Renan, Souvenirs, p.132-133

٢ــ المصدر نفسه، ص ١٢١ .

٣ــ المصدر نفسه، ص ١٤٧ .

العقل وجدّية الحياة[١] . واكتشف الشاب مدهوشا أنّ بين الذين عرفهم ثمّة علمانيّين جديّين وعلماء . ورأى أنّ هناك شيئا ما موجودا خارج العصور القديمة وخارج الكنيسة ، وبخاصّة أنّ هناك أدبا معاصرا جديرا بالعناية . فاهتمّ كثيرا بهوغو (١٨٠٢ ــ ١٨٨٥) ولامارتين (١٧٩٠ــ١٨٦٩) ووجد في أدبهما المجد الذي كان ينشده في قبّة كنيسة تريغييه[٢] . هذان الأديبان لم يكن يهتمّ بهما الكهنة الذين كانوا يدرسون الأدب إذ كانوا يعتقدون أنّ قصيدة "الدين" لراسين الابن[٣] هي آخر القصائد الفرنسية . فإسم لامارتين ما كانوا يلفظونه إلّا بهزء ، وهوغو كان لا يزال مجهولا[٤] . إلّا أنّ ما كان ينقص رينان في هذه المرحلة هو العلم الوضعي . وقد طرأ هنا تغيير على مسيحيّته دون أن يكون قد نشأ عنده بعد ما يمكن أن يسمّى شكّا . ويبدو أنّ ايمان أخته بالكاثوليكية كان هو الآخر قد بدأ يهتزّ في هذه الفترة ، غير أنّها لم تحاول التأثير في مسيرة أخيها[٥] .

وعندما أنهى رينان الدروس التقليدية في هذه المدرسة ذهب حسب ما تمليه الأصول آنذاك الى إيسي Issy البيت الجبلي لمدرسة سان سولپيس Saint - Sulpice الاكليركية ، حيث تدرّس الفلسفة لسنتين كمقدّمة لعلم اللاهوت . كان رينان يفضّل لو أتيح له أن يدرس الفيزيولوجيا والعلـــوم

١ــ Renan, Souvenirs, p. 110

٢ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٠ ــ ١٤١ .

٣ــ Louis Racine (١٦٩٢ ــ ١٧٦٣) وهو ابن Jean Racine الشاعر الفرنسي المشهور .

٤ــ Renan, Souvenirs, p. 32

٥ــ Renan, Lettres, p. 24

الطبيعيّة . وفي اعتقاده انه لو ثقّف نفسه في هاتين المادّتين لكان توصّل الى العديد من النتائج التي انتهى اليها داروين (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢) [١] والتي كان هو يستشفّها . وهو يرى أنّ فرضيّات هذا الأخير تسير في طريق التفسير الكبير للعالم وللفلسفة الحقّة رغم اعتقاد بعضهم أنّها غير كافية[٢] . الّا أنّه انتقل بعد ايسي الى مدرسة سان ــ سولپيس نفسها سنة ١٨٤٣ .

دراسة العلوم التاريخية

وبدء مرحلة الشكّ

في سان ــ سولپيس اتّجه نحو العلوم التاريخية وقرّر أن يدرس الايمان المسيحي الذي بات يبدو له، اكثر من أي وقت مضى ، مركز كل حقيقة[٣] . تيقّن في بادئ الأمر أنّ كلّ ما جعله دوپانلو مدير مدرسته السابقة موضع احترام كبير في ما يختصّ بالديانة المسيحية لم يكن سوى "صبيانيّات" enfantillage ، وتساءل: إذا كانت المسيحية شيئا موحى به ، أفليس اهتمام المسيحي الأساسي درس هذا الوحي نفسه، أي علم اللّاهوت؟ يقول: منذ ذلك

١ــ Renan, Souvenirs, p. 190

٢ــ Renan, Dialogues et fragments philosophiques, p.163

نذكره من بعد باسم Dialogues .

٣ــ Renan, Souvenirs, p. 165

الحين استغرقني علم اللاهوت ودرس الأناجيل فتكشفت لي الأسباب الحقيقية وراء الإيمان بالمسيحيّة كما اتّضحت لي البواعث الأصيلة التي دفعتني الى عدم الانخراط في الايمان . فاجتاحني خلال أربع سنوات صراع جعلني أقول يوما : "هذا [الدين] ليس حقيقيّا !" ويضيف رينان أنّ دراسة الديانة المسيحيّة دراسة موضوعيّة لم تترك له من الايمان ما يكفي لكي يكون كاهنا مخلصا(١) . لقد أحسّ أنّه لم يعد يستطيع أن يكون كاهنا كاثوليكيّا وأن يحتفظ في الوقت نفسه بالآراء التي تكوّنت عنده . صوت خفيّ كان يقول له : "أنت لم تعد كاثوليكيّا . إنّ الزي الذي ترتديه كاذب فاخلعه" (٢).

لقد طرأ في سان ـ سولپيس تحوّل هام في تفكيره . فأستاذه لوهير Le Hir (٣) علّمه العبريّة والسريانيّة(٤)، فضلا عن اطلاعه على الدروس الألمانيّة(٥)، فأكبّ رينان بكل حماسة على دراسة الانجيل ومصادر الديانة المسيحيّة فانقلبت بفعل سلسلة من الاستنتاجات النقدية التي استحوذت على

١ــ Renan, Souvenirs, p.147-148

٢ــ المصدر نفسه، ص ٢٢٤ــ٢٢٥ .

٣ــ Arthur Le Hir (١٨١١ــ١٨٦٨) : يعتبر من علماء فرنسا المشهورين في تفسير النصوص التوراتيّة والانجيليّة . وقد تولّى تدريس اللغة العبريّة في اكليركيّة سان ـ سولپيس. تتلمذ عليه رينان وتأثّر بدروسه وشروحه ومفاهيمه الدينية تأثّرا بارزا . وللأب لوهير كتاب قيّم بعنوان : "دراسات توراتيّة مع مقدّمات وخلاصات" Etudes bibliques , avec introduction et sommaires صدر عام ١٨٦٩ .

٤ــ Renan, Souvenirs, p. 210

٥ــ المصدر نفسه، ص ٢١٢ .

تفكيره جميع الأسس التي كان يعتمدها في حياته حتّى ذلك الحين . فما يُنسب في التوراة الى اشعياء Isaïe مثلا ، وخصوصا الجزء الثاني منه ، ما عاد يستطيع قبوله على انه فعلا لأشعياء . وسفر دانيال الذي يرقون به الى زمن السبي هو مزوّر وقد كتب سنة ١٦٩ أو ١٧٠ قبل الميلاد . وسفر يوئيل Judith هو استحالة تاريخية . ونسبة أسفار موسى الخمسة الى موسى غير معقولة . وبعض أقسام سفر التكوين تحمل طابعا خرافيّا مثل الفردوس الأرضي والمحرّمات وفلك نوح . كما أنّ هناك فروقات متضاربة بين الانجيل الرابع ، انجيل يوحنا ، والاناجيل الأخرى ، وبين الأناجيل الأربعة مجتمعة . والتبرير الذي توصّل اليه سلفستر دو ساسي Silvestre de Sacy (١) بقوله إنّ كلّا من العهد القديم والعهد الجديد معصوم وحده ، بينما العهد الجديد ليس معصوما في إشاراته الى العهد القديم ، هو حلّ يائس يدفع الإنسان المتمسّك بالإيمان نورا لحياته الى التشبّث بأي وسيلة ممكنة تجنّبه الغرق (٢) . وهكذا ترجّح رينان بين عدم الايمان والاحتفاظ بنوع من التقى . يقول في رسالة بعث بها الى أخته في نيسان ١٨٤٥ إنّه لم يعد متحمّسا للعمل الكنسي لأنّه، بكلمة واحدة ، لا يؤمـــن بما فيه الكفاية "Je ne crois pas assez" (٣). الا أنّه عاد بعد أربعة أشهر فقال في رسالة بعث بها الى

١ــ Silvestre de Sacy مستشرق فرنسي (١٧٥٨ــ١٨٣٨) . درّس العربيّة في معهد اللّغات الشرقية (١٧٩٥) وعُيّن أستاذا للفارسيّة في الكوليج دو فرانس (١٨٠٦) . تسلّم الادارة في هاتين المؤسّستين فضلا عن تبوّئه سدّة الرئاسة في جامعة باريس . وهو يُعتبر مؤسّس الدراسات العربية في فرنسا . من أهم مؤلّفاته : " القواعد العربية" Grammaire Arabe (١٨١٠) و"مذكرات في تاريخ العرب قبل النبي محمد" Mémoire sur l'histoire des Arabes avant Mahomet (١٧٨٥) .

٢ــ Renan, Souvenirs, pp. 213-215

٣ــ Renan, Lettres, p. 163

القسّ كونيا Cognat في شهر آب : ما زلت مؤمنا . فأنا أصلّي وأحبّ كثيرا أن أتردّد على الكنائس . فالتقوى الصافية البسيطة التي تشعرني برائحة الله تؤثّر فيّ كثيرا . وأعتقد أنّني سأظلّ تقيّا الى الأبد . فللتقوى قيمة حتّى وإن كانت مجرّد قيمة نفسيّة . إنّها تنهض بمعنوياتنا وترفعنا فوق الانشغال بالحاجات الضروريّة . غير ان الكاثوليكيّة لا تشبع عقلي النقدي . فعليّ أن أتخلّى إمّا عنها أو عنه[١] . ويقول في رسالة كتبها في أيلول إنّ الكاثوليكيّة قضيب من حديد ، وإنّه هو لن يستطيع أن يكون كاهنا[٢] ، ويقول أيضا : إنّ الطريق التي سرت فيها حتّى الآن ، والتي رسمها الله لي ، قد قادتني الى هاوية . لقد خانني الله ! "...Ce sentier m'a conduit à un abîme!.. Dieu m'a trahi."[٣]

ترك الحياة الكهنوتيّة

وهكذا اتّخذ رينان في أواخر أيلول ١٨٤٥ القرار الصعب والحاسم . ترك الحياة الكهنوتية ، وغادر سان- سولپيس في السادس من تشرين الأوّل[٤].

١- Renan, Souvenirs, Appendice, p.274 et 275

٢- المصدر نفسه ، ص ٢٢٩-٢٣٠ .

٣- المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ . ورد ذلك في رسالة كتبها الى مديره في ٦ أيلول ١٨٤٥ .

٤- المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

وعلى الرغم من الفراغ الذي شعر به بعدما أحسّ بأنّ المسيحيّة ليست هي الحقيقة ، فإنّه لم يشعر بأي ندم على قراره[١] . ونظرا لصعوبة فهم قراره هذا فضّل أن يتمّ انتقاله الى الحياة المدنيّة بعيدا عن الأضواء ، وقال إنّ الذي يخلع الزّي الكهنوتي ليرتدي الزّي المدني هو كالفراشة التي تنتقل من حال الى آخر : إنّه بحاجة الى قليل من الظلّ[٢] . لذا عمل بعد خروجه من سان ـ سولبيس مناظرا في كوليج ستانسلاس Collège Stanislas بإدارة الأب غراتري Gratry . وفي أوائل تشرين الثاني ١٨٤٥ غادر هذه الكلّية مقدما بذلك على الخطوة الأخيرة التي أبعدته عن درب الكنيسة [٣]. أمّا أفكاره ومشاعره فلم يطلع عليها سوى أخته هنرييت التي كانت تربطه بها علاقة متينة جدّا . يقول في رسالة بعث بها إليها : اعتقدت أنّني سأكون في هذه المدرسة في وضع علماني وأنّني سأنجح في التوفيق بين ما يمليه عليّ ضميري وما تأمرني به عواطفي . ولكنّني في الواقع أخطأت الحساب وأدركت الآن أنّني كنت أنشد شيئا مستحيلا . ذهلت عندما دخلت هذه المدرسة إذ أخبرني المسؤول أنّه عليّ ارتداء الثياب الكهنوتيّة في أعمالي الداخلية ، فحاربت هذا الأمر بشدّة . ويتساءل : هل كان عليّ أن أقطع كلّ شيء فجأة أو كان يجب أن أدخل هذه المدرسة مؤقّتا من أجل المحافظة على بعض

١ــ Renan, Souvenirs, pp.238,240

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٢٣٥ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ .

المظاهر؟ لقد أثبتت لي تجربة الأيام القليلة التي أمضيتها في ستانسلاس ان الحلّ الوسط غير ممكن . كان عليّ أن أختار بين الخروج من هـــذه المدرسة أو المحافظة على كل المظاهر الكهنوتية . لذا قرّرت بوضوح تام انني لا أستطيع البقاء فيها . وأخبرت المسؤول بالقرار الذي اتّخذته فحاول أن يقنعني بأنّني قد أغيّر رأيي في المستقبل ،لكنّي كنت وإيّاه كشخصين يتحدّثان بلغتين مختلفتين(١) . أمّا بالنسبة الى أمّه ،فلقد وجد صعوبة كبيرة في إبلاغها قرار تركه الحياة الكهنوتية ورأى من الضروري ألّا يخبرها بالأمـــر إلّا بعد أن ينجح في البكالوريا تخفيفا من وقع الصدمة عليها . فتابـــع دروسه في أكاديمية رين Académie de Rennes ونجح في امتحان البكالوريا في كانون الثاني ١٨٤٦ ،ثمّ تقدّم بأوراقه لدخول السوربون (٢).

يقول : قد يعجب الناس لماذا ابتعدت عن الايمان المسيحي مع وجـود أسباب كثيرة تدفعني الى أن أبقى متعلّقا به . إنّ الذين لا يتمتّعون بفكر علمي لا يدركون أبدا كيف ان آراء الواحد منّا تتكوّن خارج إرادته .عندما سلّمت نفسي هكذا لمشيئة الأشياء ،كنت أعتقد أنّني أخضع لقواعد مدرســـة القرن السابع عشر الكبرى، وبخاصة مدرسة مالبرانش Malebranche (١٦٣٨ـ ١٧١٥) . فمبدأ هذه المدرسة الأوّل أن العقل شيء علينا أن نتملّاه ولا يد لنا في صنعه . أي أن واجب الانسان هو الوقوف أمام الحقيقة عاريامن أي اعتبارات شخصيّة وحاضرا لأن ينقاد، بعيدا عن أي توقّعات استباقيّة، الى حيث يريد له البرهان الراجح . أراد مفكّرو القرن السابع عشر أن يبتعدوا

١ـ Renan , Lettres, pp .239-241

من رسالة بعث بها الى أخته بتاريخ ٣١ ت، ١٨٤٥ .

٢ـ المصدر نفسه ،ص ٢٤٥ـ٢٤٦ وص ص ٢٧٤ـ ٢٧٦ .

في بحثهم عن الحقيقة عن أي رغبة أو ميل أو تعلّق شخصي [١]. وقد أبدى رينان في مواضع عديدة إعجابه الشديد بمالبرانش واعتبره أهم عالم منطق وُجد حتّى زمانه[٢] . وتعلّم من ديكارت Descartes (١٥٩٦ـ ١٦٥٠) أنّ الشرط الأول لبلوغ اليقين هو ألّا يكون لنا أي موقف مسبق[٣] .

أهميّة العلم الوضعي

يعتقد رينان أنّ ما من دين أو فلسفة أو مجتمع حتّى ذلك التاريخ يملك الحقيقة المطلقة ، وإلّا لكان انتصر على ما عداه وبقي مستمرّا وحده[٤] . وذهب الى أنّ الفلسفة الحقيقية للعصر الحديث تقوم على العلم الوضعي التجريبي للأشياء الذي ابتدأ بعبقرية ليوناردو ڤانسي L. De Vinci (١٤٥٢ـ ١٥١٩) وثمّ بعبقرية غليله Galilée (١٥٦٤ـ ١٦٤٢) . هذا العلم وحده يستطيع إزالة أكوام من السفسطات والمسائل الصبيانية التي كان الفكر المدرسي scolastique قد كوّمها . العلم الوضعي وحده استطاع أن يشفي روح الانسان من هذا المرض الغريب وأن يرده الى الطريق المستقيم [٥] . إنّ

١ـ Renan, Souvenirs, p. 215

٢ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٤ و Renan, Lettres, p. 93 .

٣ـ Renan, Souvenirs, p. 207

٤ـ المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

٥ـ Renan, Averroès et l'Averroïsme, p.414

نذكره من بعد باسم Averroès .
وأيضا: رينان، ابن رشد والرشدية ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٤١٤ ـ ٤١٥ .
نذكره من بعد باسم ابن رشد .

العلم الوضعي هو نبع الحقيقة الوحيد[١] . والديانتان المسيحية والاسلامية لم تتلاءما مع تطوّر هذا العلم . فالمسيحية عطّلت هذا العلم في اسبانيا وأعاقته كثيرا في ايطاليا ، إلّا انها لم تطفئه. والإسلام الذي لم يستطع أن يتقبّل أي عنصر من عناصر الحياة المدنيّة والدنيويّة أهمل الثقافة العقليّة[٢] . وقد تراسل رينان وصديقه مرسولين برتولو Marcelin Berthelot [٣] في موضوع العلم الوضعي ونشرت رسالتاهما في كتاب " Dialogues " الذي قدّمه رينان الى صديقه قائلا : يجب أن تدهش العلم باصطناع معادلة جديدة وأن تقتحم الذرة وتبحث في ما إذا كانت غير قابلة للفساد الى الدرجة التي نظن[٤].

إعجابه بالمفكّرين الألمان

ولقد أعجب رينان بالمفكّرين الألمان[٥] وخصوصا هردر Herder (١٧٤٤—١٨٠٣) وكانط Kant (١٧٢٤—١٨٠٤) وفيخته Fichte (١٧٦٢—١٨١٤)

١— Renan, Souvenirs, p.182

٢— Renan, Averroès, P.III-IV

ورينان ، ابن رشد ص ١١ .

٣— Marcelin Berthelot كيميائي فرنسي (١٨٢٧—١٩٠٧). اهتمّ بالأدب والفلسفة. ربطته هو وزوجته صداقة حميمة برينان . ولقد حزنا كثيرا عند وفاته ، ثم فقدا ابنتهما الكبرى فتوقّف قلب الزوجة وبعد لحظات لفظ مرسولان الى جانبها أنفاسه الأخيرة .
وقد وصف رينان علاقته الوثيقة بمرسولان التي بدأت إثر ترك رينان الحياة الكهنوتية في: Renan, Souvenirs, pp.240-245 .

٤— Renan, Dialogues, p.IV

٥— Renan, Lettres, pp.154 et 213

وفضّل بروتستانتيّتهم على كاثوليكيّته ووجد أنّها تناسبه[١] فتمنّى لو كان هو نفسه بروتستانتيّا مولودا في المانيا اذ شعر أنها مكانه الطبيعي . أعجب كثيرا بكانط وآمن مثله أنّنا لا نعي الله إلّا بقلوبنا [٢] وطلب من أخته في إحدى رسائله أن تحجّ إلى قبر هذا الأخير (اذا ذهبت الى Königs-berg)[٣] . وتمنّى لو انه استطاع مثل هردر أن يجمع بين الفكر الفلسفي وبين كونه مبشّرا مسيحيّا[٤] . لقد استطاع الألمان أن يجمعوا بين الشعر والفلسفة والعلم وهذا الجمع هو الذي يصنع المفكّر الحقيقي بالنسبة الى رينان . استطاع هردر وغوته Goethe (١٧٤٩—١٨٣٢) أن يحقّقا هذا المزج على أفضل صورة ولذا فهو يشعر بقربه منهما . إنّ فلسفة غوته في فاوست Faust رائعة ، الّا أنّ شكّه أمر مؤسف . ففي العالم حقيقة وخير مطلقان ، وفاوست كابوس لأنّه افترض العالم خاليا منهما . ويضيف رينان : ولكن يا له من تصوير للقلق الذي يثيره الشك ! فهناك أماكن في فاوست أشعر عند قراءتها بأنني أروي قصّتي . وهذا الحث نحو فكر جديد ساعدني كثيرا في الأوقات الصعبة التي مررت بها [٥] استطاع الفكر الألماني أن يوفّق بين الفكر الديني والفكر النقدي[٦] ، والمانيا المعاصرة تقدّم مثلا نادرا للتأثير

١ــ Renan, Souvenirs, p.229

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٢٧٢

٣ــ Renan, Lettres, p.76

٤ــ Renan, Souvenirs, p.224

٥ــ Renan, Lettres, p. 214

٦ــ Renan, Souvenirs, p.212

المباشر الذي يتركه العلم على سير الاحداث السياسية إذ انّ فكرة الوحدة الالمانية أتت بواسطة العلم والادب . كان الشعب الالماني مستسلما للموت فاقدا وعيه عندما قام فريق من النوابغ فريد من أمثال غوته وشيلر Schiller (١٧٥٩–١٨٠٥) وكانط وبيتهوفن Beethoven (١٧٧٠–١٨٢٧) بانتشاله من ضياعه . هؤلاء هم مؤسسو الوحدة الالمانية الحقيقيون . فمنذ اللحظة التي اجتمع فيها كلّ الفرقاء في هذا البلد حول لغة هؤلاء الكبار وعبقريتهم أحسّوا بالرابط الذي يوحّدهم وحاولوا تحقيقه سياسيّا (١) .

مقارنة بين الالمان والفرنسيين

ومن ثمّ يعمد رينان الى المقارنة بين الالمان والفرنسيين . ومن غير أن يقبل قبولا تامّا التهمة التي توجهها المانيا الى فرنسا في انّها لا تفقه شيئا في الدين أو في الماورائيات ، يعترف بأنّ الشعور الديني ضعيف جدّا في فرنسا ويقول إنّ هذه الأخيرة لن تعرف أبدا حلّا وسطا بين الكاثوليكية المتشدّدة والكفر ، وهو يجد مشقّة كبيرة في أن يُفهم الفرنسيين أنّ من يكون غير كاثوليكي ليس بالضرورة ملحدا . إنّ الدين في فرنسا هو دائما نوع من دولاب احتياطي او مقدّمة تافهة. ولو كان لفرنسا قدر أكبر من الشعور الديني لكانت قد اصبحت بروتستانتية مثل المانيا . إلّا أنها لم تر حلّا وسطا بين الابقاء على نظام جاهز وبين تطليق هذا النظام (٢) كما انها لم تفهم أبدا حريّة الفكر بل اكتفت بالحرية الظاهرية . فشبح المحاكمات الدينية ما يزال

١ــ Renan, Avenir, p.459

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٣١٦–٣١٧ .

ماثلا أمام مخيّلتها . وليس عند مفكّري الجمهورية الأحرار ما يساوي جزءا من الجرأة والحرّية الموجودتين في كتابات المفكرين الالمان أمثال لسنـغ Lessing (١٧٢٩ــ ١٧٨١) وهردر وغوته وكانط. فجميع الأفكار الكبرى في الحقل الالهي حصلت في المانيا ، وهي لم تزل تشكل العقيدة في كلّ فكر مثقّف ثقافة فلسفية . أما فرنسا، فلم يجرؤ أحد فيها على الافصاح بهذه الافكار . إنّ الوجل الفكري يكبّل الفرنسيين(١) . ولقد تصوّر بعضهم أنّ المفكرين الالمان الاحرار هم الذين أسقطوا الايمان فتأسّفوا لعدم قيام محاسبة لكانط وهيغل Hegel (١٧٧٠ــ ١٨٣١) وشتراوس Strauss (١٨٠٨ ــ ١٨٧٤)(٢) . وهاجم رينان الشباب الكاثوليكي وجميع الذين يهاجمون الفلاسفة قائلا : أيها البرابرة ، هل تظنون اننا لو كنّا نريد أن نهزأ باللاهوتيين لما كنا نستطيع أن نلعب لعبتكم ؟ لم تهاجمون الفلاسفة ؟ لقد وقع بين يديّ كتيّب تنعتون فيه ديكارت بالغباوة وكانط بالحماقة وفيخته بالوقاحة . وتقولون أخيرا إن الفلاسفة كلّهم هم مجانين أسوأ من السحرة والمنجّمين(٣) . ورأى رينان أنّ فرنسا اليوم هي دون حسّ اخلاقي أمّا المانيا فهي كالمعبد . ووجد انّ كلّ ما في المانيا صاف وراق وخلقي . المانيا هي تتمّة المسيح ، تتمة روحه وأناجيله . كما اعتبر ولادة الفكر الالماني الجديد حدثا ماثلا لولادة المسيحية (٤) . أمّا اليسوعيون ، حسب تعبيـر ميشلـــه

١ــ Renan, Avenir, p.360 -361

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٤٣١ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٤٣٧ ــ ٤٣٨ .

٤ــ Renan, Souvenirs, Appendice p. 273

Michelet [١]، فجعلوا من التربية وسيلة لتضييق العقول وتسطيح الاذهان [٢]. وقد عبّر رينان عن كرهه لهم بتجاهلهم تجاهلا تامّا [٣]. وليس شعور اليسوعيين نحوه أقلّ كراهية من شعوره نحوهم. ويكفي أن نقرأ مقالة نشرها أب يسوعي عن رينان في مجلة عربية بعد مرور مئة سنة على ولادته حتّى نعرف مدى الاشمئزاز والحقد اللّذين يكنّهما له اليسوعيون [٤].

متابعة دروسه الجامعية في لغات المشرق القديمة والفلسفة

بعد انتقال رينان الى الحياة العلمانية قرّر أن يدرس لغات المشرق القديمة وذلك رغم معرفته أن فرصة تعليم تلك اللغات في المستقبل ضئيلة جدّا. فكترومير

١ــ Jules Michelet، كاتب ومؤرّخ فرنسي (١٧٩٨ــ١٨٧٤). كرّس حياته للدراسات التاريخية. صار أستاذ التاريخ في الكوليج دو فرانس حيث نذر نفسه لنشر الأفكار الليبرالية. مؤلّفاته كثيرة أشهرها "مقدّمة في التاريخ العالمي" Introduction à l'histoire universelle (١٨٣١) و "تاريخ فرنسا" Histoire de France في اثني عشر مجلّدا، و "اليسوعيّون" Les Jésuites، الذي نشره بالاشتراك مع كينه Quinet زميله في الكوليج دو فرانس، و "تاريخ الثورة الفرنسية" Histoire de la Révolution Française في سبعة مجلّدات.

٢ــ Renan, Avenir, p. 363

٣ــ Renan, Souvenirs, p. 123

٤ــ الأب س. م. اليسوعي، "ذكر مولد الملحد ارنست رنان"، مجلة "المشرق"، ج ٢١ (١٩٢٣)، ص ص ٢٠١ ــ ٢٠٩ و ص ص ٣٠٠ــ ٣٠٨. ومن الألفاظ التي أطلقها هذا الأب على رينان "المشعوذ، السخيف، الملحد الوقح، عادم الحياء، غبي وقح، ممسوس في عقله".

Quatremère [١] الأستاذ الوحيد الذي كان يدرّس يومها هذه اللّغات في فرنسا كلّها قد تبنّى منذ ذلك الحين خلفا له يدعى لا توش E. Latouche . ومع ذلك قرّر رينان أن يخوض المنافسة[٢] . فهو قد درس العبرية في سان سولبيس ووعده لوهير أستاذه فيها أن يأخذ منه ملاحظاته كطالب حول قواعد النحو العبري ويصدرها في كتاب يصير المرجع التقليدي لتعليم العبرية . كما كان قد تابع باهتمام دروس اللغة العربية في المكتبة الملكية Biblio-thèque royale والكوليج دو فرانس Collège de France . وقد حاز على توصية من لوهير إلى كوزان دو پرسوڤال Causin de Perceval أستاذ العربية في الكوليج دو فرانس[٣] .

اهتمّ رينان علاوة على علومه الأخرى بالفلسفة كأم للمعارف، يقول : ماذا ينفع الانسان لو كان عالما في الطبيعة ولم يكن ذا علم بنفسه وبالله؟ إنّ الفلسفة هي أميرة الدراسات وخلاصتها . فهي تتحدّث عن الله والنفس والأخلاق . ومع أنّ طريقة تدريسها في المنهج الدراسي لا تفيها حقّها، إلّا أنّها التخصّص الوحيد الذي من المعقول أن أدرسه . وودّ لو أنّ للفلسفة كلّية مستقلّة أو لو

١ــ Étienne M. Quatremère . مستشرق فرنسي (١٧٨٢ــ١٨٥٧) . كان أستاذ العبرية والسريانية والكلدانية في الكوليج دو فرانس(١٨١٩)، ثمّ صار أستاذ الفارسية في مدرسة اللّغات الشرقية (١٨٢٧) . ترجم " تاريخ المغول في فارس" لرشيد الدين و "تاريخ الأيوبيين والسلاطين المماليك" للمقريزي .

٢ــ Renan, Lettres, p. 263
من رسالة بعث بها الى أخته بتاريخ ١٥ كانون الأول ١٨٤٥ .

٣ــ المصدر نفسه، ص ٢٧٨ وص ٢٨١ .

أنّها ألحقت بكليّة العلوم لا بكلّية الآداب كما هي الحال [١]. إلا أنّ حماسته لها لم تجعله يثق أبدا بهذه الماورائيات المجرّدة التي تدّعي أنّها علم خارج عن العلوم الأخرى، وأنها وحدها تحلّ مشاكل الإنسانية. ويتساءل : لمَ كان أوغست كونت A. Comte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) ذائع الصيت الى هذا الحدّ وهو لم يقل الّا ما سبقه اليه جميع المفكّرين العلميين منذ مئتي سنة؟ [٢] غير أنّ رينان وجد ان الفلسفة تعلّمنا ان نرى المشاكل وإن لم توفّر لها الحلول [٣]، وأقرّ في ما بعد أنّها وإن لم تكن سوى جهد دائم بلا نتيجة [٤] فهي جهد جدير بالاعتبار. وهكذا جعل رينان الفلسفة التي هي معرفة الأشياء بحقائقها موضوعا لدراسته [٥].

دين العلم

تأثّر رينان وصديقه برتولو بالثورة الاشتراكية التي قامت عام ١٨٤٨ في فرنسا وألمانيا على أثر الأزمة الاقتصادية التي أرهقت هذين البلدين قبل عام واحد. وما كاد رينان يحوز في شهر أيلول على المرتبة الأولى في شهادة التبريز Agrégation في الفلسفة حتّى خلا الى نفسه في تشرين الأوّل

١ــ Renan, Lettres, p. 267 -268
من رسالة بعث بها الى أخته بتاريخ ١٥ كانون الأول ١٨٤٥.

٢ــ Renan, Souvenirs, p. 182-183

٣ــ Renan, Lettres, p. 76

٤ــ Renan, Averroès, p. X، ورينان، ابن رشد، ص ١٦.

٥ــ Renan, Avenir, p. 148

فأحسّ انه بحاجة الى التعبير عن الايمان الجديد الذي حلّ عنده محلّ الكاثوليكية المنهارة . فوضع مصنّفه "مستقبل العلم ، خواطر عن عام ١٨٤٨ ، L'Avenir de la Science, pensées de 1848" .لقد قال في هذا الكتاب إن العلم الحديث قد قوّض الأسس الطبيعيّة والفكرية والاخلاقية التي كانت قائمة حتّى الآن . غير أنّ العلم ليس هدّاما وحسب . إنّ العلم والعقل أمران حتميّان في هذا العالم ، ومن المستحيل منع العقل من ممارسة سلطته على جميع وسائل الايمان . فهذه معرّضة للنقد لأن العقل لا يعتبر أنها تمثّل الحقيقة المطلقة . الا أنّ العلم لم يهدم أحلام الماضي الا ليقيم مكانها حقيقة أجمل وأرفع شأنا .فالتحليل العلمي لا يوقظ الشعور بالجمال ، الا أنّ الجمال الحقيقي الذي لا يُبنى على الأوهام الانسانية كامن في نتائج هذا التحليل(١) ، ولعن العقلانية هو لعن لتطوّر الفكر البشري (٢). غير أنّ رينان ينبّه الى خطر العلم في مراحل غير متكاملة كتلك التي يجتازها زمنه . فالعلم غالبا ما يهدم ايمانا يكون بعد ضروريّا من أجل الانسانية في تبلورها النهائي ،كما في مسألة الخلود على سبيل المثال(٣).

يبدو أنّ رينان ، بعد أن تخلّى عن كاثوليكيّته ، قد بدّل محور الايمان دون أن يستغني عن الايمان نفسه . فذهب الى أنّ الايمان بعلم متّسع وحرّ هو الذي سيغزو الجنس البشري . عندها ستكون المدارس معابد لذلك العلم ويكون الفلاسفة والعلماء والفنّانون والشعراء كهّانه . وتغدو المدرسة المنافس الحقيقي لبيت العبادة . لقد كانت غاية رينان أن تزول الأديان جميعا ليحلّ محلّها دين جديد هو دين

١ــ Renan, Avenir, pp.92-94 . ومعنى مشابه ص ٣٣٣ .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٠١ .

العلم ، فهو وحده يستطيع أن يحلّ مشاكل الانسان[١] . وهو يقارن — من خلال تجربته الشخصيّة — بين الاحساس بالايمان الديني وبين الاحساس بالايمان العلمي فيقول : لقد ذقت في طفولتي وفي مرحلة صباي الأولى سعادة المؤمن في غاية صفائها ، وإنّي أقول من صميم قلبي إنّ هذه السعادة لم تكن بحدّ ذاتها شيئا إذا ما قورنت بتلك التي أشعر بها وأنا أعقل الجمال وأبحث بشغف عن الحق . فأنا اليوم ، بعد أن هدأت العاصفة في نفسي ، أجدني في محيط كبير هادئ لا أمواج فيه ولا نجم يهديني سوى العقل ولا بوصلة تسدّد مساري الّا القلب [٢] .

إنّ العلم وحده يستطيع أن يعيد الى الانسانية نظامها[٣] وأن يقدّم الى الانسان الحقائق الجوهرية[٤] . وهو وحده يبحث عن الحقيقة الخالصة ويقدّم لها الأدلّة الصحيحة ويتّبع نقدا صارما في استخدام طرق الاقناع . ولذا كان تأثير العلم حتّى اليوم بعيدا عن عامّة الناس[٥] . ويعترف رينان أنّ أتباع الدين القائم على العقل قليلون . ويقول إنّه رغم عدم التساوي بين الناس ، فإنّهم جميعا يشاركون بنسب متفاوتة في توقهم الى المثال . ويؤكّد أنه لو كانت الانسانية مثقّفة على قدر ثقافته هو لكانت تبنّت معتقده . إنّ التربية العلمية العاديّة لا تقدّم الى النفس ما يكفي من غذاء ديني وأخلاقي . فمن أجل تحقيق ذلك المثال يجب أن نكرّس حياتنا كلّها للبحث وأن نترهّب للعلم وأن نتنكّر تماما

١ــ Renan, Avenir, p.105, p.108

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٣١٨ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٣١ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

٥ــ Renan, Vie

من تمهيد الطبعة الثالثة عشرة ، ص XXVIII .

لملذّات هذا العالم ومشاغله وأغراضه . ولذا كان بلوغ دين العلم صعبا ليس على الجهلة بل أيضا على كثير من المتعلّمين والمثقّفين[١] . وهو لا يحب "العلم الجماهيري" لأنّه لا يمكن أن يكون هو العلم الحقيقي ، ويتمنّى لو يرتفع الناس الى عبقرية العلم لا أن ينحدر هو اليهم من أجل أن يتيسّر فهمه[٢] . ويحذّر رينان من خطر الأمية لأنّه يرى ان الشعب الأمّي شعب متعصّب ، والشعب المتعصّب يشكّل دائما خطرا على العلم . ويذهب الى تفضيل غير الأخلاقي من الشعوب عليه لأنّ الجموع اللا اخلاقية ليست مفسدة بينما تلك المتعصّبة من شأنها أن تبلّد أذهان الناس . ويضيف قائلا : إنّ عالما محكوما عليه بالبلاهة لا يملك ما يستثير اهتمامي ، بل انني أوثر أن أراه يموت[٣] .

واعتبر رينان أن التديّن في فرنسا قد أصبح في زمنه قضية شخصية . فثمّة قسم كبير من الناس لم يعد يتقبّل فكرة المعجزات. كما توقع أن تزول معتقدات أخرى شبيهة مثلما زال الاعتقاد بالشياطين والأشباح . ورجّح بعد اجتياز ردّة فعل كاثوليكية عابرة ألّا تكون للناس عودة الى الكنيسة . فالدين أصبح فرديّا وهو مشروع ومحترم طالما بقي كذلك . فالديانات لا تكون خطرة إلّا عندما تتّخذ مظهرا جماعيّا[٤] .

ويقول رينان في محاولة لوصف العلاقة بين الله والعلم إنّ الاعتقاد باللامتناهي موجود حتّى عند الشعوب البدائية . وهو الذي يميّز الانسان عن الحيوان .

١ــ Renan, Avenir, p. 319- 320

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٤١١ .

٣ــ المصدر نفسه ، التوطئة ، ص ص X- VIII .

٤ــ Renan, Souvenirs, Préface, p. 16

إنّ وجود الله هذا لا يحتاج الى براهين ، وان عدم الايمان به أمـــر مستحيل لأننا نؤكّد وجوده عندما ننفيه . إنّ الانسانية قدآمنت دائما بمـا يتخطّى المتناهي ، ومن المناسب أن ندعوه الله دون أن نذهب بعيدا لنحدّد أيّ إله هو. إنّ كلمات "الله" و"العناية الالهية" و"النفس" هي قديمة غير أنّها معبّرة ومحترمة. والعلم سيفسّر هذه الكلمات ، لكنّه لن يحلّ شيئا محلّها[١] . ويعتبر أن العلم غير محدود[٢] وأنّه يتضمّن مستقبل الانسانية وهو وحده يستطيع تحديد مصيرها ويعلّمها كيف تبلغ هدفها[٣] .

ويرى رينان أنّ العلاقة بين العلم والمجتمع هي علاقة تواصل إذ يغتذي كلّ منهما بالآخر ويغذّيه . فيقول إنّ أفضل خدمة تؤدّى اليوم للفكر البشري هي تأمين البحبوحة الماديّة للجميع لا لأنّ هذه تحمل قيمة مثالية في حدّ ذاتها بل لأنّها شرط لازم لانعتاق الفكر البشري من حاجاته الماديّة التي تحقّره وتوقف نموّه . وعندها يستطيع أن يكون حرّا . فوجود الطبقة البورجوازية التي اغتنت خلال العصر الوسيط كان ضروريّا في فعل الحضارة الحديثة ، لأنّ علمنة العلم لم يكن ممكنا أن تقوم بها إلّا طبقة مستقلّة وبالتالي ميسورة ماديّا ، إذ لو بقي سكّان المدينة فقراء لبقي العلم حتّى اليوم حكرا على الطبقة الكهنوتية[٤] . ومن جهة أخرى ، يذهب رينان الى أنّ العلم هو روح المجتمع لأنّه العقل . وهو يحقّق التفوّق الصناعي والعسكري وسيحقّق يوما التفوّق الاجتماعي . إنّه يضع القوّة في خدمة العقل . ورينان مقتنع بأنّ العلم جيّـد

١ــ Renan, Avenir, p.476 et p.479

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٤١٨ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٣٦ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

وأنّه لن يخدم في النهاية الّا التطوّر الحقيقي الذي يؤمّن للفرد الاحترام والحريّة (١).

ويعتبر رينان أنّ الحكومة المثالية هي الحكومة العلمية . فيها يعالج رجال كفوؤن المسائل الحكومية مثلما يعالجون المسائل العلمية ويفتّشون عقليّا عن الحلول . فالسياسة هي علم كسائر العلوم (٢) . ويذهب الى أنّ سلطة واحدة ستحكم العالم فعليّا وهي سلطة العلم والفكر (٣) .

لقد عبّر رينان عن إيمانه بالعلم في الكتاب الذي وضعه حول مستقبل العلم وهو في الخامسة والعشرين من عمره . وقد لازمه ايمانه هذا فترة رجولته وامتدّ حتّى الكهولة . فهل ظلّ ايمانه بالعلم على هذه الدرجة من القوّة بعدما غادرته الكهولة وأفسدت عليه الشيخوخة أحلام الصبا ؟ لم ينشر رينان هذا الكتاب إلّا بعد مرور حوالي نصف قرن على كتابته أي في سنة ١٨٩٠ ، وقد صدّره بتمهيد أكّد فيه أنّه في بداية عهده الفكري كان محقّا في ايمانه بالعلم واتّخاذه إيّاه هدفا لحياته . إلّا أنّه لم يعد يؤمن بأنّ العلم موصل الى الحقيقة بل أصبح يكتفي بالقول إنّه فقط يعصم عن الخطأ (٤). ومع أنّه ظلّ يعتقد ان العلم وحده يستطيع أن يحسّن الوضع الرديء الذي يعيشه الإنسان فإنّه لم يعد يجد أنّ حلّ هذه المشكلة قريب كما كان يظن (٥).

١ــ Renan, L'Islamisme et la science, p. 23
Conférence faite à la Sorbonne le 29 Mars 1883.
Paru dans : Discours de réception.

نذكره من بعد باسم l'Islamisme .

٢ــ Renan, Avenir, p. 350

٣ــ Renan, Dialogues, p.184

٤ــ Renan, Avenir, Préface, p.XIX

٥ــ المصدر نفسه ، ص IX .

وقد اعترف انه كان على خطأ ،كما هيجل ،إذ جزم في تحميل الانسانيـة دورا محوريّا في العالم . ومع ذلك يحتفظ تاريخ الانسان بأهمية بالغة (١).

كان يعتقد أن الخلود يكون في الاشتغال بعمل خالد ،لكنّه يتساءل الآ ن: هل يمكن أن يكون العلم أكثر خلودا من الانسانية التي تحتّمت نهايتهـــا لمجـرّد أنّه كان لها بداية ؟ ولكن ،حتّى لو أطبقت السماء على رؤوسنـــا ، ألا يكفي أن نكون قد عبرنا ونحن متفتّحون هذا الكون الذي كان دائمـا موجودا وسيظلّ ؟(٢)

ولقد ركّز رينان أيضا في هذا الكتاب على أهميّة النقد الذي سيكون خطوة أولى نحو منطلقات أكثر اقناعا من المنطلقات التقليدية القديمة . إنّ جميع الحقائق التي تشكّل ما يدعى الدين الفطري والاله الشخصي والعناية الالهية والصلاة والتجسّد والخلود تتهافت أمام التفحّص النقدي الجاهد الذي يقيم على انقاضها نظاما حقيقيا للأشياء (٣). وميّز رينان بين الشك والنقـد فقال إنّ النقد ليس الشك ولا الاستخفاف ،بل هو مسألة دقيقة ومرهفة (٤). وأقام سلّما يتدرّج من الشك الى النقد فقال إنّ الفكر عندما يكتشف انه قد يغدو ألعوبة إيمانه يبدأ عملية الشك ويتصوّر أن رفضه كلّ شيء هو الطريـق الآمن من الانخداع . هكذا كان تشكيك المشككين الأوائل السذّج أمثـــال السفسطائيين ومونتاني Montaigne (١٥٣٣ — ١٥٩٢) . ثمّ لا يلبث أن

١— Renan, Avenir, Préface, p. XIII

٢— المصدر نفسه ،ص XX .

٣— المصدر نفسه ، ص ٩٧ .

٤— المصدر نفسه ،ص ٤٤٤ .

ينشأ علم أوسع لا يقف حائرا إزاء المعضلات الأساسية بل يحاول بنتيجتها تأسيس عقائدية عقلانية قائمة على الفطرة السليمة غير المتطوّرة ،كما عند سقراط وريد Reid(١٧١٠ ــ ١٧٩٦) . ثم تظهر بعد ذلك قوّة فكرية أكبر فتبيّن عدم متانة الأسس التي تقوم عليها هذه المحاولة الجديدة وتهاجم أداتها . من هنا ينشأ شك كبير ومخيف وعظيم كشك كانط وباسكال Pascal(١٦٢٣ــ ١٦٦٢) وجوفروا Jouffroy (١) . ثمّ يتوصّل الفكر الانساني أخيرا الى العقائدية النقدية التي لا تهاب الشك لأنّها قد تخطّته (٢).

ويحدّد رينان كذلك في كتاب "مستقبل العلم" واجبات الحكومة والمجتمع تجاه الأفراد . فيقول إنّ واجب الحكومة في الحالة الحاضرة (فترة احداث ١٨٤٨) هو تمدين المجتمع . وكل عمل سواه ليس مفيدا أو أن وقته لم يحن بعد. حتّى أنّ الحرية وحق الاجتماع اللّذين يتكلّم بعضهم على أهميتهما ليسا مطلوبين الآن. فإذا ما تألّب أغبياء أو جهّال ،فأي خير يصدر عن اجتماعهم ؟(٣) ممّا لا شكّ فيه أنّ كل الحريات خطرة قبل أن يثقّف الشعب(٤) والحرية التي تناضل الشعوب من أجلها وتثور يجب ألّا تكون هدفا بذاتها بل وسيلة للوصول الى الحقيقة(٥) . ويعتبر ان المجتمع ليس مسؤولا عن حياة الفرد بل هو مسؤول

١ــ Théodore Jouffroy فيلسوف فرنسي (١٧٩٦ ــ ١٨٤٢) . عندما دخل دار المعلمين في سنة ١٨١٣ لم يعد مؤمنا . درّس في هذا المعهد وفي السوربون والكوليج دو فرانس. عرّف الفرنسيين بالفلسفة الاسكتلندية .

٢ــ Renan, Avenir, p. 448.

٣ــ المصدر نفسه ،ص ٣٥٥ .

٤ــ المصدر نفسه ،ص ٣٥٧ .

٥ــ المصدر نفسه ،ص ٣٥٩ــ٣٦٠ .

عن امكانية الحياة . يجب أن يكون المجتمع غذاء جسديّا وفكريّا وخلقيّا لهذا الفرد . ويذهب إلى أنّ الإنسان ،كما النبتة ، متوحّش بطبيعته وانه لا يولد طيّبا بل فيه القدرة على أن يصبح طيّبا . والمطلوب هو فقط تنمية بذور الفضيلة الموجودة فيه لأن المرء لايتّجه نحو الشرّ مختارا بل لحاجة ما أو لظروف حتميّة ، وخصوصا لفقدان التربية الاخلاقية . فجميع الشرّ الموجود في البشرية سببه انعدام الثقافة . وليس على المجتمع أن يتذمّر من ذلك لأنّه إلى حدّ ما هو المسؤول عنه(١) . ويضيف : لو كان جميع الناس مثقّفين مثلي لكان يستحيل عليهم أن يقدموا على الشرّ(٢) . فعمل الخير عند المثقّف هو عمل عفوي . الهدف إذن هو ايجاد انسانية متنوّرة. على الجميع أن يتثقّفوا لأنّ الثقافة هي الدين الحقيقي(٣) الذي يغني عن دين الناس.ويقول : نحن أصحاب الفن والعلم والفلسفة ، لسنا بحاجة الى الكنيسة . لكنّ عامّة الناس يجدون في المعبد أدبهم وعلمهم وفنّهم(٤) . الفكر وحده ، أي العقل ، يجب أن يحكم العالم(٥) .

ويدعو رينان الى الفردية ، ويأسف لعادات المجتمع الفرنسي التي تقسو على الفرد المبتكر فتحجب امتيازه . ويقول إنّ الأفراد جميعا في الادب القديم كانوا متشابهين ، اذ ليس في الملاحم البدائية يونانية كانت أوعبريّة أو

١— Renan, Avenir, pp.334-337

٢— المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ .

٣— المصدر نفسه ، ص ٣٦٤ .

٤— المصدر نفسه ، ص ٤٨٨ — ٤٨٩ .

٥— المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

هنديّة ، أي خصائص فرديّة . فبدلا من الدعوة الى الشيوعية يترتّب على الذهن البشري في وضعه الراهن أن يدعو الى الفرادة والابتكار . فالواجب ألّا يتشابه شخصان ، ذلك لأنّ جميع الذين يتشابهون لا يُعتبرون سوى فرد واحد (١).

آراؤه في السياسة

وينتقد رينان السياسة بصورة عامّة فيقول إنها تتولّى حكم الانسانية كآلة وإنها ستزول عندما لا تعود الانسانية ذاتها آلة . ويستشهد برأي لهردر يقول إنّ الانسان بالنسبة الى السياسة وسيلة ، وبالنسبة الى الأخلاق غاية ، وإنّ ثورة المستقبل ستكون انتصار الاخلاق على السياسة (٢) . وفي اعتقاد رينان انّ هناك قوّتين تسيطران على العالم : سياسية وفكرية . فقد كان المفكّرون بين العصر الوسيط والزمن الحديث في خدمة السياسة ، كما كانت السياسة في بداية القرن التاسع عشر هي التي تقرّر مصير العالم . ولكن في فترات أخرى ، كما حصل في القرن الثامن عشر ، انتقل الدور الأساسي الى رجال الفكر حين أمسكت مدرسة من المفكّرين أمثال ڤولتير (١٦٩٤ــ١٧٧٨) وروسو (١٧١٢ ــ ١٧٧٨) ومونتسكيو (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥) زمام الانسانية لتصنع المستقبل . ويرى ان عصره هو عصر المفكرين لا السياسيين (٣) . فالسياسة في هذا العصر هي بلبلة ومسرح لصراعات شخصية محضة (٤) .

١ــ Renan, Avenir, p. 407 - 408

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ص ٤٥٠ ــ ٤٥٢ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٤٥٤ .

ويهاجم رينان الديمقراطية لأسباب اجتماعية وعلميّة . فهو لا يؤيّد الانتخابات العامّة ولا يهمّه رأي الأكثريّة . المهمّ تحسين وضع المجتمع حتّى لو عارضت الأكثريّة ذلك[١] ، كما أنّ الديمقراطية في رأيه تشكّل خطرا على العلم . ففي المؤسّسات الحرّة التي قد تحلّ مكان مؤسّسات الدولة ، سيختلط العلم المزيّف بالعلم الجدّي ، والجمهور لا يحسن الاختيار إذ هو يصفّق عادة لما هو خطأ[٢].

كان موقف رينان من الثورة الفرنسية في منطلقه سلبيّا لكنّه ما لبث أن تحوّل . فقد وجد في البدء انها تجعل الدولة عملاقا تاركة دون ذلك آلافا من الأقزام ، وتستحدث مرتكزا قويّا هو باريس في وسط صحراء فكريّة[٣] . لكنّه بعد ذلك راح يغيّر موقفه من الثورة عندما رأى الانفعال الذي به تحدّث الكتّاب الأجانب ليثبتوا أنّ الثورة الفرنسية لم تكن الّا عارا وجنونا وأنها تشكّل حدثا لا قيمة له في تاريخ العالم ، فأصبح اعتقاده أنّ هذه الانتفاضة الشعبية العارمة ربّما كانت أفضل ما صنعه الفرنسيون وبسببها يغار الآخرون منهم[٤] . وأبدى إعجابه بهذه الحركة الاستثنائيّة التي هي أرفع من مستوانا بكثير[٥] . واعتبرها اول محاولة تقوم بها الانسانية لتمسك زمام أمورها بيدها . إنّ تاريخ فرنسا الحقيقي يبدأ سنة ١٧٨٩ وكلّ ما تقدّمه كان تحضيرا بطيئا له . فالفلاسفة

١ــ Renan, Avenir, p. 349- 350.

١ــ Renan, Souvenirs, Préface, p. 17

٣ــ Peyre, Sagesse de Renan, p. 214
مأخوذ من: Questions contemporaines (1868), pp. III-V.
نشير اليه من بعد باسم Sagesse.

٤ــ Renan, Souvenirs, p. 89

٥ــ Renan, Vie, p. 129

القرن الثامن عشر ورجال الفكر فيه قد قاموا بطريقة واعية ومنّظمة بأكبر ثورة على معتقدات أنظمتهم . إنّ ميرابو Mirabeau (١٧٤٩ـ١٧٩١) وروبسپيير Robespierre (١٧٥٨ـ١٧٩٤) هما مجرّد تلميذين لروسو وڤولتير (١).

ويرى رينان أنّ فترات الحروب وعدم الاستقرار مؤاتية لتطوّر الانسانية وتفجّر العبقريات ، والقرن السادس عشر أفضل مثال على ذلك . فلقد برز فيه لوثر (١٤٨٣ ـ١٥٤٦) ورافايل (١٤٨٣ـ ١٥٢٠) وميكل ـ انج (١٤٧٥ـ١٥٦٤) ومونتاني وغليله وكوبرنيك (١٤٧٣ـ ١٥٤٣) وتأسّس فيه فقه اللّغة والرياضيّات وعلم الفلك والعلوم الطبيعية والفلسفة ، مع أنه شهد الصراعات الدينيّة والسياسيّة والأدبيّة والعلميّة . هكذا كانت حال أثينا في الماضي : حال من الرعب والعنف. فالعدو متربّص دوما وعلى مسافة قريبة ، وفي الداخل ثورات لا نهاية لها ، ومع ذلك أنتج الأثينيّون بعفويّة مذهلة . إنّ الراحة والحرّية لا تسهمان في نشوء المبتكر ولا في التطوّر الفكري . ولن يصبح العمل الفكري مهدّدا إلّا يوم تغدو البشرية في قصوى الراحة (٢). والثراء كذلك لا يشجّع على تطوّر الفكر. فانكلترا الغنيّة تعتبر أقلّ البلدان المتحضّرة شأنا بالنسبة الى تطوّر الفكـــر الفلسفي (٣)، فكيف إذا كانت المجتمعات تبحث عن الغنى نفسه هدفا لها ؟ عندها سيصبح العالم والمفكّر والفيلسوف عثرات في هذه الدرب وسيموتون جوعا (٤).

١ـ Renan, Avenir, p. 25

٢ـ المصدر نفسه ، ص ص ٤١٩ـ ٤٢٢ .

٣ـ المصدر نفسه ، ص ٤١٧ .

٤ـ المصدر نفسه ، ص ٤١٥ .

رحلة أثريّة الى ايطاليا

خلال عامي ١٨٤٩ و ١٨٥٠ قام رينان بمهمّة أثريّة في ايطاليا . ثمّ ابتعثت فيه سنة ١٨٥٠ ـ ١٨٥١ غبّ الانقلاب الذي قام به لويس نابوليون بونابرت لغرض سلطته حالا من التشاؤم لم يشف منه لفترة طويلة .(١).

أطروحة الدكتوراه: "ابن رشد والرشديّة"

وفي سنة ١٨٥٢ طُبعت أطروحته عن ابن رشد (١١٢٦ـ١١٩٨) التي قدّمها لنيل الدكتوراه بعنوان " ابن رشد والرشدية Averroès et l'Averroïsme " . يقول في مقدّمتها : في الماضي كان كلّ شيء يعتبر موجودا على وجه الإطلاق ، أمّا اليوم فتعتبر الأشياء أنّها في طريقها الى الوجود ، وهذا أعظم تقدّم حقّقه النقد (٢). وقد يكون اهتمام رينان بالرشدية عائدا الى اعتباره أنّ المدرسة العلمية التي قام عليها العلم الوضعي التجريبي قد حلّت محلّ الرشدية بعد أن قاومت هذه الأخيرة مدّة ثلاثة قرون حملات الافلاطونية وعلماء اللاهوت ومجمعيّ لاتران وترانت الدينيّين (٣). فكأنّ الرشدية حملت مشعل الفكر هذه المدّة الطويلة من الزمن لتسلّمه الى المدرسة العظيمة التي أنجبت العلم الوضعي . ويعتبر رينان أنّ الفلسفة العربيّة نفسها قد فقدت بوفاة ابن رشد آخر ممثّل لها . لقد كان القرن الثاني عشر حاسما في

١ـ Renan, Dialogues, Préface, p.XVIII

٢ـ Renan, Averroès, p. VII
ورينان ، ابن رشد ، ص ١٤ .

٣ـ المصدر نفسه ، ص ٤١٤ .
وبالعربية ص ٤١٤ .

تاريخ الحضارة الاسلامية إذ فيه أُحبط نهائيًا ما حاوله العبّاسيّون في الشرق والأمويّون في اسبانيا من توسيع مجال العقل والعلم في الإسلام . وبغياب ابن رشد ، تحقّق انتصار القرآن على الحرّية الفكريّة لستة قرون على الأقلّ (١).

لخّص رينان الفلسفة العربية في هذا الكتاب بمذهبين : قدم الهيولى ونظريّة العقل . وقال إنّ الفلسفة لم تأت بغير فرضيّتين لإيضاح نظام الكون، فإمّا إله شخصي مريد إليه تردّ كلّ سببيّة محوّلة في الكون ، وإمّا هيولى قديمة وإله لا متناه ، وسنن وطبيعة ووجوب وعقل . واعتبر أنّ الفلسفة العربية ، ولا سيّما فلسفة ابن رشد ، تقول بالافتراض الثاني (٢) . وأبدى رينان إعجابه بالمعتزلة ، هذه " الحركة الاصلاحيّة العظيمة" ، وقال إنّنا نجد أثرها معبّر عنها في "رسائل اخوان الصفاء" التي هدفت الى التوفيق بين الفلسفة والإسلام ، إلّا أنّها لم ترض لا الفلسفة ولا أرباب الدين (٣). ورأى أنّ الفلسفة العربية استطاعت أن تستوعب مسائل المشائيّين الكبرى بجرأة وبصيرة وقد سعت جاهدة لحلّها . وأقرّ أنّها أرفع شأنا من فلسفة الغربيّين في القرون الوسطى (٤).

١ــ Renan, Averroès, p . 1-2
ورينان ، ابن رشد ، ص ٢٣ .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .
وبالعربية، ص ١٢٢ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .
وبالعربية، ص ١١٨ــ ١١٩ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .
وبالعربية ، ص ١٢٢ .

إلاّ أنّ له رأيا آخر حول هويّة هذه الفلسفة العربية نعرضه مفصّلا من بعد .

رحلـــة أثـريّـة إلـى بلاد الشام

في أواخر ايار ١٨٦٠ عرض الامبراطور نابوليون الثالث على رينان أن يقوم بمهمّة أثريّة في بلاد الشام بحثا عن الآثار الفينيقيّة (١). فنصحته أخته بقبولها ورافقته في كلّ خطوة من خطوات الرحلة(٢) . وقد أبدى رينان إعجابه بجمال بلاد الشام التي شدّه إليها جوّ إلهي يختلف تماما عن الأجواء الباردة والقلقة التي يعيشها رينان في وطنه(٣) . وسنحت للأخوين الفرصة لزيارة فلسطين فذهبا إليها في ٢٦ نيسان ١٨٦١ وعادا منها إلى لبنان في ٢٥ أيار(٤) . وقد تركت روعة المكان في ذاكرتهما أحلاما كأنّها من عالم آخر(٥) . وبدأ رينان وهو في فلسطين بكتابة "حياة المسيح La Vie de Jésus" الذي كان يكنّ له إعجابا كبيرا ويحسّ في قرارة نفسه أنّه ، وإن هجر الكنيسة، سيبقى دوما مخلصا له(٦) . وقد نشر الكتاب في حزيران ١٨٦٣ كجزء أوّل من أجزاء سبعة تؤلّف كتاب رينان " تاريخ أصول المسيحيّة Histoire des origines du christianisme " . وقد اهتمّ بأصول الأديان لاعتباره أنّ

١ــ Renan, Mission de Phénicie, p. 1 نذكره من بعد باسم Mission .

٢ــ Renan, Lettres, p. 44

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٤٥ و Renan, Souvenirs, p. 59 .

٤ــ Renan, Mission, p. 8

٥ــ Renan, Lettres, p.47

٦ــ Renan, Souvenirs, p. 225

منطلق الفلسفة الحقيقي مرتبط بنشأة الأديان وأنّ العمل الأهمّ الذي يجب أن يتمّ من أجل تقدّم علوم الانسانية هو في ايجاد نظرية فلسفية في الأديان(١).

وقد رأى أنّ المسيحيّة نتيجة لليهوديّة التي سبقتها . الّا أنّ المسيح خرج من اليهوديّة كما تحدّر سقراط من مدارس السفسطائيين ولوثر من العصر الوسيط ولامنيه Lamennais (٢) من الكاثوليكيّة وروسّو من القرن الثامن عشر. فتحوّل المسيح عن الفكر اليهودي هو الذي ميّز فكره ، ومجده لا يشاركه فيه أي شريك شرعي(٣) . إنّ " المسيحيّة" هي المرادف "للدين" . فالمسيح هو الذي أرسى دعائم الدين في الانسانية مثلما أسّس فيها سقراط الفلسفة وأرسطو العلم. لقد أنشأ المسيح الدين المطلق(٤)، دين البشرية الأبدي(٥) . وبعد أن ابتدعت بلاد اليونان فكرة المثال قامت المسيحيّة فابتدعت مثال الخير(٦) .

١ــ Renan, Avenir, p. 278

٢ــ Félicité R. de Lammenais . كاتب ومفكّر فرنسي (١٧٨٢ــ١٨٥٤) . صار كاهنا ودرس اللّاهوت. عبّر في مؤلّفاته عن كرهه للغاليكانيّة وحاول البحث عن المسيحيّة القريبة من الأناجيل والواقعة ضمن نطاق روما . أنشأ كلّية لاهوتيّة للدراسات العليا كوّن فيها نخبة الكنيسة الفرنسية في القرن التاسع عشر . غير أنّه صُدم عندما قدّم البابا غريغوار السادس عشر دعما غير مباشر الى نقولا الأوّل ، واعتبر أنّ الكرسي الرسولي تخلّى عن الطريق التي رسمها إله ولد فقيرا ومات فقيرا . ثم نشر كتاب " أقوال مومن Paroles d 'un croyant"(١٨٣٤) شهّر فيه بالبابوية التي "طلّقت المسيح" . واستمرّ مخلصا للأناجيل ولكن خارج كنيسة لن يتصالح وإيّاها أبدا . كان أوّل من طالب بفصل الكنيسة عن الدولة .

٣ــ Renan, Vie, p. 471

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٤٦٢ .

٥ــ Renan, De la part des Peuples Sémitiques dans l'histoire de la civilisation, p. 23.
نذكره من بعد باسم Peuples Sémitiques.

٦ــ Renan, Mission, p. 830

دور سيـــاســـي ؟

يبـدو أنّ رحلة رينان الى بلاد الشام كانت تتوخّى أهدافا عدّة بينها الهدف العلمي . فرينان نفسه يقول في مقدّمة كتابه "مهمّة فينيقيا Mission de Phénicie" الذي وضعه إثر هذه الرحلة انه كان منذ زمن بعيـد يعتقد ان التنقيب عن الآثار في فينيقيا القديمة أمر ضروري جدّا ، وأنّه عندما طلب اليه الامبراطور في أواخر ايار ١٨٦٠ أن يقوم بهذه المهمّة اندلعـت في [جبل] لبنان في اليوم ذاته تقريبا، و"بصدفة غريبة" ، المجازر التـي أدّت سريعا الى ادخال فرقة من الجيش الفرنسي الى بلاد الشام(١) .
ويقول إنّ فرنسا ترفق دائما بعثاتها العلمية بحملاتها العسكرية في البلدان البعيدة "لأنّها تهتمّ بالأمور الفكرية" ، إذ كان وجود الجيش الفرنسي في سوريا مؤاتيا جدّا للبحث عن الآثار خصوصا انه اتّخذ قرار يقضي بأن يقوم الجنود بحملات التنقيب . وعندما وصل رينان الى بيروت في اواخر تشرين الأول من سنة ١٨٦٠ ساندَه الجنرال دو بوفور De Beaufort قائد القوّات الفرنسية في أبحاثه وقرّر أن يلحق سريّة بكل عملية تنقيب يقوم بها واتّخذ إجراءات فعّالة حتّى يكون المشروع حقيقة من عمل الجيش الفرنسي(٢) . وفيما كانت اللجنة الدولية ، المؤلّفة من ممثّلي فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا برئاسة وزيـر

١ـ Renan, Mission, p. 1

٢ـ المصدر نفسه ، ص ٢.
وهو يذكر أنّ ضباطا انكليز قاموا بأبحاث في فلسطين أكثر أهمّية من تلك التي قام بها الفرنسيون قبلهم . وقد أدار هذه الأبحاث الضابطان المهندسان ويلسن Wilson و ورين Warren . المصدر نفسه ، ص ٧٨٥، الهامش رقم ٢ .

خارجية الباب العالي فؤاد باشا ، تناقش موضوع إعادة تنظيم لبنان ، اتّضح لرينان "بكل تأكيد" ابتداء من اواخر آذار ١٨٦١ أن الجيش الفرنسي سيغادر سوريا في اوائل حزيران من العام نفسه(١) . وقد غادر هذا الجيش بالفعل لبنان في الخامس من حزيران أي قبل التوقيع على "النظام الأساسي" Règlement Organique بأربعة أيام فقط(٢) . وقد أرسل رينان عدّة تقارير الى الامبراطور يخبره فيها عن سير الأعمال ، كان ثانيها في اوائل حزيران في تلك الفترة الحرجة بالذات من العام نفسه(٣) . وفي ذلك ما يوحي بالدور السياسي الذي قد يكون رينان أدّاه في تلك المرحلة الهامّة من تاريخ لبنان . وربّما كان اهتمام رينان السياسي ـ العسكري هذا ممهّدا لهدف سياسي من نوع آخر .

يقول رينان إنّ اسم "فينيقيا" بقي محفوظا حتّى الفتح الاسلامي ، فما إن بدأ العصر الاسلامي حتّى اختفى(٤) . واعتبر أنّ الفينيقيّين تمتّعوا بموهبة خاصّة هي موهبة الكتابة . فالألفباء اليوناني واللاتيني الذي تعود اليه كلّ الألفباءات الاوروبيّة ليس في الأصل سوى الألفباء الفينيقي . وذهب الى أنّ

١ـ Renan, Mission, p.6

٢ـ الصليبي ، تاريخ لبنان الحديث ، ص ١٤٧ . نذكره من بعد باسم تاريخ .

٣ـ Renan, Mission, p.5 et p.9
كما ان زوجة رينان ، التي كانت قد لحقت بالأخوين في شهر كانون الثاني ، غادرت لبنان في تموز ، أي بعد رحيل الجيش الفرنسي ، من أجل اتمام "مشاغل أخرى" . أنظر : Renan, Lettres, p. 47 .

٤ـ Renan, Mission, p.827,n. 1

علم الأصوات Phonétisme هو اختراع فينيقي أيضا . وربّما كنّا بدونه ما نزال نشقى مع الهيروغليفيّة(١) .

يقول رينان إنّ فينيقيا من حيث جغرافيتها لم تكن تشكّل بلدا بل كانت سلسلة من مرافئ يليها منبسط ضيّق. وهو يعتبر أنّ الحضارة الفينيقيّة لم تنتشر في الجبل وأنّ تأثيرها على شعوب سوريا كان ضئيلا . فقبل السيطرة اليونانية كانت سوريا ولبنان وسوريا المجوّفة أو الوسطى Coelésyrie(٢) بلدانا متخلّفة تماما. فطرقاتها التي لا يمكن سلوكها الّا بصعوبة كان قد شقّها الرومان. وحتّى هذه الطرق، مثل طرق نهر الكلب، لا تستطيع العربات أن تسلكها مطلقا لأنّ العربات لم تكن معروفة في سوريا قبل بعثة سنة ١٨٦٠. وقد شهد رينان الاندهاش الذي أحدثته عربات المهمّة الأثرية في سكّان سوريا . لقد كان الجمل "عدو الحضارة" في رأيه والمتسبّب بخراب الطرقات وسيلة النقل الأولى داخل البلاد . وهكذا ذهب الى اعتبار الصراع بين الحضري والبدوي، أي بين السرياني والفينيقي من جهة والأعرابي من جهة أخرى، مفتاح تاريخ سوريا كلّه. كان البدوي في ظلّ الحكم الروماني مقموعا، ممّا جعل تدمر وحوران تصلان الى حضارة متكاملة . وكانت أراضي سوريا المزروعة يومها ضعف ما هي اليوم، وكانت طرقاتها آمنة . ويدّعي رينان أنّهما منذ غزاها البدو Saracènes(٣) في القرن السادس بدأت تصبح بربريّة . وهو يستثني [جبل] لبنان الذي أنقذته أوضاع دفاعه الطبيعية من غزوات هؤلاء . ورأى

١ــ Renan, Peuples Sémitiques, p.20

٢ــ أي ما يسمّى اليوم سهل البقاع.

٣ــ Saracènes : قبيلة من شمال الجزيرة العربية قاومت الأباطرة البيزنطيين مقاومة شديدة ثم اعتنقت الإسلام . ويرى بعضهم ان هذه التسمية هي سبب إطلاق الغربيين في ما بعد على العرب اسم Sarrasins .

أنّ منطقة صيدا هي أكثر تعرّبا من كسروان إذ دخلها العنصر العربي بقوّة أكبر (١) .

وكما وجد رينان في جبل لبنان بقعة مميّزة لأنّها لم تتأثّر بالمدّ العربي، كذلك اصطفى للموارنة منزلة خاصّة بين أبناء مختلف الطوائف الذين تسنّى له الاختلاط بهم في هذه الرحلة. إنّ "الشعوب المارونيّة" — على حدّ تعبيره — هي الوحيدة التي تجاوبت معه في أعمال التنقيب . فبطريرك الموارنة نفسه أعطاه معلومات قيّمة وطلب إلى الإكليروس أن يساعدوه كما سمح له من أجل تسهيل مهمّته بأن ينتزع من جدران الكنائس بعض الأحجار التي تتمتّع بأهمّية تاريخية . والزعيم الماروني يوسف كرم (٢) ذلّل له في منطقة كسروان جميع الصعوبات التي كانت حتماستواجه مهمّته . لقد وصف رينان علاقته بهذه الشعوب " الطيبة واللطيفة" بأنّها كانت ممتازة الى أقصى الحدود إذ انه لم يلق أيّ اعتراض من ملّاكي الأراضي التي أراد التنقيب فيها ، بل انهم وفّروا له دائما أفضل الأسباب المتيسّرة . ووجد أنّ ثمّة علاقة مميّزة تربط الموارنة بفرنسا . فقال إنّه لن ينسى أبدا الاستقبال الذي احتضنته به هذه الشعوب التي تخلص لفرنسا وتشعر نحوها بعاطفة عرفان الجميل . هذا الاستقبال كان أقوى من أن يفسده احتكاك رينان

---

١ — Renan, Mission, p.836-837

٢ — لقد اختلفت آراء المفكّرين حول هويّة الدور الذي أدّاه هذا الزعيم الماروني . فكمال الصليبي مثلا يرى أنّ الموارنة اعتبروه ، بتشجيع من الفرنسيين، مثال البطل اللبناني وأنشأوا حوله فكرة القومية اللبنانية . راجع : الصليبي ، تاريخ ، ص ص ١٥٠ — ١٥٢ .

بينما نقل وميض نظمي عن سمعان الخازن قوله إنّ يوسف كرم قد اقترح منذ ١٨٧٠ إقامة دولة عربية مستقلّة تحت سلطة الأمير عبد القادر الجزائري المعروف بميوله العربية .

وميض نظمي ، ملامح من الفكر العربي في عصر اليقظة وعلاقته بفكرة القومية العربية . بحث نشر في دراسات في القومية العربية والوحدة ، ص ١٣١ . نذكره من بعد باسم ملامح .

بالارثوذكس والسنّة والشيعة . فقد تذرّع بعدم تعاونهم معه كي يصبّ عليهم كلّ غضبه . وذهب إلى أنّ ثمّة حائطا في هذا " البلد المسكين" يفصل أبناء المناطق بعضهم عن بعض بموجب انتمائهم المذهبي (١) .

وفـــاة هنـريـيـت أو نهايـة الرحلـــة

في ٢٠ أيلول ١٨٦١ أصيبت هنرييت شقيقة رينان، وهما في عمشيت، بحمّى خبيثة عطّلت فيها الوعي . وفي الوقت عينه تقريبا أصيب رينان بالمرض نفسه فأغمي عليه قربها . وعندما استفاق من غيبوبته بعد اثنتين وثلاثين ساعة وجد أنّ أخته قد توفّيت (٢) ودفنت في عمشيت . فآثر أن يبقي جثمانهـــا هناك في ربوع هذه الجبال الحلوة وبين أناس طيّبين أحبّتهم على أن ينقله الى المقابر الحزينة التي كانت ترعبها في فرنسا (٣) . ولم يلبث أن غادر بيروت في ١٠ تشرين الأوّل من العام نفسه .

بعد مرور سنة على وفاة هنرييت، وضع رينان كتيّبا عنها وزّعه على عدد قليل من معارفها تخليدا لذكراها . لكنّه لم يشأ أن ينشر هذا الكتاب إلاّ

١ــ Renan, Mission, p. 13-14 et p.633
وامتدح رينان الموارنة أيضا في: Renan, Lettres, p.49 .
كما أنّ اخته هنرييت تعلّقت هي أيضا بالموارنة وانتقدت قسوة المدن التي يسيطر عليها الطابع الإسلامي . أنظر: المصدر الأخير، ص ٤٦ .

٢ــ Renan, Mission, p.12
يذكر رينان تاريخين لوفاة أخته . فهي حسب هذا المصدر قد توفّيت في ٢٢ أيلول على أبعد تقدير . لكنّه في كتاب آخر يقول إنّها توفّيت في ٢٤ أيلول .
راجع: Renan, Lettres, p. 59 .

٣ــ المصدر الأخير .

بعد وفاته هو . وقد سمح في ملحق لوصيّته كتبه في تشرين الثاني سنة١٨٨٨ أن يُطبع هذا الكتيّب مع رسائل كانت أخته قد كتبتها إليه . وطلب إلى زوجته أن تهتمّ بهذا الأمر . وقد صدر الكتاب الذي حوى الكتيّب والرسائل سنة١٨٩٦أي بعد وفاة رينان بأربع سنوات[١] ، وكان بعنوان "رسائل حميمة (١٨٤٢ــ١٨٤٥) Lettres Intimes (1842-1845)".

رينان والمرأة

يبدو أنّ حبّ رينان لأخته كان أعظم حبّ في حياته . وأمّا هنرييت فأحبّت أخاها بأنانيّة ،كما تحبّ النساء عادة حسب رأيه . وهي لم تقبل التنوّع في علاقاته بهنّ . وعصفت بعلاقتها به كلّ الزوابع التي يمكن أن تعصف بالمحبّين. أخبرته مرّة انها سترحل في اللحظة التي يقترن فيها بإنسان آخر ،فشعر رينان بالموت يتسلّل إلى قلبه . كان عليه أن يختار بين حبّين : حبّه لأخته وحبّه لخطيبته كورنيلي شيفير Cornélie Scheffer . وعندما قرّر بدافع الواجب أن يحتفظ بأخته ،أحسّت هنرييت بالندم ،فذهبت والتقت خطيبة أخيها وكتا وتصادقتا . تزوّج رينان من كورنيلي وأكبرها لأنّها حوّلت لحظات دامعة بين الثلاثة عناقا متبادلا . ولد للزوجين صبي أسمياه اري Ary وبنت لم تعش إلّا شهورا قليلة . دخلت هنرييت مجرى حياة العائلة وتآلفت معها وتحابّت وزوجة أخيها وصار لكلّ منهما منزلة خاصّة في قلب رينان . وقبل موت هنرييت بقليل قالت لأخيها كلمات تشهد بأن جروحها التأمت وأنّه لم يبق من

١ــ Renan, Lettres , Avertissement,p. 7-8

وقد رأى رينان في كتابة الرسائل أمرا تعذيبيّا بالنسبة إليه ،واعتبر أنّه إذا ما نشرت رسائله بعد موته فسيكون ذلك عارا عليه . أنظر : Renan, Souvenirs, p.120 .

مرارات الماضي إلّا الذكرى[١]. وشعر رينان بموتها " أنّ جزءا منه قد ذهب معها الى القبر"[٢].

كان لبعض العوامل المتعلّقة بنشأة رينان أثر في علاقته مع النساء. فالرجال في المحيط الذي نشأ فيه، على حدّ ما يذكر هو نفسه، مزارعون ينتمون إلى مستوى حضاري متدنّ ويحترمون القوّة الجسديّة ويكنّون بعض الكره للنساء ولكلّ ما يبدو نسائيّا[٣]. يضاف الى ذلك أن تربيته الدينيّة قد أسهمت في إبقائه بعيدا عن جو العلاقات العاطفية[٤].

كان يخاف المرأة فينطوي على نفسه إلى أقصى الحدود. وهو يستشهد بقول لأحد قدّيسي القرن السابع عشر يشبّه فيه المرأة بالسلاح الناري الذي يجرح عن بعد. ولبث رينان فترة طويلة على هذه الحال حتّى قارب الشيخوخة فأدرك عندها أنّ هذا القول لم يكن الّا ادعاء، وفهم حكمة سفر الجامعة القائل: " إذهب كل خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب طيّب لأنّ اللّه منذ زمان قد رضي عملك.. التذّ عيشا مع المرأة التي أحببتها كلّ أيام حياة باطلك"..[٥]

قليلا ما عبّر رينان عن رأيه في المرأة. وهو في معظم الأحيان التي فيها تحدّث عنها يقلّل من شأن تفكيرها. فهو حينا يساوي بين هذا التفكير

١ــ Renan, Lettres, pp.40-43

٢ــ المصدر نفسه، ص ٣٢.

٣ــ Renan, Souvenirs, p. 111

٤ــ المصدر نفسه، ص ٩٥.

٥ــ المصدر نفسه، ص ٣٠ــ ٣١.
راجع بشأن النصّ العربي سفر الجامعة، الاصحاح التاسع: ٧ و ٩.

وتفكير الأطفال،كما يستشفّ من قوله عندما يتحدّث عن الانسان الناضج إنّ هذا الأخير ما عاد يستطيع أن يؤمن بما يؤمن به النساء والأطفال[١] .
وهو ،حينا آخر ،يجرّد تفكير المرأة من المنهجيّة العقلية ؛ فهو عندما يعتبر أنّ الدين لا يتأسّس بواسطة منهجيّات عقلية لأنّه ينبثق من تلبية الحاجات الأكثر إلحاحا في طبيعتنا كحاجتنا الى الحب والعذاب والايمان ،ينتهي الى أنّ المرأة كانت العنصر الأساسي في المنطلقات الدينية لأنّ المسيحية كانت قائمة أصلا على العنصر النسائي . أمّا الإسلام الذي لم تكن فيه عناصر نسائية شبيهة بمريم المجدلية أو القديسة تقلا أو غيرهما ،فلم يعتبره دينا سماويّا بل رأى فيه دينا طبيعيّا جديّا حرّا ،أي دين رجال . ومع ذلك فقد استطاع الإسلام ،هذا الدين العقلاني المتّزن،أن يجذب النساء بمغرياته[٢] .
وفي موضع آخر يرفض رينان فكرة تمتّع المرأة بدور فكري . فيقول إنّ الاشتراكيين يخطئون كثيرا عندما يتحدّثون عن مهمّتها العقلانية إذ يريدون أن يجعلوا منها رجلا . إلّا أنّ المرأة لا يمكن أن تكون إلّا رجلا رديئا لذلك وجب أن تبقى كما هي . إنّها مختلفة عن الرجل لكنّها ليست أقلّ شأنا منه . فامرأة تامّة الصفات تعادل رجلا كامل المزايا . ولكن يجب أن تكون متميّزة على طريقتها لا في تشبّهها بالرجل . وهي تختلف عن الرجل كما يختلف السلب عن الايجاب في الكهرباء . واجتماع السلبي بالايجابي يشكّل التكامل[٣] . غير أنّ هذا التعبير اللّبق لا ينفي اعتقاد رينان الضمني بأن المرأة أقلّ فهما من الرجل خصوصا إذا ما عرفنا مثلا انه يعتبر حضور المرأة ودورها في المجتمعات الحديثة عائقا أمام قيام حوارات فلسفية كالتي كانت تجرى أيّام اليونان ،لأنّ قدرتها على الفهم تجعل دائرة المناقشات ضيّقة . ويذهب الى

١— Renan, Avenir, p. 490

٢— Renan, Mahomet et les origines de l'islamisme,p. 32
نذكره من بعد باسم Mahomet .

٣— Renan, Avenir, p.524 , note 169

القول انّه لو شاركت النساء الحكماء السبعة في "المأدبة" لما استطاعوا التحاور بهذا المستوى الرفيع[١] .

نسبيـــة المساواة بين النـــاس

وكما يرفض رينان التماثل بين المرأة والرجل ،كذلك يرى أنّ المساواة المطلقة بين البشر مستحيلة . فواجب كلّ انسان أن يكون ما يتيسّر له أن يكونه . واكتمال الانسانية يتحقّق من خلال اشتراك الجميع في تحقيق كمالها[٢] . وحتّى لو كان الكمال ممكنا عند بعضهم[٣] فإنّ الانسان الكامل يبقى على شيء من الضعف . ألم يكن المسيح كذلك ؟[٤] إنّ بلوغنا الحياة الحقّة يتمّ عبـر الألم[٥] والهدف هو الكمال . يقول رينان : لو لم أكن مؤمنا بأنّ الانسانية مدعوّة الى تحقيق هذا الهدف لأصبحت ابيقوريّا إذا استطعت ذلك ،أو لانتحرت[٦] .

الحيـــاة الثانـــية

إنّ الانسان ،في رأي رينان ،يخلد في ذاكرة الله . فعندما ماتت أخته خاطبها قائلا: ارتجف عندما أفكّر في أنّك صرت ترابا . ولكن كل شيء في

١ــ Renan, Avenir, p. 526,note 188

٢ــ المصدر نفسه ،ص ٣٨٧ .

٣ــ المصدر نفسه ،ص ٣٢١ .

٤ــ Renan, Lettres, p.246

٥ــ Renan, Avenir, p. 426

٦ــ المصدر نفسه ،ص ٤١١ .

هذه الدنيا ليس إلّا رمزا وصورة . فالقسم الخالد حقّا في كل واحد منّا هو الصلة التي أقامها مع اللانهاية[١] . ولرينان رأيان مختلفان حول المعاد . فهو إمّا يعترف به ويهمل البحث فيه لأنّه غير مريح ، وإمّا يرفض فكرة الحياة بعد الموت رفضا مطلقا . فهو تارة يعتبر أنّ الايمان بالخلود ضروري ومقدّس، إلّا ان المبالغة في الاهتمام بالحياة القادمة مضرّة براحة الانسانية ممّا يوجب علينا أن ننظّم حياتنا الحاضرة وكأن الحياة القادمة غير موجودة[٢]،وهو طورا يرفض فكرة الخلود المألوفة ويعتبرها غير مقبولة ،فيقول إنّ الانسان ليس جسدا وروحا بل هو وحدة[٣] ،وهذه الوحدة تتجلّى من خلال هاتين الظاهرتين . الانسان مادّة أي انه حسّي ويتمتّع بخصائص جسدية ،وهو روح أي أنّه يفكّر ويشعر ويتعبّد . الروح في الانسان هي الغاية كما أنّ الزهرة هي غاية النبتة[٤] . يجب أن نسقط المفاضلة بين الجسد والروح وأن نؤمّن للجسد "حاجاته النافهة" كي لا تعيق هذه الحاجات تطلّعاتنا الروحية[٥] . إنّ البراهين التي أبرزها ديكارت لإثبات وجود روح مستقلّة عن الجسد تبدو دائما بالنسبة الى رينان ضعيفة ،فهو يعتبر نفسه مثاليّا لا روحانيّا[٦] . ولطالما اهتمّ بذوي الطباع المثالية كالشهداء والأبطال والمتطلّعين الى المستحيل ،فهؤلاء هم موضوع "اختصاصه"[٧] .

١ــ Renan, Lettres, p. 63

٢ــ Renan, Avenir, p.331-332

٣ــ المصدر نفسه ،ص ٩٩ .

٤ــ المصدر نفسه ،ص ٤٧٨ .

٥ــ المصدر نفسه ،ص ٤٠٤ .

٦ــ Renan, Souvenirs, p. 183

٧ــ المصدر نفسه ،ص ١٠١ .

موقفـــه مـــن المسيـــح

عاد رينان بعد وفاة أخته في لبنان إلى فرنسا ، فعيّن في ١١ كانون الثاني ١٨٦٢ أستاذا في الكوليج دو فرانس Collège de France. وكان موضوع المحاضرة الافتتاحيّة التي ألقاها هناك يدور حول إسهام الشعوب الساميّة في تاريخ الحضارة . وقد أثار نصّها عاصفة دينيّة إذ اعتبر المسيح فيها "رجلا لا مثيل له" Un homme incomparable ، ووصفه بأنّه عظيم إلى درجة لا يريد معها أن يكذّب الذين يسمّونه اللّه[١] . فكان من وزير المعارف أن أصدر قرارا بوقف درس رينان . ثم نشر رينان في السنة التالية كتابه "حياة المسيح" فزاد من تلبّد الأجواء إذ كرّر فيه التسمية نفسها[٢] كما أطلق عليه تسمية أخرى مشابهة هي "المعلّم الذي لا مثيل له" Le maître incomparable[٣] ووصفه بأنّه أعظم أبناء الإنسان أو هو نصف إله ، هو الفرد الذي قام بأكبر خطوة نحو الالوهيّة[٤] . وقال "إنّ المسيح لم يعلن قطّ انه هو اللّه بل كان يعتقد أنّه على صلة مباشرة به ويظنّ أنّه هو ابنه[٥] . واعتبر رينان أنّ الاناجيل غير موحى بها[٦] . وكان يرى أنّ

١ــ Renan, Peuples Sémitiques, p. 23

٢ــ Renan, Vie, p. 19

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٣٠١ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٤٧٤ــ ٤٧٥ .

٥ــ المصدر نفسه ، ص ٧٨ــ٧٩ و ص ص ٢٥٢ ــ ٢٥٥ .

٦ــ المصدر نفسه ، من تمهيد الطبعة الثالثة عشرة ، ص ص V و IX .

التناقض بين الانجيل الرابع والأناجيل الأخرى مسألة بدهيّة وهو مستعدّ بلا تردّد للمراهنة بحياته من أجل إثبات هذا التناقض[١] . فقال في كتابه عن حياة المسيح ، ولا سيّما في كلمة مهّد بها للطبعة الثالثة عشرة منه ، بأنّه ما عاد يعتقد أنّ الإنجيل الرابع قد كتبه يوحنّا بل أنّ أحد تلاميذه نسبه إليه في حوالي العام مئة . واعتبر أنّ كلّ الخطب في هذا الإنجيل هي شبـــه وهميّة[٢] ، وقال إنّ المسيح ولد في الناصرة لا في بيت لحم[٣] . وأكّد فيه وفي مواضع أخرى أنّه لا يؤمن بالمعجزات على الإطلاق ، قائلا إنّ الإنسان البدائي كان يعتبر المعجزات أمرا طبيعيّا تماما يمكن أن يحدث في أي وقت لأنّ ذلك الإنسان لم يكن يعتقد بوجود القوانين أو بوجود الطبيعة[٤] . العلم اليوناني هو الذي خلق فكرة إنكار القوى الخارقة surnaturelle وصار رفض المعجزة شائعا في مدارس جميع البلدان التي تلقّت العلم اليوناني . حتّى إنّ حضارتيّ بابل وفارس لم تكونا غريبتين عن هذا الرفض . إلّا أن المسيح ، رغم ولادته في زمن طرح فيه مبدأ العلم الوضعي ، قد عاش فـــي مناخ خارق بكلّيته . كان مثل مواطنيه يؤمن بالشيطان ويراه نوعا من تجلّي عبقريّة الشرّ[٥] . غير أنّ رينان اعتبر الايمان بالوحي وبالخارق أمرا يشكّل موضوعا للنقد ورأى فيه مخلّفات من المفهوم التجسيمي anthropomorphique القديم للعالم الذي نشأ في زمن لم يكن الإنسان فيه قد توصّل بعد إلى مفهوم واضح لقوانين الطبيعة[٦] . وقال إنّ الطريقة الوحيدة للشفاء من الخارق،

١ــ Renan, Souvenirs, p.216

٢ــ Renan, Vie, Préface, p. XI
لمعرفة النتائج التي توصّل إليها حول الإنجيل الرابع ، راجع الصفحتين ٥٣٦ و ٥٣٧ من الكتاب نفسه .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٢١ .

٤ــ Renan, Avenir, p. 47

٥ــ Renan, Vie, p. 42

٦ــ Renan, Avenir, p. 46

هذا المرض الغريب، هي الثقافة الحديثة . وقد جعل الإيمان به بدرجة الإيمان بالسحر والشعوذة[١] . وهو عندما تحدّث سابقا عن ضياع إيمانه قال إنّه يحاول ألّا يتخلّى عن كلّ ما في المسيحية، مع احتفاظه منها بما يستطيع ممارسته ما عدا الإيمان بالخوارق[٢] .

الإعجاب بالحضارة الاغريقيّة

مرّ رينان سنة ١٨٦٥ بأثينا ضمن رحلة قام بها من القاهرة إلى القسطنطينيّة فأحسّ للمرّة الأولى أنّ للكمال مكانا واحدا هو هذا المكان . وفي الاكروبول كتب دعاءه المشهور بـ "صلاة في الاكروبول Prière sur l'Acropole" وقال فيه : كنت حتّى الآن أظنّ ان الكمال ليس من هذا العالم . إلّا ان الأعجوبة اليونانيّة، التي حصلت مرّة ولن تتكرّر، هي نوع من الجمال الخالد الذي لا طابع محلّيا أو وطنيّا له. كنت أعلم قبل سفري أنّ اليونان قد خلقت العلم والفنّ والفلسفة والحضارة، إلّا أنّني ما كنت أعرف بأيّ مقدار فعلت هذه الأشياء . وعندما رأيت الاكروبول أحسست بظهور إلهي كالذي انتابني للمرّة الأولى عندما شعرت أنّني أحيا الإنجيل وأنا أنظر إلى وادي الأردن من مرتفعات قاسيون . لقد بدا لي العالم كلّه آنئذ بربريّا . وعندما توصّل رينان إلى فهم جمال الأكروبول الكامل خاطبه قائلا : أيّها النبل ! أيّها الجمال البسيط الحقيقي ! يا آلهة عبادتها تعني العقل والحكمة . لقد وصلت متأخرا الى عتبة أسرارك، وها أنا أحمل إلى مذبحك الكثير من الندم .

١ــ Renan, Avenir, p. 47-48

٢ــ Renan, Souvenirs, p. 246

لقد احتجت حتّى أجدك أبحاثا لا نهاية لها ...[١]

وقد عبّر رينان مرارا عن إعجابه بالشعب اليوناني والحضارة اليونانيّة . فهذا الشعب كان قديما يشارك كلّه في الحياة الفكرية ويفهمها ، شعب أثينا كلّه كان يصفّق لمسرحيّات سوفوكل ويعرف هوميروس ، بينما الشعب الفرنسي المعاصر منقسم بين مثقّف وبربريّ ، فالأدب عند الفرنسيّين هو للنخبة لا للشعب كلّه[٢] . " المدرسة" اليونانيّة القديمة كانت تمرينا للفكر ولا شيء عند الفرنسيين يشبهها ، كما أنّ المحاورات الفلسفيّة لم يعد اجراؤها معقولا[٣] . إنّ المجتمع اليوناني كان يجهل القناعات الارستقراطيّة التي تعيّر كلّ من يمارس مهنة يدويّة وتنبذه من العالم "المتميّز". فأمّونيوس سكّاس Ammonius Saccas مؤسّس أهمّ مدرسة فلسفيّة قديمة كان حمّالا . المهنة اليدويّة كانت قديما حلية ، أمّا اليوم فقد أصبحت تستوعب الفرد لتغدو هي كيانه . النجّار أصبح آلة بشريّة لصنع الأثاث[٤] . يجب أن نعود إلى الحضارة اليونانية لأنّها ، إذا ألغينا منها العبوديّة ، أصبحت نموذجا فريدا للحضارة الحقيقيّة[٥] . وحدها بلاد اليونان خلقت النموذج . مجدها في أنّها خلقت المطلق في العقل وفي الذوق ، في الحقيقي وفي الجميل . إنّ كلّ بحث جديد يجب أن ينتهي بتمجيد اليونان[٦] .

١ــ Renan, Souvenirs, pp. 59-62

٢ــ Renan, Avenir, p. 322

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٤٦٦ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٣٩٥ــ ٣٩٦ .

٥ــ المصدر نفسه ، ص ٤٦٣ .

٦ــ Renan, Mission, p. 829- 830

مرحلـــة الانتـــاج الغـــزيـــر

بعد الهزّة التي أحدثتها محاضرة رينان الأولى في الكوليج دو فرانس، توقّف رينان قسريًا عن التدريس في هذا المعهد مدّة ثماني سنوات، ولـــم يعد إلى منصبه السابق إلّا في ١٧ تشرين الثاني ١٨٧٠ بعد سقـــوط الامبراطوريّة الثانية وإعلان الجمهورية في فرنسا . وعندما انفجرت عامّية باريس La Commune de Paris في آذار ١٨٧١ غادر رينان العاصمة الـــى مدينة فرساي، وفيها كتب خلال شهر أيار مؤلّفه " محاورات Dialogues"، وفيه يقول : كنت قد تركت باريس في نهاية شهر نيسان حزينا بسبب العمايات aberrations التي كنّا شهودا عليها . كنت يومها محروما من كتبـــي وبعيدا عن أعمالي فملأت هذه الفراغات القسرية بالعودة الى الذات وبكتابة ملخّص لمعتقداتي الفلسفية(١) .

انتخب رينان عضوا في الاكاديمية الفرنسية سنة ١٨٧٨ وصار مديرا للكوليج دو فرانس سنة ١٨٨٣ . وفي هذه السنة أصدر كتابه " ذكريات من الطفولة والفتوّة "Souvenirs d'enfance et de jeunesse وألقـــى محاضرة في السوربون عنوانها " الإسلام والعلم l'Islamisme et la science " أثارت ضجّة في الوسط الإسلامي وردّ عليها جمال الدين الأفغاني(١٨٣٩—١٩٠٧) ثمّ كتب "تاريخ شعب اسرائيل Histoire du peuple d'Israël " لأنّه أراد بعد انتهائه من وضع تاريخ المسيحيّة أن يعود الى المرحلة التي سبقتها، إلـــى تاريخ الشعب اليهودي، إذ فيه يكمـــن التعليل الحقيقي للمسيحية . وكان يرى ان العودة الى الماضي الديني الذي يسبق ديانة ما أمر هامّ من

١ــ Renan, Dialogues, préface, p.V

أجل دراسة تلك الديانة(١) . وقد ظهر هذا الكتاب بين ١٨٨٧ و ١٨٩٤ في خمسة أجزاء . وقال رينان إنّه يريد أن يعالج فيه ولادة واحدة من الديانات حسب النهج المتّبع عادة عند علماء الطبيعيّات .

في رأيه باليهود بعض التناقض. ففي محاضرة ألقاها في مجمع الدراسات اليهودية في موضوع اليهوديّة والمسيحيّة مدح اليهود قائلا إنّهم خدموا في الماضي قضيّة الفكر الحديث وسيخدمونها في المستقبل وأنّ المسيحيّة لم تكن سوى تكملة لما جاء به أنبياء اليهود في ما يختصّ بالعقل وبالقانون(٢) . وفي كتابه "مستقبل العلم" أبدى إعجابه بالتوراة(٣) وبداوود الذي بنى أورشليم وجعل منها مركزا رفيعا في تاريخ البشريّة الأخلاقي ، وقد تنبّأ رينان بأنّ امتلاك أورشليم سيكون خلال قرون موضوع التحارب في العالم(٤) . ثمّ شنّ حملة على اليهود وعلى شريعة موسى في كتابه " حياة المسيح " إذ قال: لا تيبير Tibère الامبراطور الروماني ولا بيلاطس حكما على المسيح بالموت بل الحزب اليهودي القديم وشريعة موسى . وإذا كنّا نستطيع أن نحمّل أمّة مسؤوليّة جريمة ما ، فإنّنا نستطيع تحميل الأمّة اليهوديّة مسؤولية قتل المسيح ،

١ــ Renan, Le Judaïsme et le Christianisme. Identité originelle et séparation graduelle. Conférence faite à la société des études juives le 26 mai 1883. Paru dans: Discours de réception, p. 6-7 .

نذكره من بعد باسم Judaïsme .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤ــ ٢٥ .

٣ــ Renan, Avenir, p. 294

٤ــ Renan, Pages choisies, p. 115

نذكره من بعد باسم Pages .

لأنّ السبب الأوّل في موته كان الشريعة التي هي روح الأمّة بالذات . لقد قال اليهود لبيلاطس عن المسيح بصراحة تامّة : " نحن لدينا شريعة، وحسب هذه الشريعة يجب أن يموت لأنّه جعل نفسه ابن اللّه" . ويضيف رينان ، وربّما بإشارة الى الثورة الفرنسية ، أنّ الأمر اقتضى ما يزيد على ألف وثمانمئة سنة حتّى أتى دم المسيح ثماره . فباسمه ، وخلال قرون ، عُذّب مفكّرون نبلاء مثله وحكم عليهم بالموت. وحتّى اليوم ، تصدر عقوبات على جرائم دينيّة في بلدان تعتبر نفسها مسيحيّة . المسيح ليس مسؤولا عن هذه الممارسات . المسيحيّة مارست التعصّب ، لكنّ التعصّب ليس عملا مسيحيّا في الأصل . إنّه عمل يهودي بمعنى أنّ اليهوديّة أقرّت للمرّة الأولى نظريّة المطلق في ما يتعلّق بالايمان ، ووضعت المبدأ القائل إنّ كلّ فرد يُبعد الشعب عن الدين الحقيقي يجب أن يُرجم بالحجارة وأن يعامله الجميع بالسوء دون أن يحاكَم . إنّ أسفار موسى هي أوّل قانون يشرّع الرعب الديني بحيث تغدو اليهوديّة نموذجا للعقيدة الثابتة والمسلّحة بالسيف (١) .

وفـــــاتـــــه

انتهت حياة رينان بعد أن أمضى تسعا وستّين سنة مترجّحا بين مواقف فكريّة متّصفة بالتناقض. وذلك يعود إلى طبعه الذي يتميّز بهذه السمة . لقد قال هو عن نفسه : فيّ تناقضات ظاهرة . أنا إنسان مزدوج . يضحك قسم منّي أحيانا حين يكون القسم الآخر باكيا . هكذا أفسّر مرحي . فكأنّ فيّ شخصين،

---

١ — Renan, Vie, p. 425 -426

أحدهما دائما فرح (١) .

وينتقد رينان الذين لا يؤمنون إلّا في لحظات الخوف ويرفضون موقف ڤولتير . يقول : أنتم تبحثون عن الإيمان . ما أغرب المسيحيين ، مسيحيّي الخوف ! ما إن تشرق الشمس حتّى تعودوا كفّارا . لقد استطعتم أن تطردوا ڤولتير من مكتبتكم ولكنّكم لن تنتزعوه من ذاكرتكم لأنّه هو أنتم أنفسكم (٢) . إلّا أنّه يعود ويعترف بأن الإنسان بحاجة الى الدين عندما يكبر أو يمرض. فحتّى العقلاني يتّجه صوب الله ، إله النساء والأطفال ، عندما يكون عليلا . لا بدّ من دين ما حول فراش الموت . أيّ دين ؟ لا يهمّ . لا بدّ من وجود دين ما . حتّى هو نفسه لا يستطيع أن يعد بأنّه لن يعود إلى الدين . ففي كلّ مرّة يشعر بالضعف يحسّ بنوع من ارتداد إلى التقوى (٣) . وتتجلّى هذه العلاقة القلقة المترجّحة مع ربّه إذ يناجيه قائلا : الكنيسة هي التي كوّنتني ، وأنا مدين لها بما أنا عليه ولن أنساها أبدا . لقد فصلتني الكنيسة عن العالم الدنيوي وأنا أشكرها على ذلك . إنّني إنسان قد مسّه اللّه وسوف يبقى هذا الإنسان أبدا مخلوقا مستقلّا . منذ أن رأى اللّهَ ارتبك لسانه وما عاد يعرف التحدّث عن الأشياء الأرضيّة . يا إله شبابي ، كم أتمنّت أن أعود إليك ، وربّما فعلت ذلك مهزوما كامرأة ضعيفة . في الماضي كنت تستمع إليّ ، وكنت آمل أن أرى وجهك يوما لأنّني كنت أسمعك تجيب دعائي . ثم رأيت معبدك ينهار حجرا حجرا ، والمعبد ما عاد له صدى . وبدلا من مذبح مزيّن بالأضواء والزهور رأيت أمامي مذبحا منتصبا من البرونز تتحطّم عليه

١ــ Renan, Souvenirs, p. 116

٢ــ Renan, Avenir, p. 332

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٤٨٦ .

الصلاة القاسية الصريحة . هل هي غلطتي أم غلطتك ؟ الوداع إذن يا إله شبابي . ربّما ستكون إله سريري عند موتي . ومع انك خدعتني ، فإنّني ما أزال أحبك !(١)

فهل واساه إله سريره حين أغمض عينيه في الثاني من تشرين الأوّل سنة ١٨٩٢ في باريس ؟

---

١ — Renan, Avenir, p. 492

الفصـــــل الثانـــــي

نظـرة رينـان إلـى الشعـوب الساميّـة والإسلاميّة من النواحـي الدينيّـة والحضاريّـة والفكـريّـــة.

١- رأي رينان فـي الشعـوب الساميّـة

اهتمّ رينان في معظم مؤلّفاته بموضوع الساميّين . فتحدّث مثلا عـن دياناتهم ولغاتهم وخصّهم بالمحاضرة الأولـى التي ألقاها عام ١٨٦٢ عنـد تعيينه أستاذا في الكوليج دو فرانس، وكان عنوانها " De la part des Peuples Sémitiques dans l'histoire de la civilisation" أي " إسهام الشعوب الساميّة في تاريخ الحضارة" . كما أنّه كتب فيهم عام ١٨٥٥ كتابا بعنوان "Histoire générale et système comparé des langues sémitiques" . أي " تاريخ عام ونظام مقارن في اللّغات الساميّة" .

فمن هم الساميّون في رأيه وما هو موقفه منهم ؟

يرى رينان أنّ الديانات الساميّة الثلاث ، اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام ، يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا جدّا بحيث تبدو ثلاثة أغصان لجذع واحد أو ثلاثة تعابير متفاوتة الجمال والصفاء لفكرة واحدة . وهو يعتقد أنّ نشأتها جميعا في أرض سامية أمر لافت لأنّ المسافة من القدس إلى صحراء سينا ومن سينا إلى مكّة لا تتجاوز بضعة فراسخ (١) . وفي نظره أنّ الساميّين في آسيا

١- Renan, Avenir, p. 286 ; Oeuvres complètes, VII , p. 86 ; Histoire générale et système comparé des langues sémitiques, p. 4 .
نذكره من بعد باسم Langues Sémitiques .
وفي قول رينان هذا مبالغة لأنّ المسافة بين هذه الأماكن أطول ممّا يظنّه .

يشكّلون عائلة دينيّة كبرى تضاف إلى العائلتين الإيرانيّة والهنديّة[١] . وقد وجد رينان أنّه يصحّ إطلاق اسم "اللغات الساميّة" على لغات العبريين والفينيقيّين والقرطاجيّين والسريان والبابليّين والعرب لأنّ هؤلاء تكلّموا لغات ذات جذر مشترك رغم أنّ هذه التسمية التي أطلقت في القرن الثامن عشر هي في اعتباره تسمية غير دقيقة . ومن جهة ثانية برهن فقهاء اللّغة الألمان في مطلع القرن التاسع عشر على أنّ لغتيّ الهند البراهميّة وفارس ولهجات القوقاز واللّغات الأرمنيّة واليونانيّة واللاتينيّة والسلافيّة والألمانيّة تؤلّف مجموعة واسعة مختلفة تمام الإختلاف عن المجموعة الساميّة ، أطلق عليها اسم اللّغات" الهندو-جرمانيّة" أو " الهندو-أوروبيّة" . ولاحظ رينان أنّ ثمّة بلدانا لا تدخل ضمن هذين التصنيفين مثل مصر والصين[٢] . ورغم وجود جذور مشتركة بين اللّغات الساميّة والهندو-اوروبيّة ، فإنّ رينان يشكّ في أنّ هذه اللّغات قد كانت يوما واحدة[٣] . أمّا من حيث الهيئة الجسديّة فلا فرق بين الساميّين والآريّين أو الهندو-أوروبيّين ، فهما وحدهما يمثّلان السلالة البيضاء ويتمتّعان بجمال المنظر الخارجي[٤] . لقد ظهر التميّز الواضح إذن بين المجموعتين في اللّغات أولا ثمّ في اختلاف الآداب والمؤسّسات والعادات والأديان . ففي الأدب مثلا ثمّة قواسم مشتركة بين آداب اليهود والعرب في حين أنّ هذه الآداب تختلف عن الآداب القديمة لشعوب الهند واليونان وفارس والشعوب الجرمانيّة . فمن

١ــ Renan, Avenir, p. 284

٢ــ Renan, Peuples Sémitiques, pp. 10-12; Oeuvres Complètes, VII, p.86

٣ــ Renan, Langues Sémitiques, p.459

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٤٩٠ ــ ٤٩١ .

العبث أن نحاول البحث عن ملحمة أو تراجيديا عند الساميّين . ويدّعي رينان أنّ التمايز بين الشعوب الهندو ـ أوروبيّة والشعوب الساميّة ما يزال قائما . فالعربي والمسلم بصورة عامّة هو اليوم أبعد عن الأوروبي ممّا كان في أي وقت مضى . فإذا ما اجتمع الأوروبّي بالمسلم الذي يمثّل اليوم الفكر السامي أحسن تمثيل ـ بدوا حسب ما يزعم ـ من جنسين مختلفين لا يجمع بينهما تفكير أو شعور(١) .

ويعتبر رينان أنّ الخدمة الأساسيّة التي قدّمها العرق السامي للعالم هي الدين . فالعالم أجمع ، باستثناء الهند والصين واليابان والشعوب المغلقة في بدائيّتها ، قد تبنّى الديانات الساميّة . فالمجد إذن للعرق السامي لأنّه صنع دين الإنسانيّة(٢) . والسامي في طبيعته لا يستطيع تقبّل فكر لا يقرّ بوجود دين ما . فكلّ عبادة هي بالنسبة إليه مقدّسة ، والكافر ليس لوجوده أيّ معنى إذ هو بمثابة لغز أو ظاهرة وحشيّة(٣) . وحتّى الشعوب المتحضّرة ، ولا سيّما الهندو ـ اوروبيّة ، فإنّها قد انتظمت كلّها تحت لواء الديانات الساميّة وتبنّت أفكارها التوحيديّة(٤) . لقد كانت هذه الشعوب تتعبّد لقوى الطبيعة وظواهرها ، وبلغت هذه العبادة بتأثير من الفلسفة نوعا من الحلوليّة Panthéisme في حين ظلّ الاستطراد الديني عند الشعوب الساميّة خاضعا

١ـ Renan, Peuples Sémitiques, p.13

٢ـ Renan, Vie, p.5

٣ـ Renan, Avenir, p. 286

٤ـ Renan, Peuples Sémitiques, p. 20-21; Langues Sémitiques, p.503

لقوانين مختلفة تمام الإختلاف . فالديانات الساميّة الثلاث تتّسم بطابع العقائديّة، طابع المطلق ، طابع التوحيد الصارم[١]. وعدم التسامح الديني عند الشعوب الساميّة هو النتيجة الحتميّة لمبدأ التوحيد . أمّا الشعوب الهندو ـ أوروبيّة فكانت شعوبا متسامحة ولم تول الترويج للدين أي اهتمام . ولذا استأثرت بحرّية الفكر وروح النقد والبحث الفردي . وقد تهيّأ لرينان أيضا أنّ ظاهرة الفتوحات الإسلاميّة لم يكن حصولها ممكنا إلّا عند الساميّين الذين يرفضون التعدّد ويقيّدون أنفسهم بعبارة : الله هو الله .

غير أنّ رينان مع ذلك يعترف أنّ الساميّين بتصوّرهم هذا قد وضعوا الحجر الأساسي في وحدة البشريّة وتطوّرها . والإتّصال بين الله والإنسان بالنسبة إليهم يتمّ من خلال نبيّ يبقى هو ذاته غير الله[٢] . فالنبوّة هي الزّي الذي تتّخذه كلّ الثورات الكبرى عند الشعوب الساميّة ، وهي في الحقيقة ليست إلّا نتيجة لازمة للنظام التوحيدي Système monothéiste[٣] . إلّا أنّ علاقة المسيح بالله تميّزت عن سائر العلاقات إذ كان على صلة مباشرة به ولم يكن بحاجة إلى وسيط كي يوحي إليه مثل موسى الذي استعان بقصف الرعد ومحمّد الذي أصغى إلى الملاك جبريل[٤] . ورابطة المحبّة بين المسيح والله كانت فريدة لأنّها علاقة الابن بأبيه ، وهي غير مألوفة في العرق السامي .

١ــ Renan, Peuples Sémitiques, p.11

٢ــ Renan, Langues Sémitiques, pp. 7-9; Oeuvres complètes, VII, p. 87-88

٣ــ Renan, Mahomet, p.29

٤ــ Renan, Vie, p. 78-79

فاليهودي والمسلم لم يتمكّنا من إدراك لاهوتيّة المحبّة الشائقة هذه . إنّ إله المسيح ليس المعلّم المتحكّم فينا الذي يقتلنا أو يلعننا أو يخلّصنا حين يحلو له . إله المسيح هو أبونا . إله المسيح ليس المتسلّط المتحيّز الذي اختار اسرائيل شعبا له وحماه من الجميع بل هو إله الإنسانيّة(١) . غير أنّ رينان ، رغم تسليمه بأهمّية ما قدّمه الساميّون في المجال الديني ، فهو لا يعتبر التوحيد اكتشافا نهائيّا ومطلقا لا تطوّر بعده كما يظنّ بعضهم لأنّ التوحيد ، حسب زعمه ، كما الإيمان بتعدّد الآلهة ، ليس سوى مرحلة في عمر دين الإنسانيّة(٢) .

وللساميّين فضل آخر غير استحداثهم الدين . فالأوروبيّون يدينون لهم دون شك بالصناعة والاختراعات والحضارة الماديّة . فالفينيقيّون الناطقون بلغة ساميّة هم أوّل من مارس التجارة والصناعة وأوّل من مارسهما على نطاق واسع . والعرب واليهود كانوا أساتذة الأوروبيّين خلال العصور الوسطى في تسويق السلع ونقلها من بلد إلى آخر . وكلّ مظاهر الترف الأوروبّية ، خلا الفن ، قد أتت من الشرق منذ القدم وحتّى القرن السابع عشر(٣) . وغريب جدّا أن نرى أوروبّا المسيحيّة في العصور الوسطى ، مع تفوّقها الواضح على الشرق أخلاقيّا ودينيّا ، تأخذ صناعاتها الكمالية واختراعاتها الآليّة عن الصين بواسطة التتر والمسلمين(٤) . ورغم إقرار رينان بالايجابيّات التي تركها الساميّون في تاريخ الحضارات، فإنّه يرى أنّ هذه الجوانب المشرقة لم تتبلور الّا بعد أن وضع

١ــ Renan, Vie, p. 80-81

٢ــ Renan, Avenir, p. 480

٣ــ Renan, Peuples Sémitiques, p. 19

٤ــ Renan, Langues Sémitiques, p. 500

عليها الأوروبيّون بصماتهم . فالمسيحيّة والإسلام اللّذان نشأا عند الساميّين لم تستطع الشعوب الهندو-أوروبيّة أن تتبنّاهما إلّا بعد أن أدخلت عليهما تعديلات هامّة ، والمسيحيّة لم تنتصر إلّا عندما تبنّتها هذه الشعوب ، وهي في الحقيقة نتاج الأوروبيّين . إنّ المسيحيّة الأولى التي تكمن أساسا في الإيمان بملكة للّه مقبلة ، والمسيحيّة كما كانت في عقيدة القديس يعقوب ، تختلف كثيرا عن مسيحيّة الأوروبيّين التي حملت معها ما ورائيّات الآباء اليونانيّين والجدل الديني في العصر الوسيط[١] . وهي في شكلها النهائي لم تكن محبّبة كثيرا عند الشعوب الشرقية . ولو بقيت كما كانت بالنسبة الى اليهود الأوائل الذين اعتنقوا المسيحيّة لاجتاحت الشرق ولما ظهر الإسلام ، ولما كان لها في المقابل أن تحدث تأثيرا في أوروبّا[٢] . فهي لم تنتصر إلّا عندما أفلتت تماما من نطاق محيطها اليهودي وعادت ، كما كانت في ضمير مؤسّسها ، محرّرة من قيود الفكر السامي الضيّقة . لقد حوّلتها عبقريّات الشعوب الحديثة ، وبخاصّة السلتيّين والألمان ، عن العبقرية الساميّة الجافّة والمتزمّتة[٣] . غير أن الجزيرة العربيّة صدمتها العناصر الميثولوجيّة التي أدخلتها هذه الشعوب إلى المسيحيّة وأرادت أن تعود الى دين ابراهيم فأسّست الإسلام[٤] . وقد أتى الإسلام ردّة فعل التوحيد السامي على عقيدتيّ الثالوث والتجسّد اللّتين تضفيان على المسيحيّة التنوّع والحيويّة[٥] . وهكذا أجهد المسلمون أذهانهم في تفسير سورة الاخلاص

١ــ Renan, Peuples Sémitiques, p.25,26 . والمعنى نفسه في :
Renan, Oeuvres Complètes, VII, p. 725 -726

٢ــ Renan, Avenir, p. 527, note 193

٣ــ Renan, Peuples Sémitiques, p. 25-26

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤ .

٥ــ Renan, Langues Sémitiques, p. 307

"قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد" (١) . والبلد الهندو ـ اوروبي الوحيد الذي سيطر فيه الإسلام سيطرة كاملة ، والذي لم يتبنّ هذا الدين إلّا بعد أن أدخل عليه تعديلات هامّة ليتّفق وميولـه الصوفيّة والميثولوجيّة ، هو بلاد فارس (٢) . وقد أعلن رينان مرّات عدّة مـا اعتبره مسلّمة كبرى وهي أنّ الأديان تقوم بالأجناس التي تعتنقها (٣) . ولذا أفرد للمسيحيّة مكانا مميّزا ، مع أنّها إحدى الديانات الساميّة الثلاث ، باعتبار أنّها تلقّحت بالذهنيّة الهندو ـ جرمانيّة .

وتظهر عدائية رينان للساميّين بصورة أوضح عندما يقول إنّ السامـي صاحب أنانيّة مفرطة وله مشاعر جموحة جدّا ويهتمّ بالأنا اهتماما شديدا (٤) ، حتّى انه يوافق أحدهم قوله إنّ المشاعر الأنانيّة لم تنم عند أيّ عرق بالقدر الذي نمت فيه عند الساميّين (٥) . وإنّ بساطة فكر السامي مخيفة تضيّق الذهن البشري وتغلقه أمام كلّ فكرة دقيقة وكلّ احساس مرهف وكلّ بحث عقلي (٦) ، كما أنّ تعدّد الزوجات عند الساميّين قد أعاق تطوّر كلّ ما يعتبر مجتمعا ، وشكّل سلالة ذكريّة لا تعرف الليونة ولا الرّفق . من هنا هذا المظهر القاسي وهذا

١ــ Renan, Averroès, p.102، ورينان ، ابن رشد ص ١١٦ .

٢ــ Renan, Mahomet, p. 37

٣ــ Journal des Débats du 19 Mai, 1883
من رد رينان على الأفغاني . تذكره من بعد باسم Débats .

٤ــ Renan, Langues Sémitiques, pp.499-504

٥ــ المصدر نفسه ، ص ٤ ، الهامش ١ .

٦ــ Renan, Peuples Sémitiques, p. 28

الفكر المتجهّم الذي يعارض أي خلق أو ابداع وهذا العبوس الذي يمنعهم من أن يبسطوا أساريرهم ، فالساميّون قلّما يضحكون[١] . وفي الشرق[٢] ألوف من الرجال يموتون جوعا أو فقرا دون أن يفكّروا مطلقا في الثورة على السلطة القائمة ، بينما يجد الرجل في أوروبا الحديثة أنّ من الأيسر عليه بدلا من أن يموت جوعا أن يصوّب بندقيّته نحو المجتمع لأنّه يؤمن بأنّ للمجتمع تجاهه واجبات لم يقم بها . ويقول ، ربّما في إشارة إلى كتابات هوغو مثلا ، إنّنا نجد في كل صفحة من صفحات الأدب المعاصر ميلا إلى اعتبار العذابات الفرديّة شرّا اجتماعيّا وإلى تحميل المجتمع مسؤولية الفقر وتبعة انحطاط الفرد . ويعتبر رينان أن هذا النهج جديد حقّا ، فالإنسان بدأ يتصدّى للمصائب التي تنزل به ولم يعد يعتبر ان القدر هو الذي يحملها إليه[٣] .

من هنا رأى رينان أنّ على الأدب أن يكون ملتزما . فالأدب الرصين ليس ذاك الذي يكتب من أجل الفن بل من أجل الأشياء بحدّ ذاتها . إنّ الأدب والفن عامّة لا يكونان حقيقيّين إلّا عندما يخدمان القضيّة الإنسانيّة ويعبّران عنها[٤] . ولذا ذهب الى أنّ الصدق هو أهمّ شيء في الأدب[٥] . واعتبر أنّ النظريّات القديمة التي تؤمن بالعناية الإلهية وتقول ان العالم مصنوع ويجب أن يبقى كما هو قد تهافتت وتخطّاها الزمن . فالمجهود الذي يبذله الإنسان

١ــ Renan, Langues Sémitiques, p.11
ورد مثل هذا المعنى في : Renan, Avenir, p. 288 .

٢ــ عندما يتحدّث رينان عن الشرق إنّما يقصد بذلك الشرق السامي .

٣ــ Renan, Avenir, p. 35

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٣٩٤ .

٥ــ Renan, Oeuvres Complètes, VII, p.852

ضدّ قضاء القدر لم يعد يعتبر خارقا للمقدّسات . فأديان الشرق تقول للإنسان تعذّب بينما يقول له الدين الأوروبّي حارب العذاب. إنّ السلالة الأوروبّية هي حقّا مقدامة تجاه اللّه[١] . أمّا نظرة الساميّين الى قوّة اللّه فتجعلهم غير فضوليّين وغير قادرين على الدهشة إزاء أيّ شيء . فأمام أي قصّة مدهشة أو مشهد غريب لا يقول العربي إلاّ " اللّه أكبر" . واذا ما شكّ في أمر بعد عرض الآراء الموافقة والمخالفة لا يخرج بنهاية او استنتاج بل يتملّص بقوله " اللّه أعلم" . فشرح أي شيء هو بنظره سهل جدّا وبسيط جدّا إلى درجة لا مكان فيها للبحث العقلي . اللّه موجود وهو الذي خلق العالم . وعندما نقول هذا فإنّنا نقول كلّ شيء[٢] . لقد فقد الشرق الروح العلميّة ، وينتج عن فقدانها عادة أمران : إمّا الإعتقاد بالأسطوري وإمّا التسليم بالعقائديّة ، وقد يكون الأمر الثاني أسوأ . الشرق لم يؤمن بالأساطير فكان تمسّكه بالعقائديّة الضيّقة عيبه الكبير[٣] . إنّ الفكر السامي القديم معاد بطبيعته للفلسفة وللعلم[٤] . فالعلوم لم تزدهر في أرض ساميّة إذ يبدو أنّ الشعوب التي تنمو لديها القدرات الدينيّة تكون مفتقرة إلى الطاقات الفلسفيّة ، والعكس صحيح . فالساميّون لم يقدّموا أيّ محاولة في التحليل ولم ينتجوا أيّ مدرسة فلسفيّة محلّية لأنهم سلالة الأديان بلا منازع ، بينما قامت السلالة الهندو ـ جرمانيّة ببحث فلسفي عن الحقيقة وحاولت أن تفسّر كل ما يتعلّق باللّه والإنسان والعالم حسب المنهج العقلي[٥] .

١ـ Renan, Avenir, p. 31-32

٢ـ Renan, Langues Sémitiques, p. 10

٣ـ Renan, l'Islamisme, p.23

٤ـ Renan, Peuples Sémitiques, p. 17

٥ـ Renan, Avenir, p. 285-286

ويربط رينان بين القدرات التي ترافق الفلسفة وتلك التي تتّصل بالميثولوجيا فيقول إنّها تنمو جنبا إلى جنب . ولذا نجد في الهند واليونان أغنى ميثولوجيّات كما نعثر على أعمق المذاهب الماورائيّة . أمّا الساميّون فلم يفهموا التعدّدية في العالم أبدا[١] ، والطريقة التي يفهمون بها الله أنّه منزّه عن العالم لا شريك له ولا شبيه ، تلغي احتمال وجود الأساطير . فهم توحيديّون على عكس الهندو ـ اوروبّيين الحلوليّين أو القائلين بالثنائيّة dualistes [٢] . فالأسطورة هي الحلوليّة في الدين ، والفكر السامي هو الأبعد عن الحلوليّة[٣] . وفقدان الأسطورة يؤدّي حتما إلى تغييب الملحمة ، لأنّ الملحمة الكبرى تنبجس دائما من أسطورة ما . حتّى المعلّقات الجاهليّة يخبو فيها الخيال الخلّاق ، فهي لا تتعدّى مئة بيت ولا تعبّر إلّا عن احساس شخصي أو حالة نفسيّة بطلها الكاتب نفسه . فالشاعر السامي لا يأخذ على محمل الجدّ موضوعا غريبا عنه . ولذا ليس عند الساميّين شعر قصصي أو درامي فيه يتوجّب على الشاعر أن يغيّب نفسه . كما أنّ القصّة عند الساميّين أتتهم من الهند ، ولم تتطوّر لديهم الّا في فترة لاحقة[٤] . غير أنّ فقدان الخيال يقابله أو يعوّض عنه في سكان الجزيرة العربية إحساس قوّي جدّا بالواقعي وبالإنساني[٥] .

وفي محاولة لتقييم إسهام الساميّين الفنّي والاخلاقي والسياسي في تاريخ الحضارة يرى رينان أنّ الاوروبيين لا يدينون للساميّين بشيء في الفنّ لأنّ فنّهم كلّه مصدره

١ــ Renan, Langues Sémitiques, p.9

٢ــ Renan, Avenir, p. 285

٣ــ Renan, Langues Sémitiques, p.7; Mahomet, p. 8-9

٤ــ Renan, Langues Sémitiques, p.11-12. وانظر أيضا : Peuples Sémitiques, pp. 10 - 12 ; Averroès , p. 90
ورينان ، ابن رشد ، ص ١٠٧ .

٥ــ Renan, Mahomet, p. 9

اليونان . أمّا في الشعر فيجد روابط بين العرقين دون أن يخضع الأوروبّيون في ذلك للساميّين . فالمزامير قد أصبحت أحد منابع الأوروبّيين الشعرية ، والقصيدة العبرية بالنسبة إليهم أخذت مكانها إلى جانب القصيدة اليونانيّة كمثال شعري . فميلتون Milton (١٦٠٨ — ١٦٧٤) ولامارتين ولامنيه ما كانوا ليبرزوا لولا وجود المزامير . ولكن هنا أيضا يعتبر رينان ان كلّ ما هو تلميح وكلّ ما هو مرهف وكلّ ما هوعميق فهو ناجم عن عمل الأوروبّيين[١] . أمّا القصيدة العربيّة ، فلا برهان على أنّ الشعراء في الغرب قد عرفوها . ويؤكّد أنّهم لو عرفوها لكانوا عاجزين عن فهم لغتها وروحها . إنّ القصيدة اللاّتينيّة في شكلها وفي روحها مختلفة كلّيا عن القصيدة العربيّة[٢] . أمّا الفنون التشكيليّة ، فلقد افتقدها العرب أنفسهم . وحدها الموسيقى عُرفت عند الساميّين . أمّا الرسم والنحت فمنعا دوما لبواعث دينيّة . فواقعيّتهم الساذجة لم تفسح مجالا للخيال الذي هو شرط أساسي في هذين الفنّين . إنّ حماسة النبي محمّد في إتلاف الآثار الفنّية يوضّح ميل العرب لاعتبار المنحوتة ذاتها كائنا حيّا حقيقيّا . أمّا السلالات الأخرى التي استطاعت أن تفصل بين الفكرة والرمز ، فلم تكن بهذه القسوة[٣] .

ويقرّ رينان في كلامه على دور الساميّين في الأخلاق أنّ الأخلاق الساميّة هي أحيانا في غاية السموّ والصفاء . ويرى أنّ الشريعة المنسوبة إلى موسى تتضمّن أفكارا رفيعة في القانون . إلاّ أنّ الطبع السامي هو طبع متشدّد عموما

١ــ Renan, Peuples Sémitiques, p. 16

٢ــ Renan, Langues Sémitiques, p.397

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٢ .

وضيّق وأناني ،لذا يندر أن نجد في هذه السلالة تلك الرهافة في الحسّ الأخلاقي التي — على ما يبدو — هي وقف على السلالات الألمانيّة والسلتيّة. فالإحساس الرقيق العميق القلق والشعور بالواجب هما من نتاج الأوروبيّين[١]، فالساميّون قد يتبعون أي وسيلة للوصول إلى هدف يعتقدون أنه إرادة الله[٢].

ومن فرضيّات رينان أنّ العرق السامي يتميّز سياسيّا بالبساطة. فمجتمعه الحقيقي هو مجتمع الخيمة والقبيلة ،والإنسان حرّ غير مقيّد بأي سلطة أو أي ضمان سوى أسرته. أمّا السلطة العليا فلا يمنحها السامي إلّا لله. وتبرز في هذه السلالة ظاهرة فريدة هي ظاهرة مجتمع يتماسك على طريقته دون أي نوع من الحكومات أو أي فكرة عن السيادة. ويُردّ تقهقر الساميّين في الميدان العسكري إلى عجزهم عن القيام بأي عمليّة انضباط ،وهم قد اضطرّوا إلى الاستعانة بالمرتزقة من أجل إنشاء جيوش نظاميّة. هكذا فعل داوود والفينيقيّون والقرطاجيّون والخلفاء. وكان أولئك المرتزقة الجرح القاتل الذي قضى على جميع الدول الإسلاميّة ،ولم يكن لانهيار الخلافة سبب آخر. حتّى إنّ الفتح الإسلامي نفسه قد تمّ بلا تنظيم ولا خطّة مبرمجة. فالخليفة ليس قائدا حربيّا بل هو نائب النبي Vice - Prophète[٣]. ووجد رينان أنّ الشرق لا يزال بلا قيادة. وعندما كان يقوم بالبعثة الأثرية في بلاد الشام رأى أنّ الناس هناك

١ــ Renan, Peuples Sémitiques, p.18-19

٢ــ Renan, Langues Sémitiques, p. 16

٣ــ المصدر نفسه ،ص ص ١٣ــ ١٥ و Renan, Oeuvres Complètes, VII, p.88-89
وورد مثل هذا المعنى في Renan, Peuples Sémitiques, p. 28.

يشبهون قطيعا يسير بلا راع[١] . كما اعتبر أن ليس من حكم في تصوّر الشرقي سوى الحكم الإستبدادي . وحين يصبح هذا الحكم غير محتمل ، يجب أن يذبح الحاكم[٢] .

ففي اعتقاد رينان إذا، أنّ الأوروبيّين لا يدينون للساميّين في السياسة بشيء. وقد انتهى الى تلخيص السياسة عند الساميّين في كلمات ثلاث : ثيوقراطيّة، فوضويّة ، إستبداد[٣] . واعتبر كذلك أنّ الآريّين يتفوّقون على الساميّين بفكرهم العسكري وذكائهم وقدرتهم على التفكير العقلاني[٤] .

وفي قراءة مسبقة لنتيجة الصراع بين السلالات ، يتوقّع رينان أن تنتصر العبقرية الهندو-اوروبّية في المستقبل . فهو قد افترض أنّ الساميّة كانت تحتضر في الماضي وأنّ الجزيرة العربيّة بدت وكأنّها تعيش على هامش التاريخ السياسي والفكري والديني في العالم ، إذ ظلّت القرون الأولى للمسيحيّة ظلمات جاهليّة بالنسبة إليها[٥] ، ثمّ جاء الإسلام فتسنّى عمل الساميين الأساسي بتبسيط الفكر البشري وإلغاء الشرك[٦] وصار

١ــ Renan, Discours, من رد رينان على فرديناند دوليسيبس F.De Lesseps ، ص ٢٦ .

٢ــ Renan, Avenir, p.317

٣ــ Renan, Peuples Sémitiques, pp. 14-16

٤ــ Renan, Langues Sémitiques, p. 502-503

٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٠٤ .

٦ــ المصدر نفسه ، ص ٥٠٣ .

الشرق الإسلامي متفوّقا على الغرب حربيّا وسياسيّا وثقافيّا وحضاريّا إلى أن جاء القرن السادس عشر فتحقّق فيه انتصار أوروبّا وتفوّقها . ويتوقّع رينان أن يستمرّ انتصار الغرب آخذا في الترسّخ لأنّ العبقرية الأوروبّية تترسّخ في الوقت الذي يتفتّت فيه الإسلام وينهار[١] .

وقد ذهب رينان في كلامه على نتيجة الصراع الذي أقامه بين الآريين والساميّين أو بين الأوروبّيين والشرقيّين إلى حدّ اعتباره صراعا قائما بين الأوروبّيين والمسلمين فقال إنّ الشرط الأساسي من أجل انتشار الحضارة الأوروبّية يكمن في تدمير سلطة الإسلام الثيوقراطية التي فيها تتمثّل الساميّة . واعتبر أنّ الإسلام لا يستطيع الاستمرار إلّا كدين لدولة ، أمّا إذا حوّل إلى دين فردي فهو سيزول . إنّ المستقبل هو لأوروبّا وحدها ، وهي ستحتلّ العالم . وفي جميع المجالات سيكون تقدّم الشعوب الهندو ـ أوروبّية رهنا بابتعادها ابتعادا أكبر عن الفكر السامي[٢] . وبما أنّ رينان يعتبر أنّ الإسلام يمثّل أصفى فكر سامي[٣] فلقد انصبّت حملته عليه كما سيتّضح لاحقا .

٢ـ رأي رينان في الإسلام والمسلمين

عندما تكلّم رينان على أهمّية دراسة تاريخ الأديان شدّد على ضرورة دراسة الدين الإسلامي ، وقال إنّه ما من دين كالإسلام أتاح للناس أن يتحسّسوه

١ـ Renan, Peuples Sémitiques, p. 26-27

٢ـ المصدر نفسه ، ص ص ٢٦ـ٢٨ .

٣ـ المصدر نفسه ، ص ١٣ ، و Renan , Langues Sémitiques, p.10 .

عن قرب . لكنّه مع ذلك بقي في الكتب المتداولة موضوعا لقصص شديدة الغرابة ولتقويمات كثيرة الخطأ . ورغم أنّ الإسلام حسب اعتقاده هو أضعف الأديان من حيث الأفكار المبتكرة ، فإنّه يتميّز بأهمّية كبرى عندما نقيم دراسة مقارنة للأديان ، ذلك لأنّنا نملك وثائق أصليّة عن نشأته ، وهذا ما لا يتوافر لدينا بالنسبة الى أي دين آخر . فالأديان لا تتذكّر طفولتها ، ومن النادر جدّا أن تظهر وثائق غريبة لتقشع الظلمة التي تحيط بانطلاقها . وحده الإسلام يشذّ عن هذه القاعدة لأنّه ولد في خضم التاريخ . وآثار الخصومات التي كان عليه أن يتخطّاها والشكوك التي كان عليه أن يواجهها ما تزال موجودة[١]. كما أنّ المفكّرين المسلمين كانوا سبّاقين في مقارنة الأديان السماوية بعضها ببعض فتبيّن رينان أنّ ابن رشد هو أوّل من تجرّأ وكتب عن فكرة إقامة مقارنة بين الأديان الثلاثة ، إذ قال إنّ " جميع الشرائع ترتدّ إلى الشرائع الثلاث القائمة في الوقت الحاضر"[٢] . ولقد دُرّست المقارنة بين الأديان الثلاثة في مدارس المتكلّمين ببغداد جهرا . وفي القرون الوسطى لم يكن ممكنا لغير المسلمين وضع كتاب مثل " الملل والنحل" للشهرستاني (١٠٧٦—١١٥٣) عرض فيه بإنصاف حال الفرق الدينيّة والفلسفية في العالم واعترف بالنواحي الجيّدة في كلّ دين . ويتعجّب رينان من السهولة التي تخطر بها مقارنة الأديان في نفوس المسلمين ويستشهد بأبيات نظمها أبو العلاء المعرّي بلا اكتراث عن مختلف الأديان[٣] . أمّا الغرب ، فلم يكن لديه في النصف الأول من القرون الوسطى الّا أفكار مبهمة حول أي ديانات غريبة عن المسيحيّة واليهوديّة. وكان

١ــ Renan, Avenir, p. 278 والمعنى نفسه في Mahomet, p. 3 .

٢ــ Renan, Averroès, p. 166 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ١٧٥ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٢٩٣ ، وبالعربية ، ص ٣٠١ ــ ٣٠٢ .

يجمعها كلّها تحت اسم الوثنيّة إلى أن قام بيير لو فينيرابل Pierre le Vénérable (١) وروبير دو ريتين Robert de Rétines (٢) بدراسات عن القرآن والحروب الصليبيّة ، وإلى أن ألّف الدومينيكان كتب الجدل فأعطوا فكرة أكثر صحّة عن الإسلام . وبدا محمّد نبيّا مؤسّسا لدين قائل بالتوحيد . ومنذ ذلك الوقت بدأ الحديث عن وجود " أديان ثلاثة في العالم" قائمة على مبادئ مماثلة ، وتمّ التوصّل في القرن الثالث عشر إلى فكرة الأديان المقارنة التي تؤدّي إلى عدم الاكتراث الديني وإلى التزام المذهب الطبيعي (٣) .

ويعتقد رينان أنّ الإسلام ، كما المسيحيّة ، قد جاء نتيجة عوامل معيّنة مهّدت لظهوره . فالإسلام لم يكن سبب يقظة الأمّة العربيّة في حينه كما يعتقد بعضهم ، بل كان نتيجة يقظة سبقت النبي محمّد بقرن على أقلّ تقدير . فمن الناحية الفكريّة برزت منذ القرن السادس اللّغة العربيّة التي لم تكن إلى ذلك الحين قد ظهرت في أي نصّ مكتوب . بدت فجأة بأشكال مشذّبة في قصائد مبتكرة جدّا ، فتراءى الفكر القديم فيها منفتحا بصورة لم تكن منتظرة من قبل فئة كانت ما تزال حتّى ذلك الوقت عقيمة الانتاج (٤) . ومن الناحية الدينيّة لا نستطيع أن نعتبر محمّدا مؤسّس التوحيد عند العرب لأنّ الإيمان بالله كان دائما جوهر دين الجزيرة العربية (٥) . وقُصيّ القرشي هو مؤسّس مدينة مكّة

١ــ Pierre le Vénérable (١٠٩٢ ــ ١١٥٦) . تطرّق إلى جميع المسائل الدينيّة في عصره واهتمّ بالإسلام وبأن تتمّ ترجمة القرآن إلى الفرنسية حتّى يقوم هو بدحضه .

٢ــ هو على الأرجح Robert d'Arbissel (١٠٤٧ــ١١١٧) الذي دعا الى الجهاد الديني في مدينة أنجو Anjou الفرنسية .

٣ــ Renan, Averroès, pp.279-282، ورينان ، ابن رشد ، ص ص ٢٨٨ــ٢٩١ .

٤ــ Renan, Langues Sémitiques, p. 306

٥ــ المصدر نفسه ، ص ٦ .

وهو الذي وضع أسس المركزيّة في الجزيرة ، وهيّأ المهد الذي سينطلق منه التنظيم السياسي والديني في ما بعد . لقد حقّق قُصيّ أكثر ممّا حقّقه النبي محمد الذي لم يقم سوى بالتتويج لعمل أجداده . فهو لم يخترع شيئا إن في السياسة أو في الدين ، ولكنّه حقّق طموح عصره بمقدرة كبيرة[١] ، وقد ساعده في ذلك انتماؤه إلى قبيلة قريش التي كانت مميّزة وكان مقدّرا لها أن تحقّق وحدة الأمّة . واللافت أنّ رينان قد شكّك في موضع آخر في الأهميّة التي أعطيت لقريش من الناحية اللّغويّة والأدبيّة قائلا إنّ العرب أنفسهم قد لاحظوا أنّ القرشيّين لم يكن عندهم قبل الإسلام أي شاعر مميّز . وقد رجّح آنذاك أن تكون هذه الأهمّية اللّغوية قد أعطيت لها مسبقا حتّى تبدو هذه السلالة مميّزة ومرشّحة لأن تعطي الجزيرة نبيّها[٢] .

واعتبر رينان أنّ القول بأنّ العرب قبل الإسلام كانوا أمّة خشنة الطباع وجاهلة ومسلّمة بالخرافات هو أمر غير دقيق على الإطلاق . فالعرب كانوا ، في واقعهم ، أمّة مرهفة الحسّ ومتطلّعة إلى ما يوصلها إلى اليقين . والمرحلة الأولى التي بدأ فيها النبي محمّد مهمّته والشكّ الكبير الذي قابله به أهل قريش مثل على ذلك[٣] . كما ان بلاد الشام قد أدّت الدور الأوّل في مرحلة من مراحل الفن المسيحي التي سبقت — حسب تعبير رينان — " العاصفة الرهيبة " l'orage terrible التي اجتاحت الشرق سنة ٦٤٠ . لقد كان الشرق آنئذ مسرحا لتجربة كبرى في الحضارة المسيحيّة ، فتهاوت هذه التجربة بمجيء

---

١ — Renan, Mahomet, p. 31-32

٢ — Renan, Langues Sémitiques, p. 350

٣ — Renan, Mahomet, p. 7

محمّد (١) .

ويذهب رينان إلى أنّ ما كتب حول النبي بقي في معظمه بعيدا عن الأسطورة . فمحمّد هو حقّا رجل تاريخي . إنّه لم يكن يرغب إلّا في أن يكون نبيّا ، ونبيّا بلا معجزات . كان يقول دوما إنّه انسان مائت ومعرّض للخطيئة ومحتاج إلى رحمة اللّه مثل أي انسان آخر . والكاتبان ابن هشام وأبو الفداء اللّذان أرّخا حياته كانا عقلانيين . وحدهم الشيعة المتأثّرون بالخيال الفارسي سلّموا بعدد من الأساطير التي رويت عن حياة محمد (٢) .

ويذكر رينان بعض الصفات النبيلة التي تميّز بها النبي . فيقول إنّه إجمالا يبدو رجلا رقيقا ومرهفا ومخلصا لا حقد عنده ، صادق العاطفة ، يحتفي بالأولاد الصغار ويُظهر عطفا كبيرا على النساء والضعفاء . من أقواله انّ الجنّة تحت أقدام الأمّهات (٣) . وهو قد أفرد لزوجته خديجة منزلة خاصّة في نفسه (٤) ، كما ترك لأخته بالرضاعة شيماء (٥) حرّية اختيار الحياة التي تحبّ عندما وقعت أسيرة بين يديه ، وأغدق عليها العطايا (٦) .

ولكن مع تسليم رينان بسموّ خلق النبي ، فقد نسب إليه الميل إلى شيء

١ــ Renan, Mission, p. 626

٢ــ Renan, Mahomet, p. 7, p. 9

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٥ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

٥ــ هي ابنة حليمة مرضعة النبي ، وهي من قبيلة بني سعد .

٦ــ Renan, Mahomet, p. 13

من الدهاء[١]، وزعم أنّ المسلمين اعترفوا بأنّ النبي في مناسبات عدّة كان أكثر استجابة لرغباته منه إلى واجبه[٢]. فهو خلافا للعادات المتّبعة تزوّج من زينب زوجة ابنه بالتبنّي زيد مع أنّ العرب كانوا يمنعون مثل هذا الأمر[٣].

واعتبر رينان أنّ القرآن ثورة أدبية بقدر ما هو ثورة دينيّة. فهو يبيّن انتقال العرب من الأسلوب الشعري الى النثر، أي من الشعر الى البلاغة النثريّة، وهذه لحظة هامّة في الحياة الفكرية لشعب ما[٤]. ورأى أنّ الحركة الإسلاميّة قد حصلت تقريبا دون إيمان ديني، وأنّ النبي، إذا استثنينا ندرة من المخلصين له، لم يقنع إلّا أناسا قليلين في الجزيرة العربية ولم ينجح أبدا في محاربة المعارضة المتمثّلة ببني أميّة. وذكر أنّ أبا سفيان زعيم المعارضة المكّية اعترف بعد استيلاء النبي على مكّة أن لا إله إلّا الله، لكنّه احتفظ بشكّه في أن يكون محمّد رسول الله، وذكر أنّ عمر أمر بعد أحد الانتصارات العسكرية أن تكون حصّة كلّ مشارك في القتال من الغنائم بنسبة ما كان يحفظه من القرآن غيبا. ولكن تبيّن له عندما بدأ بتطبيق هذا الأمر أن أكثر مقاتليه مهارة لم يكن حافظا إلّا جملة " لا إله إلّا الله". وقد برز ضعف الاعتقاد الديني عند القبائل العربية بعد موت النبي بشكل خاصّ إذ ارتدّ الناس عن

١- Renan, Avenir, p. 279

٢- Renan, Langues Sémitiques, p.16

٣- Renan, Mahomet, p. 15
وقد أسبغ رينان على النبي مرّات عدّة صفات مغرضة يأبى الوجل أن نذكرها أو نعلّق عليها. راجع:
Renan, Mahomet, p. 14, 15, 17 ; Langues Sémitiques, p.16; Vie, p. 278, et note no.1.

٤- Renan, Mahomet, p. 36. ولرينان رأي سلبي في القرآن أيضا. راجع:
Renan, Avenir, p. 279 ; Mahomet , p. 17.

الدين بالجملة . كما تشكّل بعد ذلك كثير من الفرق السرّية التي يمكن تأويل عقائدها تأويلا مزدوجا ، وذهب رينان الى أنّ هذه غير مخلصة للإسلام وتجمع بين التعصّب والكفر ، ومنها فِرَق القرامطة والفاطميّين والاسماعيليّين والدروز(١) والحشّاشين والزنادقة والثنويين(٢) . وبدا لرينان أنّ النبي لم يخطر في باله أنّ الدين الإسلامي قد يلائم غير العرب واعتبر ان فكرة الفتوحات الإسلاميّة هي فكرة عمر(٣) . ويتوقّع رينان أن ينتهي الإسلام ، كما بدأ ، دين العرب وحدهم(٤) . ويذكر انه قد طُرح اقتراح جدّي بعد موت النبي يقضي بطرح العمل الديني جانبا من أجل متابعة النشاط السياسي وحده(٥) ، وأنّه لم يكد يمرّ قرن على وفاة النبي حتّى بدأ الخصام مع بداية الجدل الكلامي حول التسيير والتخيير يغتّت العقيدة التي أسسها(٦) .

إنّ موقف رينان من الإسلام ، ولا سيّما من الإسلام التركي ، جعله يرى لهذا الدين أثرا سلبيّا حتّى في طبيعة الأمكنة التي خضعت لسيطرة الأتراك . فهو عندما زار فلسطين من ضمن الرحلة الأثريّة التي قام بها سنة ١٨٦١ ، وجد ان منطقة الجليل التي كانت سابقا جنّات أرضية قد أصبحت منطقة محروقة

١ــ يتهجّم رينان على الدروز وكتاب الحكمة . راجع : Renan, Vie, p. XXIII و من تمهيد الطبعة الثالثة عشرة . و Avenir, p. 102 .

٢ــ Renan, Mahomet, pp. 20-23; Averroès, p.103 ورينان ، ابن رشد ، ص ١١٧ .

٣ــ Renan, Mahomet, p. 16

٤ــ Renan, Langues Sémitiques, p. 17

٥ــ Renan, Avenir, p.514, note 120

٦ــ Renan, Averroès, p. 101 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ١١٦ .

وكئيبة بعد الفقر المريع الذي خلّفه الإسلام التركي في الحياة البشريّة[١] . كما لاحظ أثر الإسلام هذا في الناصرة ومنطقة جنوبي بحيرة طبريّة التـــي ارتدت ثوبا من "القحط والحداد" ، وذهب الى حدّ التأكيد بأنّ مناخ حوض هذه البحيرة قد تغيّر هو أيضا[٢] .

وفي رحلته إلى بلاد الشام ولبنان[٣] ، تهجّم على المسلمين القاطنيـــن فيهما وأبدى اشمئزازه من عدم تعاون المسلمين والمسيحيّين ، باستثناء الموارنة، معه في حملته . وقد خصّ الشيعة بثورته فقال إنّهم لا يملكون مقدرة المسيحيّين على الملاحظة والاستذكار . كما أنّ تعصّبهم قد أوحى إليهم بمختلف الأفكار الغريبة حول المهمّة التي كان يقوم بها . وظنّوه يبحث عن أصنام فلم يمـدّوه بأي معلومات . ولذا لم يتمكّن من إتمام مهمّته في منطقة صيدا وصور بالسهولة نفسها التي تمّت بها في [جبل] لبنان . لقد كان اكتشاف أي قطعة أثريّة يعرّضه والذين معه وسط أحلام هذه " العقول الفقيرة" لخطر حقيقي .وهو يمثّل بهذه الشعوب المنتشية "باعتداد أحمق" يجعلها دون الآخرين منزلـة ليرينا كيف ان الإسلام عدو كل علم وأنّه أفقر الحياة البشرية[٤] . أمّا بشأن

١— Renan, Vie, p. 67 et note 1; p.68

٢— يطلق رينان لنفسه العنان في إلحاق صفات مشينة توهّم أنّ الإسلام قد تركها في تلك البقعة . راجع :
Renan, Vie,p. 24,144, 150

٣— كان اسم "لبنان" يطلق آنذاك على ما نسمّيه اليوم " جبل لبنان" .

٤— للمزيد من حملة رينان على المسلمين في هذه المنطقة أنظر :
Renan, Mission, p.632 - 633; p. 13-14

الشعوب المارونيّة فيقول إنّ ما يسّرته له من معلومات حول النقوش هو أفضل بكثير من تلك التي أعطاه إيّاها المسلمون أو الأرثوذكس . ويتابع رينان حملته على الساميّين والمسلمين فيقول إنّ أمرا غريبا فاجأه في صيدون[١] . فوسط هؤلاء المسلمين المتعجرفين الذين لا يفكّرون ولا يشعرون ولا يبتسمون ، استوقفه فجأة وجود أشخاص يحملون سمات الطابع المصري الجميل ويتحلّون بالودّ وباللّطافة . ورأى أنّ هذه النماذج الجذّابة منبثقة من سلالة قديمة تشبه سلالة مصر وقد سكنت فينيقيا قبل ثلاثة آلاف سنة من مجيء المسيح وتحدّثت لغة تشبه القبطيّة . وعندما غزا الساميّون البدو (الهكسوس) المنطقة حوالي السنة الألفين قبل الميلاد ، استطاعت هذه السلالة أن تثأر من هذا الغزو الأوّل بواسطة الهيلينيّة والمسيحيّة، كما استطاعت أن تحتفظ بروحها رغم ان الإسلام سحقها مرّة ثانية[٢] .

وتعرّف رينان أيضا في منطقة صيدا وصور الى أفراد عائلة أو اثنتين من الشيعة أعجب بهم لأنّهم حسب رأيه نماذج ممتازة للسلالة الايرانية (الكردية) الجيّدة التي نقلها صلاح الدين الى هذه المنطقة[٣] . وفي هذا تأكيد آخر على نظريّته القائلة إنّ الأجناس هي التي تقوّم الأديان التي تعتنقها .

ووجد أنّ شعب جزيرة أرواد يشكّل في سوريا عالما صغيرا قائما في ذاته، وكأنّه نوع من جمهورية مستقلّة . ميزته أنّه مسلم وحسب ، متعصّب كثيرا ومعتدّ

١ــ كثيرا ما يستعمل رينان لصيدا اسمها القديم .

٢ــ Renan, Mission, p. 838 . وورد مثل هذا المعنى ص ٣٩٩ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٦٣٣ ، الهامش ١ .

بنفسه ، ساذج وملتوي التفكير . بلغ بعد أجيال من التعصّب والجهل درجة من الحماقة لا مثيل لها . ويقول رينان عن أهل هذه الجزيرة إنّهم في زيارته الأولى لم يتجاوبوا معه في أعمال التنقيب لأنّ جماعة منهم قد هدّدوه . وتضمّ هذه الجماعة متعصّبين يسيطرون بواسطة الإرهاب على شعوب بكاملها سواء في أرواد أو في سوريا كلّها . وهم يتجمّعون حول المسجد وفي السوق ويسيّرون الرأي العام تحت وطأة التهديد بالحرق والقتل . وهم يكرهون فرنسا ويخلصون بالمقابل لتركيا وانكلترا ، ويكرهون العلم بشكل غريزي كما هي حال كلّ مسلم ، ولذا هدّدوا بأن يذلّوا إذلالا عظيما كلّ من يساعد بعثة رينان الأثريّة[١] . ورغم هذا كلّه ، فلقد أبدى رينان مرّات نادرة إعجابه بالإسلام . لقد تفاجأ بما بيّنه الدومينيكي بروكار Brocard [٢] عند رحلته إلى الأرض المقدّسة من تسامح المسلمين وحسن ذوقهم وروحهم الناقدة . وأكّدت الحروب الصليبيّة النتيجة نفسها . لقد تفوّق صلاح الدين الأيوبي بصدقه وإخلاصه ورفقه على تلك الكتائب من المغامرين الذين كانوا يمثّلون الدين المسيحي في الشرق[٣] . ورينان نفسه شاهد مرّة شيعة يصلّون فقال إن لا شيء أجمل من هذا المنظر . كانوا راكعين على الطريق وسط عواصف هائجة وأمطار غزيرة لا يلتفتون صوب المارّة[٤] . وقد اعترف انه لم يدخل يوما جامعا إلّا وأحسّ برعشة كبيرة وأسف لكونه غير مسلم[٥] .

ورغم هذه المرّات النادرة التي عبّر فيها رينان عن إعجابه بالإسلام فإنّنا

١ــ Renan, Mission, p. 23-24

٢ــ عاش في القرن الحادي عشر .

٣ــ Renan, Averroès, p.281 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ٢٩٠ .

٤ــ Renan, Mission, p. 633,note 1

٥ــ Renan, l'Islamisme , p. 19

نتساءل في ختام هذا الفصل إلى أيّ حدّ كان رينان موضوعيًا في آرائه ومواقفه الخاصّة بالساميّة والإسلام . فهو قد بدأ كلامه في هذا الشأن بالمقارنة الموضوعيّة بين الآريّين والساميّين ، إلّا أنّه سرعان ما تخلّى عن موضوعيّته هذه فافترض على غير ما أساس مقبول أنّ بين العرقين حربا قائمة وأعلن سلفا أنّ الهزيمة فيها واقعة على الساميّين . والغريب أن يكون هذا المفكّر الوضعي قد رذل الفكر السامي الواقعي التوحيدي الإنساني وامتدح الفكر الآري الحلولي الأسطوري، إذ أصبح يعتبر أنّ كلّ ما هو مرهف في الأدب والدين والأخلاق والسياسة إنّما هو صنيع الآريّين . ويمكن أن نردّ تحيّز رينان ها هنا إلى أنّ هدفه الأساسي في هذا الصدد هو إعلاء شأن الآريّين والانتقاص من شأن الساميّين . فصار يتهجّم على الديانات الساميّة طالما بقيت بين الساميّين في حين أنّه يمتدحها إذا ما خرجت إلى الآريّين . ويتساءل المتتبّع لفكر رينان: أحقًا أن المسيحية لم تصبح ذات قيمة إلّا عندما تبنّاها الأوروبّيون ، وأنّ الإسلام هو أيضا لم يغد ذا شأن إلّا عندما تبنّاه الفرس؟ وكيف يعتبر رينان ، المنادي بوحدة الكون ، أنّ التوحيد السامي " جاف ومتزمّت" وأنّ عقيدتيّ الثالوث والتجسّد تضفيان " التنوّع والحياة" ؟! إنّ تذرّع رينان بأنّ الأديان تقوّم بالأجناس التي تعتنقها جعله يفرد للمسيحيّة بين الأوروبّيين مكانا مميّزا لأنّها تلقّحت بالذهنيّة الهندو ـ جرمانيّة ، كما دفعه إلى مدح الإسلام ، ولكن بين الفرس وحدهم ، لأنّهم أيضا هندو ـ جرمانيّون .

وقد دفعه كرهه للساميّين إلى البحث عن ممثّل لهم يصبّ عليه جام غضبه فلم يجد خيرا من الإسلام معينا على تحقيق غرضه . وبذا اتّسع نطاق المعركة وأصبح للعدو وجهان ، أحدهما قديم وهو الساميّة جمعاء ، والآخر حديث وهو الإسلام الذي يمثّلها في عصره . وقد حاول رينان أن يبني موقفه هذا على العقل والمنطق ، غير أنّه أخفق في ذلك فأتى كلامه غير مقنع وغير مقبول . ففي اعتقاده مثلا أنّ النبي محمّد كان رجلا عقلانيًا ، وكان من المنطقي أن يؤدّي

اعتقاده هذا إلى أن يعجب به . غير أنّ الغلبة عنده لم تكن للمنطق ، فاتّخذ من النبي والإسلام موقفا في غاية السلبية . ولم يكن موقفه هذا سوى مصبّ لأحقاده على الساميّين . أمّا المسيح الذي يعتقد المسيحيّون بأنّه ابن الله وبأنّه قام بمعجزات ، فإنّ رينان لم يتّخذ منه موقفا سلبيّا رغم مخالفته هذا الاعتقاد ، بل حاول أن يجعل صورته منسجمة مع منطلقاته الفكرية ، فاعتبره إنسانا من البشر وأنكر أن يكون قد اجترح المعجزات . ثمّ جعله محرّرا من قيود الساميّة متيحا بذلك لنفسه المجال للتعبير عن محبّته له وعن نظرة الإكبار والإجلال التي كان يرمقه بها .

الفصـــل الثالـــث

موقف رينان مـن الشعر الجاهلي واللغة العربية وفلسفة العرب، والعلاقة بين موقفه من هذه الفلسفة ودعوته إلى العلمنـة.

لم يتمكّن رينان من إجادة اللّغة العربيّة لأنّ أستاذه لوهير الذي علّمه العبريّة والسريانيّة في مدرسة سان سولپيس والذي درّبه لغويّا لم يكن يتقـن اللّغة العربيّة . وقد وصف رينان نفسه بأنّه "مستعرب رديء" médiocre arabisant (١) . ومع ذلك فقد وضع نظرية نقدية حول الشعر الجاهلي واهتدى إلى عدد من ميزات هذه اللّغة واهتمّ بالفلسفة العربيّة وكان له رأي خاصّ في هويّتها .

١ــ نظـــريـــة رينـــان النقديـــة في الشعر الجاهلـــي

عالج رينان جميع الموضوعات التي تناولها بروح ناقدة سواء أكانت هذه الموضوعات دينيّة أم أدبيّة . فقد قضى النقد التاريخي على إيمانه مذ كان صبيّا (٢) إذ رأى أنّ اللّاهوتي لا يستطيع أبدا أن يكون مؤرّخا . فالمؤرّخ في الأساس لا يلتمس من وراء عمله أيّة مصلحة معيّنة في حين أنّ اللّاهوتي لا يمكنه في تأريخه أن يضع عقيدته جانبا (٣) . وقال رينان إنّ النقد لا يعترف

١ــ Renan, Souvenirs, p. 210

٢ــ المصدر نفسه، ص ١٨٧ .

٣ــ Renan, Vie , p. IX

بنصوص معصومة . فكلّ نصّ يمكن أن يشتمل على خطأ ما[١]، فضلا عن أن الأصول، والدينيّة منها على وجه أخصّ، جميعها غامضة . وعلى النقد والعلم أن يقوما بمهمّة دقيقة جدّا هي الكشف عن البدائي باقتفاء الآثار الواهية التي يكون قد تركها[٢] . ولذا ذهب رينان إلى القول بوجوب نقد الأديان نقدنا للفصائد البدائيّة[٣] . وهو قد اتّبع هذا المنهج النقدي في دراسته للتوراة والأناجيل والقرآن والحديث فضلا عن الشعر الجاهلي .

يقول رينان إنّ اللاهوتيّين رأوا في الأناجيل مراجع تاريخيّة لأنّها معصومة . أمّا العقلانيّون فيعتبرونها نصوصا خاضعة لقواعد النقد العامّة . ويضيف : شأننا إزاء الأناجيل شأن المستعربين إزاء القرآن والحديث والمتهنّدين indianistes إزاء الفيدا Védas والكتب البوذيّة . إنّ المستعربين لا يعدّون القرآن كتابا معصوما والمتهنّدين لا يعتبرون حياة بوذا الأسطوريّة Lalitavistara سيرة حياة بالمعنى التاريخي . ثمّ يتساءل رينان تساؤل الرافض: فهل نتّهم المستعربين بأنّهم يحرّفون التاريخ عندما يعرضون مرتكزات الإسلام بطريقة تختلف عن طريقة علماء الكلام المسلمين ؟[٤]

إنّ دراسة رينان للأناجيل جعلته يذهب إلى أنّ نصوصها تحوي خرافات وأساطير وتحمل آثار تأليف بشري محض[٥] . وهي وإن تضمّنت حقائق تاريخيّة

١ــ Renan, Vie, p. V

٢ــ Renan, Mahomet, p. 1-2

٣ــ Renan, Avenir, p.275

٤ــ Renan, Vie, p. VI- VII

٥ــ Renan, Souvenirs, p.213

فإنّ ما فيها ليس كلّه تاريخا بالضرورة . فهي تتحدّث عن معجزات ، ورينان يرفض أيّ مفهوم لا علمي للأشياء . فكما أنّ الفلكي والكيميائي والفيزيائي يرفضون مثل هذا المفهوم ، كذلك يجب على المؤرّخ ألّا يقبل به[١] . وقد شكّ رينان مثلا في أن تكون طرفة سؤال الفرّيسيين المسيح عن ضرورة دفع الجزية الى قيصر وجوابه لهم صحيحة ، لأنّ النقود التي كانت متداولة آنذاك لم تكن تحمل صورة الامبراطور . وهو يعتقد ان جواب المسيح " أعط لقيصر ما لقيصر ولله ما لله" هو حكمة مسيحيّة جميلة ولكنّها قيلت في فترة لاحقة[٢].

وتعامل رينان مع نصوص الديانة الإسلامية بالطريقة نفسها . فقال إنّ القرآن كان مجموعة عظات كتبت على جلود الجمال وعظامها وعلى سعف النخيل أو هي حُفظت غيبا . والقرآن لم يُجمع إلّا في عهد أبي بكر بعد معركة اليمامة التي قضى فيها عدد كبير من المسلمين المعمّرين ، ثمّ نُقّح في ظلّ خلافة عثمان الذي عيّن لجنة من النحويّين مهمّتها أن تجعل النصّ القرآني بلهجة أهل مكّة ، وما لبث أن أحرق النصوص الأخرى كي لا يترك مجالا للجدل . ويعتبر رينان أنّ نصّا حفظته الذاكرة طويلا لا يمكن أن يكون موثوقا ، ويتساءل : ألا يمكن أن تكون قد أضيفت إليه في عمليات التناقل تحريفات أو زيادات؟[٣] إنّ نسبة الحقيقة التاريخيّة في الأحاديث النبويّة ، كما يقول رينان ، لا تفوق نسبة الحقيقة التاريخية في الأناجيل[٤] . وقد اتّفق الجميع أنّها وثائق تقليديّة

١ــ Renan, Vie, p. VI

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٣٦١ ، الهامش رقم ١ .

٣ــ وينقل رينان عن ويل Weil قوله إنّ عثمان لم يقم بتنقيح القرآن بدافع نحوي محض ، كما يريد العرب ان يعتقدوا ، بل فعل ذلك بدافع سياسي . أنظر : Renan, Mahomet , p. 5-6

٤ــ Renan, Vie, p. XCIV

وأسطوريّة أكثر ممّا هي تاريخيّة[١] . فحتّى سيرة ابن هشام المدوّنة مثلا ، والتي تحمل طابعا تاريخيّا أكثر ممّا تحمله الأناجيل ، لا يستطيع رينان أن يقبل كلّ ما جاء فيها خصوصا ما يتعلّق منه بالمعجزات التي قام بهـــا النبي[٢] .

وطبّق رينان المنهاج نفسه الذي اعتمده في دراسته للكتب الدينيّة على الشعر الجاهلي أيضا وذلك في كتابه حول تاريخ اللّغات الساميّة . فاعتبر أنّ ظهور اللّغة العربية في القرن السادس كان من أغرب الأمور ، لأنّ هذه اللّغة التي كانت مجهولة من قبل قد برزت فجأة في شعر الجاهليين بكلّ كمالها وطواعيتها وغناها اللّامتناهي ، وبدت كاملة حتّى انه لم يدخل عليها أيّ تغيير هام منذ ذلك الحين . إنّ هذه اللّغة ليس لها طفولة ولا شيخوخة . فهي ما كادت تظهر حتّى بدت معالمها بوضوح . ويعلّق رينان على ذلـــك بقوله : لست أدري هل هناك وسيلة تعبير أخرى مماثلة نفذت هكذا إلـى العالم بلا ركاكة ولا تدرّج[٣] . ثم يسأل سؤالا هامّا : هل لدينا نصوص عربية صحيحة الشكل سابقة للإسلام لكي نقف على أوضاع اللّغة قبل كتابـــة القرآن ؟ والإجابة عن هذا السؤال تقتضي الإجابة عن سؤال آخر يدور حول المرحلة التي بدأت فيها الكتابة في وسط الجزيرة[٤] .

يقول رينان إنّ نسبة القصائد الجاهلية ، من حيث المضمون والشكل ،

١ــ Renan, Vie, p. 478

٢ــ المصدر نفسه ، ص VIII وص ٥٠٢ ــ ٥٠٣ (الملحق) .

٣ــ Renan, Langues Sémitiques, p.342

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٣٥٠ ــ ٣٥١ .

إلى شعراء جاهليّين أمر قد تمّ التسليم بصحّته بلا قيد أو شرط . إلا أنّ لرينان رأيا آخر في هذا الشأن . فهو يسلّم بصحّة مضمون هذه القصائد لأنّها تمثّل لنا الحياة الجاهلية أحسن تمثيل وتعود بلا شكّ إلى أشخاص حقيقيّين وتعبّر عن أحداث وقعت . غير أنّه يبدي شكّه في أن يكون شكلها الحالي عائدا إلى الجاهلية . ذلك أنّ متطلّبات الفقيه اللّغوي philologue ، الذي يهتمّ في دراسته بقضية الشكل ، تختلف عن متطلّبات المؤرّخ والأديب . فهذان الأخيران يتحدّثان مثلا بلا تردّد عن شاعر فرنسي من القرن الثاني عشر استنادا إلى مخطوطة تعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر ، في حين أنّ الفقيه اللّغوي لا يجرؤ أن يتخطّى في استنتاجاته زمن المخطوطة نفسه والمكان الذي كتبت فيه . ولذا يتساءل رينان ما إذا كانت تلك القصائد قد كتبت بالفعل بلغة سابقة للغة القرآن وما إذا كنّا نستطيع أن نعتبرها نصوصا قد دوّنت منذ إنشائها وحفظت كما تفوّه بها مؤلّفوها . هنا تصبح مهمّة اللّغوي linguiste دقيقة للغاية . وبما ان النقد في نظر رينان لم يتطرّق حتّى زمانه لا إلى تاريخ الجزيرة في الجاهلية ولا إلى بدايات الإسلام ، فإنّ الحيطة في رأيه ضروريّة جدّا كي نتفادى الوقوع في ثقة مسرفة أو في شكّ مبالغ فيه(١) .

لقد ميّز رينان في بحثه حول صحّة الشعر الجاهلي بين قصائد المناسبات والمعلّقات ، فقال إنّه لا يمكن الوثوق بقصائد المناسبات على الإطلاق لأنّها نُظمت قبل قرون من مجيء النبي ، حين كانت الكتابة نادرة والتناقل الشفهي غير موثوق به وثوقا تامّا . إنّ مسألة الأصالة إذن لا يمكن أن تثار إلّا في

١ــ Renan, Langues Sémitiques, p. 354, 355

المعلّقات التي هي تآليف منتظمة تحمل أسماء ناظميها وتتمتّع شكلا بأصالة تاريخيّة ثابتة . فقراءتها تولّد فينا بعض الشكّ لا في أصولها الأولى ولكن في صحّتها وفي طبيعة الوسائل التي نقلتها إلينا . فلغة المعلّقات ، رغم اشتمالها على كثير من أساليب التعبير والألفاظ التي لم تعد مستعملة ، ليست في جملتها لغة قديمة . وينبغي أن نفرّق بين غموض ناجم عن لغة متخلّفة نحويّا ، مثل لغة هومير Homère ، وبين غموض ناتج عن أسلوب خاصّ في الكتابة . من هنا يذهب رينان إلى أنّ غموض الشعر الجاهلي ليس نتيجة قدم في أسلوبه . فالكتابة زمن المعلّقات كانت حكرا على المسيحيّين واليهود في الحجاز . ومن المرجّح أن تكون القصائد الجاهلية قد حُفظت غيبا ، ولم تُجمع وتدوّن إلّا في القرن الثالث للهجرة . غير أنّ تناقلها غيبا في مرحلة حسّاسة كمرحلة نشوء الإسلام أمر يثير الشكوك حول سلامتها . صحيح أن الذاكرة العربية متميّزة في قوّتها ، إلّا أنّ الذاكرة لا تتمسّك أبدا بخصائص نحويّة . فالأغاني الشعبية مثلا يعود مضمونها في مختلف الآداب الى زمن قديم ، ولكن نادرا ما تقدّم هذه الأغاني شكل لغة أقدم من لغة العصر الذي جمعت فيه . إنّ وضع الشعر الجاهلي يشبه وضع هذه الأغاني الشعبية ، كما أنّ اختلاف الروايات في القصائد الجاهلية يدلّ على أنّ أصحاب هذه القصائد لم يكتبوها بأنفسهم بل نقلت عنهم شفاها . غير أنّ الفم حارس للغة غير أمين ، والشعر الذي عهد به إليه يتغيّر كلّما خضع التعبير الاصطلاحي نفسه لقانون التغيّر (١) . ويقول رينان إنّ المؤلّفين العرب أنفسهم قد اتّفقوا على أن لغتيّ أهل الحجاز وأهل اليمن كانتا مختلفتين إلى درجة جعلت المتكلّمين بهما عاجزين عن التفاهم في ما بينهم (٢) . لكنّنا إذا تناولنا

١ــ Renan, Langues Sémitiques, pp. 357-360

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٣٠٧ .

التاريخيّة التي تُخضع أيّ نصّ للامتحان وتحوّم الشكّ حوله إلى أن تثبت الأدلّة العلمية صحّته قد تبنّاها بعض الكتّاب العرب المحدثين ولا سيّما طه حسين في كتابه " في الشعر الجاهلي " . وغير خاف ما أحدثه هذا المؤلّف من ضجّة في الأوساط الإسلاميّة، ممّا دفع كاتبه إلى إصداره ملطّفا بعض الشيء بعنوان " في الأدب الجاهلي " .

لقد أعلن طه حسين عن نيّته في أن يتبع في هذا الكتاب منهج ديكارت الفلسفي . غير انه ذهب في الواقع إلى أبعد من هذا فهو اذ بدا مجاريا لرينان في نظريته النقديـــــة كان أكثر منه تطرّفا في النتائج التي توصّل إليها . فهو مثله شكّ في صحّة الشعر الجاهلي " من الناحية اللّغوية" وذهب إلى أنّه لم يقل ويذع قبل أن يظهر القرآن[1] . وقال إنّ اختلاف اللّغات بين عرب الشمال وعرب الجنوب لا يظهر في الشعـر الذي اعتبر جاهليّا ، وهذا ما دفعه إلى اعتبار أنّ هذا الشعر لم يصدر عن القبائل العربية وإنّما حُمل إليها بعد الإسلام حملا . كما رأى أنّ الشعر المنسوب إلى الجاهليّين لا يمثّل حياتهم الدينيّة ، وتساءل : "أوليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كلّه عن تصوير الحياة الدينيّة للجاهليّين؟ .. أفتظنّ أنّ قريشا كانت تكيد لأبنائها وتضطهدهم وتذيقهم ألوان العذاب ثمّ تخرجهم من ديارهم ثمّ تنصب لهم الحرب وتضحّي في سبيلها بثروتها وقوّتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين الاّ ما يمثّله هذا الشعر الذي

١ــ طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ص ٨٣ ــ ٨٤ .

يضاف إلى الجاهليّين ؟ كلّا ...» (١) .

من المرجّح إذن أن يكون رينان أحد الذين لفتوا طه حسين الى قضية الوضع في الشعر الجاهلي ، لا سيّما أن طه حسين قرأ رينان وأعجب به فجعله واحدا من شخصيات أربع هامّة ألقى في كلّ منها محاضرة في الجامعة الأميركية في القاهرة (٢) . كما أن طه حسين تحدّث في المحاضرة التي ألقاها في رينان عن كتابه الهامّ حول تاريخ اللّغات السامية الذي تضمّن قضية الشك في شكل الشعر الجاهلي . وهذا ما يدفع الى الاعتقاد بأن رينان هو المنهل الذي استقى منه حسين نظريته النقدية هذه .

واللاّفت أنّ الباحثين العرب الذين جمعوا دراسات المستشرقين في صحّة الشعر الجاهلي أو حاولوا إرجاع نظريّة طه حسين إلى هذه الدراسات ، لم يذكر أيّ منهم رينان والأثر الذي يمكن أن يكون أحدثه في هذا الكاتب . فعبد الرحمن بدوي تحدّث عن أهمّ الباحثين المحدثين الذين تناولوا هذا الموضوع فسمّى نولدكه Nöldeke (١٨٣٦ــ ١٩٣١) والفرت Ahlwardt (١٨٢٨ــ ١٩٠٩) ومرغوليوث Margoliouth (١٨٥٨ــ١٩٤٠) . غير أنّه أهمل رينان تماما (٣) .

١ــ طه حسين، في الأدب الجاهلي ، ص ٩١ .
وقد ردّ بطرس البستاني على طه حسين قائلا إنّ معظم الشعراء الجاهليّين كانوا من عدنان وان الأسواق أسهمت في توحيد اللّهجات العربية التي جعلت لغة قريش، وهي صاحبة الزعامة ، تكتسب كلّ جميل من لغات القبائل الأخرى وتهمل كلّ مستهجن فيها . فصارت لغة قريش هي اللّغة الأدبية الجاهليّة ولولا ذلك لما فهم العرب القرآن . أنظر :
بطرس البستاني ، أدباء العرب . حياتهم ، آثارهم ، نقد آثارهم . الجزء الأوّل ، ص ٣ــ ٤ .

٢ــ طه حسين ، آراء حرّة . ويحوي سلسلة من المحاضرات التي نظّمتها الجامعة الأميركية في القاهرة . وقد حاضر فيها طه حسين عن ڤولتير وروسو وتين فضلا عن رينان .

٣ــ عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين حول صحّة الشعر الجاهلي . من "تصدير عام" ، ص ١١ــ ١٢ .

أمّا محمّد لطفي جمعة الذي ردّ على طه حسين وأفرد في خاتمة كتابه " الشهاب الراصد " صفحات تتحدّث في "أقوال علماء المشرقيات في صحّة الشعر الجاهلي" فقد اجتزأ أقوالا لرينان كي يبيّن أنّ هذا المفكّر قد أثبت صحّة هذا الشعر(١) . وما كان من عبد المنعم خفاجي(٢) إلّا أن استعان بأحد هذه الآراء المبتورة التي أوردها جمعة ، فشوّه هذان المؤلّفان آراء رينان وحادا بها عن الغرض الذي وُضعت من أجله وذلك بهدف الردّ على طه حسين . واستشهد ناصر الدين الأسد في كتاب "مصادر الشعر الجاهلي" بكاتبين هما محمّد الخضر حسين ومحمّد أحمد الغمراوي ليذهب معهما إلى القول إنّ نظريّة طه حسين ليست سوى نظريّة مرغوليوث(٣) . غير أنّ رينان في ما يبدو قد سبق جميع المستشرقين في التشكيك بصحّة الشعر الجاهلي . فعندما وضع كتابه في تاريخ اللّغات السامية عام ١٨٥٥ كان نولدكه في التاسعة عشرة من عمره ، وكان الڤرت في السابعة والعشرين ، في حين لم يبصر مرغوليوث النور إلّا بعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات !

لقد كان رينان من الروّاد الذين بحثوا في صحّة الشعر الجاهلي ، وربّما كان هو أوّل من عالج هذا الموضوع على نحو مفصّل ، وغريب أن يهمل الباحثون نظريته او امكانية تأثيره في طه حسين مثلا ، بل أن يشوّهوا آراء رينان نفسه عندما يذكرونه كي يردّوا بها باطلا على طه حسين .

١ــ محمّد لطفي جمعة ، الشهاب الراصد ، ص ص ٣٠٢ ــ ٣٠٤ .

٢ــ محمّد عبد المنعم خفاجي ، نظريّة طه حسين في الشعر الجاهلي . بحث مستلّ من كتاب "طه حسين وقضيّة الشعر" ، ص ص ٩٠ــ ٩٢ .

٣ــ ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخيّة ، ص ٤١١ .

٢ — رأي رينان في اللّغة العربيّة

ذهب رينان إلى حدّ التأكيد بأنّ العربيّة مختصر للّغات الساميّة وأنّها قد أدّت في المراحل الأولى للهجرة إلى زوال جميع هذه اللّغات (١) . واعتبر أنّ سيطرة العربيّة في الشرق قد أحدثت ثورة في تاريخ اللّغات الساميّة. فقد كانت هذه اللّغات محصورة في السابق في التعبير عن المشاعر والأحداث فانتقلت مع اللّغة العربية إلى نطاق التعبير عن القضايا المجرّدة ، وتمرّست بأنواع من الكتابة تتطلّب تفكيرا عاليا مثل النحو ، والفقه ، وعلم الكلام ، والفلسفة، والتاريخ ، والعلوم الفيزيقية والرياضية والموضوعات التقنيّة والبيبليوغرافيا . فتسرّبت إلى العربيّة أشكال معقّدة ودقيقة لا تعرفها العبريّة ولا الآراميّة (٢) . وبذلك أخرجت العربيّة اللّغات الساميّة من الحلقة الضيّقة التي كانت محبوسة فيها فأدّت بعملها دورا عالميّا من حيث النشاط الذهني وانتشار المعرفة . إنّ أيّ فتوحات لم تجر بمثل السرعة والامتداد اللّذين تحقّقا للّغة العربية . وحدهما اللّغتان اليونانيّة واللاّتينيّة تشاركان العربيّة شرف كونها لغة عالمية. لكنّ مدى فتوحات هاتين اللّغتين لا يقاس بالمدى الذي بلغته العربية . واستشهد رينان بكلمة للعالم ارپنيوس Erpenius (٣) قالها عن حقّ وهي أنّ العربيّة حقّقت نبوّة لم تستطع روما أن تحقّقها(٤) . واعتبر رينان أنّ

---

١ — Renan, Langues Sémitiques, p.383-384; p. 416

٢ — المصدر نفسه ، ص ٣٨١ — ٣٨٢ .

٣ — Erpenius أو Van Erpe . مستشرق هولندي (١٥٨٤ — ١٦٢٤) . درّس العربيّة ثمّ العبريّة في مدينة ليد Leyde ، وأنشأ فيها مطبعة عربيّة شُهرت بما أخرجته من المؤلّفات . وقد وضع بنفسه مصنّفات، منها : مبادئ في اللّغة العربيّة Rudimenta linguae arabicae ، وقواعد العربية Grammatica arabica (١٦١٣) ، وقواعد العبريّة العامّة Grammatica hebraea generalis وغيرها .

٤ — Renan, Langues Sémitiques, p. 389

العربيّة تتّسم بغنى مدهش وتتمتّع بطواعية رائعة[١] وأنّ كثرة المرادفات ووفرة الجذور فيها تشكّل ظاهرة ابداعية بين مختلف اللّغات[٢]. لقد تفرّدت بخصائص لا تتوافر في اللّغات الساميّة الأخرى. فجمع التكسير مثلا لا نجده إلّا في اللّغة الأثيوبيّة[٣]. ويرى رينان أنّ اللّغة العربيّة، كونها إحدى اللّغات الساميّة، قد أغنت الأصل المشترك لقواعد هذه اللّغات بإضافتها إليه مجموعة من الأساليب التي تتفرّد بها دون سائر اللّغات الساميّة الأخرى، كما زادت على هذا الأصل عددا كبيرا من العلائق الرهيفة التي لا تستطيع حتّى اللّغات الأوروبّية أن تعبّر عنها إلّا بطريقة غير مباشرة. فما من لغة تقارب العربيّة في هذا النوع من الغنى[٤].

لقد انتشرت العربيّة في أفريقيا وأوروبّا. ورأى رينان أنّ وجودها في افريقيا كان في حينه يعتبر دليلا على وجود حضارة ما في تلك البلاد[٥]. وفي الأندلس صارت العربيّة منذ القرن العاشر لغة مشتركة بين المسلمين واليهود والمسيحيّين لأنّ العرب الذين فتحوا البلاد كانوا متسامحين ومعتدلين إلى حدّ لا مثيل له، فكثر الزواج المختلط رغم معارضة الاكليروس له. وزال نفوذ الدراسات اللّاتينيّة والكنسيّة معا. وبلغ بأحد الأساقفة أن نظم القصائد باللّغة العربية مراعيا قواعدها وأوزانها الشعرية بكلّ دقّة. وقد لام الغار Alvare

---

١ـ Renan, Langues Sémitiques, p.417

٢ـ المصدر نفسه، ص ٣٨٨.

٣ـ المصدر نفسه، ص ٣٤٢.

٤ـ المصدر نفسه، ص ٤٢٦.

٥ـ المصدر نفسه، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

القرطبي[١] مواطنيه أشدّ اللّوم لأنّهم فضّلوا الآداب العربيّة على الآداب المسيحيّة وجهلوا دينهم ولغتهم معا وحرصوا على مراعاة سجع البيان الإسلامي ومحسّناته الكلامية[٢]. الا أنّ رينان يرى ، مع ذلك ، أنّ الحديث عن تأثّر الغربيّين بالأدب العربي مبالغ فيه كثيرا ، إذ هو يذهب إلى أنّ ثمّة هوّة تفصل شكل القصيدة اللاّتينية romane وروحها عن شكل القصيدة العربية وروحها . ويضيف أنّ لا شيء يثبت أنّ الشعراء المسيحيّين قد عرفوا بوجود القصيدة العربيّة ، ويؤكّد أنّهم لو عرفوها لكانوا عاجزين عن فهم لغتها وروحها .

هكذا كان للّغة العربية تأثير عالمي في أوروبّا نفسها التي لم تستطع ، بالرغم من تشدّدها العقائدي ، أن تفلت من جاذبيّة لغة الفاتحين . فكثير من الكلمات التي يتداولها الإسبان والبرتغاليّون مستعارة من محاوريهم المسلمين . واللّغات الأخرى المشتقّة من اللاّتينية romane تشتمل على عدد غير قليل من الكلمات العربية التي تعني في معظمها أشياء علميّة أو منحوتة . وتشهد هذه الكلمات على أنّ المسيحيّين في القرون الوسطى كانوا إلى درجة كبيرة متخلّفين عن المسلمين علميّا وتقنيّا[٣]. وقد تأثّر اليهود أيضا باللّغة العربية . فهم عندما تبنّوا في القرن العاشر الثقافة الوافدة صارت العربية التي كانت لغتهم المحكيّة في البلدان الإسلاميّة لغة الكتابة أيضا بالنسبة إليهم إن في الشرق أو في اسبانيا ، وفي أسلوب ابن ميمون مثل واضح على هذا الواقع . ولـــم

١ــ Gilles- Alvarez - Carillo (١٣١٠ ــ ١٣٦٧) . كردينال طليطلة ورئيس أساقفتها .

٢ــ Renan, Averroès, p. 174 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ١٨٥ .

٣ــ Renan, Langues Sémitiques, p. 397

يتسنّ للعبريّة أن تُبعث إلّا عندما التجأ اليهود إلى اسبانيا المسيحيّة بعد طردهم من اسبانيا المسلمة . عندها نأت عنهم العربية وبدأ بعض مترجميهم خلال القرن الثالث عشر ينقل الكتب العربية العلميّة والفلسفيّة والدينيّة إلى العبريّة(١) .

ويعتقد رينان أنّ اللّغة العربية تتلاءم تماما مع الأساليب الشعرية والبلاغية ، إلّا أنّها تبدو قاصرة في حقل الماورائيّات . ويرى أنّ الفلاسفة والعلماء العرب على وجه العموم هم أهل كتابة رديئة(٢) . وفي هذا ما يسلّمنا إلى رأي لرينان في الفلسفة العربية أشدّ خطورة ، رأي يبلغ حدّ إنكار وجود هذه الفلسفة وإن يكن لأسباب لا ترتبط بالعائق اللّغوي وحده .

٣ــ رأي رينان في فلسفة العرب

أ ــ رأيه في هويّة فلسفة العرب

يذهب رينان إلى أنّ الشعوب التي تتبنّى الأديان لا تستطيع أن تتقبّل العلوم ولا أن تنمّيها . وقد مرّ أنّه ميّز تمييزا واضحا بين الساميّين في رعايتهم للأديان والهندو ــ اوروبيّين في اهتمامهم بالعلوم (٣) . وانطلاقا من هذه النظرة أنكر أن يكون للعرب ، وهم أبناء العائلة الساميّة ما يختصّ بهم من علم أو فلسفة(٤) .

١ــ Renan, Langues Sémitiques, p. 163

٢ــ Renan, l'Islamisme, p. 15

٣ــ راجع الصفحة ٦١ من هذا البحث .

٤ــ لا يميّز رينان بين اللّفظتين . وهو يطلق على ما نسمّيه عادة " الفلسفة" اسم "العلم" . أنظر : Renan, Avenir, p. 91 .

لقد اعتبر أنّ العلم المسمّى عربيّا ، إذا استثنينا اللّغة التي كتب بها، لا يمتّ إلى العرب بصلة . فالفتح الإسلامي حمل لغة الحجاز إلى أطراف العالم ، وصار العلم أينما كتب بهذه اللّغة يسمّى عربيّا . وحده الكندي بين فلاسفة العرب كان من أصل عربي . أمّا الآخرون فهم ليسوا عربا لا بالدم ولا بالتفكير . لقد استخدموا اللّغة العربية ولكنّهم عانوا من هذا الاستعمال كما عانى مفكّرو القرون الوسطى من استعمال اللّغة اللّاتينية[١] ، حتّى الكندي نفسه الذي يعتبر مؤسّس الفلسفة العربيّة لم يكن في مذهبه إلّا صدى لمذهب السريان الذين يرتبطون ارتباطا مباشرا بشرّاح اليونان في الاسكندرية[٢] .

لقد ذهب رينان إلى حدّ اعتبار العلم والفلسفة العربيين مجرّد ترجمة للعلم والفلسفة اليونانيين[٣] . وقال إنّ المسلمين أنفسهم لم يطلقوا إسم "الفلسفة" إلّا على "الفلسفة اليونانيّة" . وهو يعتقد أنّ الحركة الفلسفيّة الحقيقيّة في الإسلام يجب أن تُنشد عند الفرق الكلامية كالقدرية والجبرية والصفاتيّة والمعتزلة والباطنيّة والتعليميّة والأشعريّة وغيرها . إلّا أنّ المسلمين لم يطلقوا أبدا على هذه المجادلات اسم " الفلسفة"[٤] . وبقي العرب ،

١— Renan, l'Islamisme, p. 14 - 15
ليس في كتابات رينان ما يدعم رأيه هذا على خطورته . ففي المصادر العربيّة القديمة ما يوحي بعكسه كقول البيروني العالم الفارسي الأصل مثلا إنّ الهجاء الموجّه إليه بالعربيّة أحبّ إلى قلبه من المدح بالفارسيّة .

٢— Renan, Averroès, p. 92 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ١٠٨ .

٣— Renan, Peuples Sémitiques, p. 17-18; l'Islamisme, p.11
Renan, Averroès , p. II, p. VIII; ورينان ، ابن رشد ، ص ٩ و ص ١٥ .
Avenir, p. 516, note 128 bis; Langues Sémitiques, p.10.

٤— Renan, Averroès, p. 89 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ١٠٦ .

بفضل ترجمتهم للفلسفة اليونانية ، أساتذة الأوروبّيين لمدّة قرن أو قرنين من العصور الوسطى ، إلى أن تعرّف الأوروبّيون إلى الأصول اليونانية فغدت ترجمة العرب لهذه الأصول هزيلة في نظرهم وبلا فائدة[١] . فمنذ الرابع من نيسان سنة ١٤٩٧ بدأ تدريس أرسطو حسب النصّ اليوناني في مدينة پادو الإيطالية، وافتتح هذا الحدث العظيم عصرا جديدا في تدريس الفلسفة . ثمّ شنّ المفكّرون المستنيرون خلال القرن السادس عشر حربا صليبيّة فعليّة على فلسفة " البربر" وطبّهم . وقامت ردّة فعل غربيّة على العلم العربي عبّر عنها توماس جيونتا Thomas Giunta [٢] في مقدّمة كتاب نشره لابن رشد بقوله :

" لم يكن أجدادنا يجدون أمرا لافتا في الفلسفة أو الطبّ إلّا كان العرب مصدره . أمّا جيلنا فيدوس علم العرب ولا يُعجب إلّا بما يستخرج من كنوز اليونان، وهو لا يعبد إلّا اليونان ، ولا يريد غيرهم أساتذة في الطبّ والفلسفة والمنطق . فالذي لا يعرف اليونانية لا يعرف شيئا .."

وكتب شامپييه Champier [٣] سنة ١٥٣٧ أنّ شباب عصره يكرهون الأطباء العرب ويرفضون ذكر أيّ شيء عنهم[٤] .

١ــ Renan, Peuples Sémitiques, p. 17

٢ــ هو على الأرجح أحد أفراد عائلة Giunta أو Giunti الإيطاليّة التي عُنيت بنشر المؤلفات .

٣ــ J. Champier . طبيب ومفكّر فرنسي (١٤٧٢ ــ ١٥٣٩) . بليغ التأثير في التيّارات العلميّة والذهنيّة التي كانت ناشطة في مدينة ليون وجوارها . وقد شُهر بوضعه فهرسا تناول فيه الكتب المعنيّة بالفنون الطبّية .

٤ــ Renan, Averroès, pp. 385-388 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ص ٣٨٦ــ٣٩٠ والمعنى نفسه في : Peuples Sémitiques, p. 17-18 .

ولكن كيف يفسّر رينان اهتمام العرب، وهم ساميون، بهذه الفلسفة اليونانية ؟ لقد رأى أن ليس بين جميع الذين اهتمّوا بالفلسفة اليونانية سامي حقيقي واحد، إذ كانوا كلّهم اسبانا وفرسا يكتبون بالعربيّة(١) . والخليفة المأمون مثلا، الذي يمثّل العودة الى الفرس، والذي كان مولعا بالعلوم، كان دائم البحث عن هذه العلوم العقليّة في بلاد الهند وفارس واليونان وليس في البلدان الإسلاميّة . ويضيف رينان أنّ أصول الفلسفة العربية تتعارض والإسلام، ولذا فإنّ الفلسفة تشعر المسلمين باعتداء الأجنبي على عقيدتهم وبالتالي عليهم(٢) .

ويشير إلى أنّ هذا العلم " اليوناني ـ العربي " لم ينشأ مطلقا في شبه الجزيرة العربية بل في البلدان غير الساميّة التي خضعت للإسلام وتبنّت اللّغة العربية لغة علمية . لقد نشأ هذا العلم في فارس والمغرب واسبانيا(٣) . أمّا شبه الجزيرة فبقي خاليا من أثر الهيلينيّة، ولم يفهم أهله أبدا إلّا القرآن والقصائد القديمة .

إنّ تسرّب الفلسفة اليونانيّة إلى العرب قد تمّ عندما أحدث الفكر الهندو ـ أوروبي ردّة فعل على الفكر السامي، أي عندما انتصر الفكر الفارسي، متمثّلا

---

١ ـ Renan, Peuples Sémitiques, p.18; l'Islamisme, p.14-15

٢ ـ Renan, Averroès, p. 91، ورينان، ابن رشد، ص ١٠٧ .

٣ ـ Renan, Avenir, p. 516, note 128 bis; Langues Sémitiques p.10

بالدولة العبّاسية ،على الفكر العربي . وفي عاصمة العبّاسيّين بغداد ، ظهر أناس من السريان النصارى حثّوا على الحركة العلميّة الجديدة واشتغلوا فيها (١) . ويرجع رينان تفوّق بغداد وسوريا على الغرب اللاّتيني إلى استطاعتهما تلمّس التقاليد اليونانيّة من مسافة أقرب ، إذ كان الحصول على شيء من أرسطـــــو وإقليدس في حرّان وبغداد أسهل منه في باريس (٢) .

إلاّ أنّ رينان يعترف في "التنبيه" الذي صدّر به الطبعة الرابعة من كتابه " ابن رشد والرشديّة" التي صدرت سنة ١٨٨٢ أنّه ، بعد أن تتبّع آثار الحركة العلميّة الرائعة التي قام بها العرب ، لم يوفّ في السابق هذه الحركة حقها . ووجد أن الأفق العقلي الذي تمتّع به العلماء العرب حتّى أواخر القرن الثاني عشر كان أرحب من أفق العالم المسيحي ، وأنّ الفلسفة العربيّة قد توصّلت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر إلى ابداع حقيقي . إلاّ أنّ هذه الفلسفة لم تستطع أن تدخل المعاهد لأنّ علم الكلام أقام حاجزا أمامها ، فبقي الفيلسوف المسلم هاويا أو موظّف بلاط . ثمّ أشاع التعصّب الرعب في الحكّام فتوارت الفلسفة وأبيدت المخطوطات بأمر ملكي . وحدهم المسيحيّون تذكّروا أنّه كان بين المسلمين علماء ومفكّرون (٣) . إنّ الإسلام لم يساعد الأبحاث العقليّة على الإطلاق . فالمسلمون المتزمّتون لعنوها . أمّا الذين قاموا فعلا بهذه الأبحاث فهم الفرس والمسيحيّون واليهود والحرّانيون والإسماعيليّون وبعض المسلمين الثائرين

١ــ Renan, Averroès, p.90-91 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ١٠٧ .
Mahomet, p. 8, note 1.

٢ــ Renan, l'Islamisme, p.11

٣ــ Renan, Averroès, pp.I-III ، ورينان ، ابن رشد ، صص ٩ــ ١١ .

باطنيًا على دينهم . وينتهي رينان إلى أن العلم والفلسفة لم يكونا مسلمين كما لم يكونا عربيين(١) .

ونحن نستغرب رأي رينان هذا ونتساءل : إذا سلّمنا جدلا بأن المسلمين لم يشجّعوا الفلسفة فلماذا يرفض أن ينسب هذه الفلسفة إلى العرب على الأقل؟ وما الذي يعتمده إذن من أجل تحديد هويّتها إذا ما أهمل دين أهلها ولغتهم معا ؟

ب ـ رأيـــــه في مضمـــون فلسفـة العرب

اهتمّ رينان بالفكر العربي اهتماما كبيرا . وقال إنّه بين اختفاء الحضارة القديمة في القرن السادس وولادة العبقرية الأوروبّية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، هناك ما نستطيع تسميته "بالمرحلة العربية"(٢) . وحظي ابن رشد لديه بالاهتمام الأعظم فكتب فيه أطروحته التي صدرت بعنوان " ابن رشد والرشدية" . ولا شكّ في أنّ رينان كان معجبا بهذا الفيلسوف العربي ، وقد تأثّر بالعديد من نظرياته . فهو مثله يرى أنّ فكرة النبوّة مثلا تناسب عامّة الناس بينما لا يفهم الفلسفة إلّا الخاصّة . وهو كذلك يستخفّ بالتصوّف وينكر وجود الحياة الأخرى ،كما يهاجم علماء الكلام ويعتبر أنّ العلم وحده قد يوصل إلى الحقيقة . ونستطيع من خلال أطروحة رينان هذه إيجاز آرائه في الفلاسفة العرب وفي مضمون فلسفتهم .

١ـ Renan, l'Islamisme, p. 15-16

٢ـ المصدر نفسه ، ص ١٤ .

يرى رينان أنّ نظريّات ابن رشد لا تختلف اختلافا جوهريّا عن نظريات ابن باجّه وابن طفيل اللّذين تابعا في الأندلس سلسلة الدراسات التي كان ابن سينا والفارابي والكندي قد عنوا بها في المشرق(١) . فبعد أن ركدت الفلسفة في المشرق أضفى عليها ابن باجّه وابن طفيل رونقا جديدا في اسبانيا، وأضافا إليها سمة من التصوّف أكثر وضوحا(٢) . إلّا أنّ ابن رشد هو بلا شك أقلّ فلاسفة عرب الأندلس ميلا إلى التصوّف إذ بقي غريبا عن " بلاهات " المتصوّفين ، حسب تعبير رينان ، وقال إنّ زهدهم باطل لا طائل تحته .وقد أعلن ابن رشد جهرا ان الكشف يتمّ عن طريق العلم . وتسمّى نظريته في تاريخ الفلسفة باسم " التصوّف العقلي "(٣) . وهو ينكر وجود الحياة الأخرى لأنّه ينفر من الأساطير الشعبية التي تذكرها ويتحدّث عن "أوهامها الخطرة" ، كما ينتقد أفلاطون لحديثه عنها . ورأى رينان أنّ لابن رشد في كتاب "تهافت التهافت" رأيين متناقضين حول النفس والجسد . فلقد صوّر النفس مستقلّة عن الجسد استقلالا تامّا ، إلّا انه قال بعد صفحات إنّ النفس لا تنقسم وفق عدد الأفراد وانّ العقل لا يتمتّع بأي فرديّة والفرديّة لا تتأتّى إلّا عن طريق الحسّ(٤) . واعتبر أنّ الفلسفة هي أقصى غايات طبيعة الإنسان، لكنّ قلّة من الناس تستطيع أن تبلغها فيقوم الوحي النبوي مقامها عند عامّة البشر. ومن الخطأ أن تُعرض مناقشات الفلاسفة على العامّة لأنّ عرضها عليهم لا يؤدّي إلّا إلى إضعاف إيمانهم . ويكفي من أجل سعادة البسطاء أن يدركوا ما يمكنهم إدراكه(٥) ،كما اعتبر أنّ الإنسان يستطيع بملكاته الطبيعية والتجريبيّة أن يصل إلى معرفة الموجودات الخفيّة(٦) .

١ــ Renan, Averroès, p. 92 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ١٠٨ .
٢ــ المصدر نفسه ، ص ٩٩ ، وبالعربيّة ص ١١٤ .
٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٥ــ ١٤٦ ، وبالعربية ص ١٥٦ــ١٥٧ .
٤ــ المصدر نفسه ، صص ١٥٤ــ١٥٦ ، وبالعربية صص ١٦٤ــ ١٦٦ .
٥ــ المصدر نفسه، ص ١٦٧ ، وبالعربية ص ١٧٦ .
٦ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٨ــ١٤٩ ، وبالعربية ص ١٥٩ .

ورأى رينان أنّ ابن رشد الذي لام ابن سينا بمرارة لأنّه لم يتّخذ موقفا من المتكلّمين والفلاسفة بل حاول دائما التوفيق بينهما[١] كانت منزلته في القرن الثالث عشر أدنى من مرتبة ابن سينا عند الرأي العام . إلاّ أنّ سلطة الفيلسوف الأندلسي صارت مطلقة لا جدال فيها في القرن الرابع عشر . وفي هذا القرن والذي يليه أصبح ابن رشد يعتبر أوّل شارح لأرسطو فلا تُنسخ إلاّ كتبه وحدها . واعتبره بترارك Pétrarque (١٣٠٤ـ١٣٧٤) الكاتب الأوّل والأوحد الذي شرح الأعمال الكاملة لمؤلّف قديم . كما اعتبره پاتريزي Patrizzi [٢] أبا لعلم الكلام كلّه والشارح الأوحد الذي عرفته القرون الوسطى . وعندما عزم ملك فرنسا لويس الحادي عشر في سنة ١٤٧٣ على تنظيم التعليم الفلسفي في بلاده كان المذهب الذي أمر بتعليمه هو مذهب أرسطو كما شرحه ابن رشد . كما أنّ كريستوف كولومب Christoph Colomb (١٤٥٠ ـ ١٥٠٦) ذكر في رسالة كتبها في تشرين الأوّل من سنة ١٤٩٨ أنّ ابن رشد هو أحد المؤلّفين الذين جعلوه يتنبّأ بوجود عالم جديد[٣] .

٤ـ تعامل المسلمين مع العلم والفلسفة

يقول رينان إنّ الإسلام مثل غيره من الأديان قد اضطهد العلم والفلسفة . إلاّ أنّه يلمّح في بعض الأحيان إلى أنّ التعصّب الديني الذي أدّى عند

١ـ Renan, Averroès, p.96، ورينان، ابن رشد، ص ١١١ .

٢ـ F. Patrizzi عالم ايطالي (١٥٢٩ ـ ١٥٩٧) . درّس الفلسفة الأفلاطونية في روما. ويعتبر من الجيل الأخير الذي مثّل النزعة الأفلاطونيّة الحديثة .

٣ـ Renan, Averroès, p.316 ، ورينان، ابن رشد، ص ٣٢٣ .

بعض المسلمين إلى اضطهاد الفلاسفة والعلماء إنّما هو ناتج عن تعصّب أعراق تبنّت هذا الدين لا عن الدين نفسه . وقد تناول هذا الموضوع في عدد من مؤلّفاته وخصوصا في أطروحته عن ابن رشد والرشدية ،كما ألقى محاضرة في السوربون عنوانها " الإسلام والعلم " كان محورها هذا الموضوع نفسه .

عبّر رينان مرارا عن اعتقاده بأن الإسلام عدو العلم(١) والعقل(٢) . وقال إنّ علماء الدين وعامّة الناس اضطهدوا الفلاسفة وإنّ أئمّة الشريعة عدّوهم زنادقة(٣)، ناهيك بالخلفاء الذين وجدوا أنفسهم مضطرّين إلى اضطهاد الفلاسفة رغم حبّ بعض هؤلاء الخلفاء للفلسفة . وقد ذكر عددا منهم قاموا بمعارضة الأبحاث العلميّة أو باضطهاد العلماء والفلاسفة . فمنذ زمن الخلفاء الراشدين مورست أعمال ضيّقت نطاق العمل العلمي أو قضت عليه . ويعتبر رينان أنّ الخليفة عمر، وإن لم يكن هو الذي أحرق مكتبة الإسكندريّة لأنّ معظمها قد زال قبل زمنه ، قد عمل على تقويض البحث العلمي وإيقاف عمل الفكر المتنوّع(٤) . ويقول رينان إنّ كلمة فيلسوف عند المسلمين كانت تحمل معها الموت او الاضطهاد وكانت مرادفة لكلمة زنديق(٥) . وإذا تجرّأ خليفة واحتضن الفلسفة فإنّه كان يتحمّل عاقبة فعله . فالخليفة المأمون الذي سمح

١- Renan, Mission, pp.24,632,804-805; l'Islamisme,p. 2-3; Peuples Sémitiques, p. 28

٢- Renan, l'Islamisme,p.19

٣- Renan, Averroès,p.5، ورينان ، ابن رشد ، ص ٢٦ .

٤- Renan, l'Islamisme,p. 5

٥- المصدر نفسه ، ص ١٠ ، وص ١٦ .

Renan, Averroès, p. 5, 35-36، ورينان ، ابن رشد ، ص ٢٦، ٥١-٥٢ .

بإدخال الفلسفة اليونانيّة لعنه رجال الدين بلا شفقة ، واعتُبرت النكبات التي واكبت حكمه قصاصا له على تسامحه حيال العقائد الغريبة عن الإسلام . وكثيرا ما أُحرقت كتب الفلسفة وعلم الفلك في الأماكن العامّة أو تمّ رميها في الآبار. أمّا الذين كانوا يدعمون هذه الدراسات فكانوا يُضربون في الشوارع وتُحرق بيوتهم . وكثيرا ما عمدت السلطة إلى قتلهم لترضي الجموع[١] . فالعامّة كانوا يحبّون كثيرا أن يُضطهد الفلاسفة خصوصا في اسبانيا المسلمة ، وكان الأمراء المثقّفون يمارسون هذه الاضطهادات رغم ميولهم الشخصية من أجل نيل الحظوة عند العامّة . ويستشهد رينان بقول المقّري :

" وكلّ العلوم لها عند أهل الأندلس حظّ واعتناء إلّا الفلسفة والتنجيم فإنّ لهما حظّا عظيما عند خواصّهم ، ولا يُتظاهر بهما خوفَ العامّة ، فإنّه كلّما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت العامّة عليه اسم زنديق ، وقيّدت عليه أنفاسه ، فإن زلّ في شُبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان أو يقتله السلطان تقرّبا لقلوب العامّة ، وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وُجدت ، وبذلك تقرّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن "[٢] .

هذا المنصور نفسه هو الذي اضطهد ابن رشد لأنّ اعداء هذا الفيلسوف جعلوا من صحّة اعتقاده موضع شبهة لديه . فقد دعا المنصور أعيان قرطبة وأمر ابن رشد بأن يحضر ثم لعن مبادئه وقضى بنفيه ، وأمر بمنع الدراسات الخطرة وبإحراق جميع كتبها . ولم يستثن إلّا كتب الطبّ والحساب وأوليات علم النجوم .

١ــ Renan, l'Islamisme, p. 16. والمعنى نفسه في :
Renan, Averroès, p. 4-5، ورينان ، ابن رشد ص ٢٥ .

٢ــ Renan, Averroès, p.35-36. ، وبالعربية ، ص ٥١ ــ ٥٢ .

ولا يشكّ رينان في أنّ الفلسفة هي سبب محنة ابن رشد مهما كثرت الحكايات(١) . وقد وجد أنّ هذا الفيلسوف يتمتّع بمستوى من النقد يندر وجوده بين المسلمين(٢) . فالأنصاري روى خبرا مفاده ان المنجّمين تحدّثوا في المشرق والأندلس عن هبوب ريح عاتية . فجزع الناس واستدعى والي قرطبة أعيانها لمشاورتهم في الأمر ، وكان ابن رشد قاضي قرطبة يومئذ من بينهم . وبعد انصراف الجميع قدّر أحد الشيوخ أن تكون هذه الريح ثانية الريح التي أهلك الله بها قوم عاد ، فانبرى ابن رشد ولم يتمالك ان قال : "والله وجود قوم عاد ما كان حقّا ، فكيف سبب هلاكهم ؟" فاغتنم أعداء ابن رشد هذه الزلّة فرصة لاعتباره زنديقا كافرا . أمّا رينان فرأى في قوله نقدا تاريخيّا(٣) . وثمّة سبب آخر دفع الى اضطهاد الفلاسفة . فالمنصور الذي اغتصب السلطة من هشام بن الحكم أتلف الكتب الفلسفية لأسباب براغماتية . لقد أدرك أنّ الأئمّة والناس لن يغفروا له هذا الاغتصاب إلّا إذا شغى غليلهم بأن يشاطرهم حقدهم على الدراسات العقليّة ، فأمر بجمع كتب الفلسفة والفلك من المكتبة التي عُني الحكم بجمعها ، ثمّ حرقها في ميادين قرطبة العامّة أو ألقى بها في آبار القصر . قال المؤرّخ سعيد الطليطلي :

> "عزا مؤرّخو العصر عمل المنصور هذا الى رغبته في الحظوة لدى العوامّ وفي إثارة أقلّ ما يكون من معارضة حين القائه ضربا من الغشاوة على ذكرى الخليفة الحكم الذي كان يحاول اغتصاب عرشه"(٤) .

١ــ Renan, Averroès, p.22-23 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ٤١ .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٤٦ وبالعربية ص ٦٢ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٢٢ وبالعربية ص ٤٠ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٥ ، وبالعربية ص ٢٦ .
إلّا أنّ هناك من يعتبر أن نفسيّة المنصور قد تغيّرت بالفعل ، فانصرف إلى الزهد وآثر مناهج المتصوّفين . ومنذ ذلك الوقت ضاق بتخريجات الفلاسفة وجدل المتكلّمين . راجع : كمال اليازجي ، معالم الفكر العربي في العصر الوسيط ، ص ٢٥٠ .

ويقول رينان إنّ ابن رشد لم يكن وحيدا في نكبته ، اذ تعرّض لمثلها كثير من العلماء والأطبّاء والفقهاء والقضاة والشعراء ، لأنّ الحزب الديني طرد الحزب الفلسفي من البلاطات(١) . وقد وكل المنصور إلى قريبه أبي بكر بن زهـر مهمّة جمع كتب المنطق والحكمة وتحقير المشتغلين بها . فقام هذا الفيلسوف بالأمر منقادا وقد نقل الوشاة إلى المنصور أنّ أبا بكر كان يعكف على دراسة الكتب المحظورة ، وانّه رغم المهمّة الموكولة إليه ، قال لإثنين من تلاميذه بعد أن طلب إليهما حفظ القرآن والاشتغال بالعلوم الدينية : " الآن صلحتم لأن تقرأوا هذا الكتاب [في المنطق] وأمثاله عليّ "(٢) .

غير أنّ محنة ابن رشد والفلاسفة لم تدم طويلا . ذلك أنّ المنصور لمّا رجع إلى المغرب الأقصى عاد عن الأحكام التي كان قد أصدرها في حقّ الفلاسفة وراح يهتمّ بالفلسفة من جديد . ثمّ دعا إليه ابن رشد ورفقاءه في المحنة وأوكل إلى أحدهم ، وهو أبو جعفر الذهبي ، مهمّة الاشراف على كتـب أطبّاء البلاط وفلاسفته(٣) . ولكن يبدو أنّ الفلسفة لم تتمتّع منذ ذلك الوقت إلّا بفترات قصيرة من الحرّية . ومع ذلك لم تؤد محاولات القضاء على الفلسفة في اسبانيا إلّا إلى انعاشها ، لأنّ الفلسفة — حسب تعبير رينان — ميـل تلقائي لا يكن قهره(٤) .

١ــ Renan, Averroès, p. 24 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ٤٢ .

٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٣ ، وبالعربية ، ص ٥٠ــ٥١ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٢٥ ، وبالعربية ، ص ٤٣ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ٦ــ٧ ، وبالعربية ، ص ٢٧ .

ولم يكن المنصور الوحيد الذي اضطهد الفلسفة. فالمستنجد أمر سنة ١١٥٠ بحرق جميع الكتب الفلسفيّة الموجودة في مكتبة أحد القضاة في بغداد، ولا سيّما كتب ابن سينا وموسوعة اخوان الصفاء[١].

وكثيرا ما اقترنت الفلسفة عند المسلمين بالإلحاد. فاختلفت آراء الكتّاب العرب حول صحّة تديّن ابن رشد. فابن الأبّار وابن أبي أصيبعة لا يشكّان في أمر تديّنه. أمّا الأنصاري وعبد الواحد وليون الافريقي فيذكرون أنّ لمعاصري هذا الفيلسوف أحكاما مختلفة حول صحّة عقائده الدينية. فمترجمه ليون الافريقي يؤكّد على وجود قصيدة كتبت بشكل محاورة يُثني فيها أحد المتحاورين على علم ابن رشد وفضائله بينما يعرضه الآخر كملحد. ويظهر أن صاحب هذا الرأي الأخير قد روى مغامرة ابن باجّه الذي كان والد ابن رشد قد أخرجه من السجن، فأضاف إلى ذلك قوله: " لم يكن هذا الأب ليعلم أنّ ابنه سيكون أعرق زندقة ذات يوم". إلّا أنّ الأنصاري يروي عن عبد الكبير، وكان من أهل التقوى، قوله إنّ هذه التهم لا تقوم على أساس وإنّه كان يرى الفيلسوف يخرج مرّات عديدة إلى الصلاة وأثر الوضوء عليه[٢].

ولقد عبّر ابن رشد بنفسه عن خوفه من البوح بفلسفته وذكر بعض ما لقيه من الاضطهاد، فروى انه دخل يوما على أمير المؤمنين أبي يعقوب وكان عنده ابن طفيل، فسأله أبو يعقوب: " ما رأي الفلاسفة في السماء، أقديمة هي أم محدثة؟ " وأضاف ابن رشد:

١ــ Renan, Averroès, p. 30، ورينان، ابن رشد، ص ٤٨.

٢ــ المصدر نفسه، ص ١٦٣ــ١٦٤، وبالعربية، ص ١٧٢ــ١٧٣.

"فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلّل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن طفيل، ففهم أمير المؤمنين منّي الرّوع والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلّم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنّها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرّغين له، ولم يزل يباسطني حتّى تكلّمت، فعرف ما عندي من ذلك، فلمّا انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنيّة ومركب"(١).

كما أنّ ابن رشد يصرّح في آخر شرحه الأوسط للطبيعيّات بأنّه لا غرض له غير التعبير عن رأي المشّائين، وذلك من غير أن يقول رأيه الخاصّ. ويتنصّل في آخر مقالته حول "اتّصال العقل المفارق بالإنسان" من مسؤولية ما تشتمل عليه من المذاهب. وقد اعتبر رينان أنّ الفيلسوف العربي قد أورد هذه الملاحظات ليكون أكثر حرّية في تفلسفه تحت ستار غيره. وقال إنّه يجب الاعتراف بأنّ هذا الأسلوب شائع كثيرا بين العرب(٢). كما أنّه رأى أنّ الرشدية انتهت إلى معنى يناقض معناها الحقيقي. فابن رشد الذي شرح المذهب المشّائي باستقلالية قد شُرح هو كذلك بتصرّف أكبر. ومن تحريف إلى تحريف انتهت فلسفة المشّائين إلى إنكار ما فوق الطبيعي والخوارق، وإنكار الملائكة والجنّ والتدخّل الإلهي، وتفسير الأديان والمعتقدات الأخلاقيّة بواسطة الخداع. والحقّ أنّ أرسطو وابن رشد لم يخطر في بالهما أنّ مذهبهما سينتهي إلى هذا ذات يوم(٣).

١ــ Renan, Averroès, p. 16، ورينان، ابن رشد، ص ٣٥.

٢ــ المصدر نفسه، ص ٥٧، وبالعربية، ص ٧٢.

٣ــ المصدر نفسه، ص ٤٣٢ــ٤٣٣، وبالعربية أيضا ص ٤٣٢ــ٤٣٣.

وقد تعرّض ابن رشد لمحن كثيرة كان أقساها طرد العامّة له مـــن المسجد لاعتباره كافرا ، يقول :

"إنّ أعظم ما طرأ عليّ في النكبة أنّي دخلت أنا وولدي عبد الله مسجدا بقرطبة وقد حانت صلاة العصر فثار بنا بعض سفلة العامّة فأخرجونا منه" (١) .

وفي آخر أيّامه عُزل عن الناس، وقد ذكر الذهبي في كلامه على سيرة ابن رشد

"ان شيخ الشيوخ تاج الدين سأل عن ابن رشد لما دخل البلاد فقيل إنّه مهجور في داره من جهة الخليفة يعقوب ولا يدخل أحد عليه ولا يخرج هو الى أحد فقيل لم قالوا رفعت عنه اقوال رديّة ونسب اليه كثـرة الاشتغال بالعلوم المهجورة من علوم الاوائل ومات وهو محبوس بداره بمراكش." (٢)

إنّ الاضطهاد الذي تعرّض له الفلاسفة في الأندلس قد جعل ابـــن رشد ، وهو أشهر مفكّري العرب في نظر اللاّتين ، مغمورا تماما لدى المسلمين. وإذا نظرنا إلى كتب التراجم العربية ، نجد أنّ كتابيّ الفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة قد أهملا تصانيف الفلاسفة ، وأنّ اسم ابن رشد لم يرد في كتاب حاجي خليفة إلاّ عرضا بينما أهمله تماما ابن خلّكان والصفدي ، كما أهمله جمال الدين القفطي في كتاب أخبار الحكماء مع أنّه أتى بعده بقرن

١ــ Renan, Averroès, p. 26، ورينان ، ابن رشد ، ص ٤٤ .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٤٥٨ ، وبالعربية ، ص ٤٥٢ .

واحد فقط . حتّى إنّ معاصري ابن رشد أنفسهم ما كانوا يعرفون بوجود كتابه الشرح الأكبر(١)، ولم تنتشر نسخ مؤلّفاته العربية إلّا على نطاق ضيّق جدّا بعد وفاته ولم تكد تخرج من الأندلس(٢).

ويضيف رينان انه يجب أيضا ألّا نبحث عن الرشدية عند المسلمين لأنّ من حاول تبنّيها منهم تعرّض للتنكيل . ففخر الدين الرازي الشهير أصابته في بغداد مكاره شبيهة بتلك التي حلّت بابن رشد بسبب آرائه الفلسفية . ويبدو أنّه كان من أتباع الفلسفة الحرّة التي أطلق اللاتين عليها اسم الرشدية بعد حين . لقد شرح الرازي أرسطو وابن سينا ووجدت في بيته بعد وفاته أشعار يتغنّى فيها بقدم العالم وتلاشي الفرد . ولمّا علمت العامّة بهذا الأمر نبشت رفاته وانتهكت حرمتها(٣).

ولم يكن ابن رشد الفيلسوف الوحيد الذي اضطهد . فأستاذه ابن باجّه اتُّهم بالإلحاد ووُضع في السجن ولم يخرج منه كما ذكرنا إلّا بنفوذ والد ابن رشد الذي كان قاضي الجماعة في ذلك الحين . واعتُبر ابن طفيل مؤسّس الإلحاد الفلسفي وأستاذ ابن رشد وابن ميمون في الزندقة . والفيلسوف عبد الملك بن وهيب الاشبيلي المعاصر لابن باجّه حظّر على نفسه كلّ حديث في الفلسفة لما فيه من خطر الهلاك، وأقبل على العلوم الشرعية . وكان هذا الخطر ماثلا بالفعل إذ قُتل ابن حبيب الاشبيلي لاشتغاله بالفلسفة . وأضاف رينان نقلا عن المؤرّخ المقّري الذي روى هذه الأخبار قوله عن الفلسفة :

١ــ Renan, Averroès, p.36-37، ورينان، ابن رشد، ص ٥٣ .

٢ــ المصدر نفسه، ص ٧٩، وبالعربية، ص ٩٤ .

٣ــ المصدر نفسه، ص ٤٠، وبالعربية ص ٥٦ .

" وهذا العلم ممقوت بالاندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره، فلذلك تخفى تصانيفه ... وكان مُطرِّف الاشبيلي فـــي عصرنا قد اشتغل بالتصنيف في هذا الشأن، فكان لا يُظهر شيئا ممّا يصنّف" (١) .

ومن الأخبار التي تؤكّد قلق الفلاسفة وخوفهم من البحث في المسائل الفلسفية علانية أنّ فريديريك الثاني (٢) الذي كان مغرما بالعرب وكان بلاطه مركزا نشطا للثقافة العربية قد أرسل إلى علماء البلاد الإسلامية سلسلة من الأسئلة الفلسفية طالبا الإجابة عنها . فما كان من ابن سبعين (١٢١٦ — ١٢٧٠)، أشهر فلاسفة المغرب واسبانيا آنذاك، إلّا أن طلب من فريديريك الثاني وضع أسئلته بشكل أكثر غموضا، وقال:

" وذلك لأنه عند الكلام في مثل هذه المسائل في هذا البلد تكون الاذهان أحدّ من السيف والمقصّ... ولـو أيقن علماؤنا أنني أجبت عن أقسام من أسئلتك لنظروا إليّ بالعين التي ينظرون بها الى هذه الأسئلة، ولا أدري هل أفلت من ايديهم بفضل الله وقدرته" (٣) .

ويعتقد رينان أنّ ثمّة أسبابا أسهمت في وجود الفلسفة العربية كما أنّ ثمّة ظروفا قد حالت دون رعاية المسلمين لهذه الفلسفة . ففي الأندلس، كان العرب يشعرون بميل الى الدراسات الحرّة حتّى قبل حكم الخليفة الحَكَم (٤) .

١— Renan, Averroès, p.31-32 ، ورينان، ابن رشد، ص٤٩—٥٠ .

٢— Frédéric II (١١٩٤— ١٢٥٠) . هو ملك صقلّية. اشتهر بشغفه بالعلوم العربية واتّصاله بمشاهير عصره من المجدّدين في الفلسفة والتاريخ والمعارف العامّة .

٣— Renan, Averroès, pp.286-289 ، ورينان، ابن رشد، صص ٢٩٥—٢٩٨ .

٤— هو الحكم الثاني (٩٦١—٩٧٦ م) الخليفة الأموي التاسع في الأندلس. عُرف بتشجيعه للعلوم .

ويرجع رينان هذا الميل إمّا إلى جمال الأندلس وإمّا الى صلات العرب المستمرّة باليهود والنصارى . ثمّ نمت أيام الحَكَم حركة أدبيّة تُعدّ من ألمع ما نشأ في القرون الوسطى . ولقد خلق هذا الميل نحو العلم في تلك البقعة الرائعة من العالم تسامحا تكاد الأزمنة الحديثة تعجز عن الإتيان بمثله . ذلك أنّ النصارى واليهود والمسلمين كانوا يتعلّمون لغة واحدة هي العربية وينشدون الأشعار نفسها ويشتركون في المباحث الأدبية والعلمية عينها . وقد زالت جميع الحواجز التي تفصل الناس بعضهم عن بعض، وكان الجميع متّفقين على العمل الجدّي في حقل الحضارة المشتركة . وغدت مساجد قرطبة التي حوت آلاف الطلّاب مراكز تفاعل للدراسات الفلسفية والعلمية . وكانت الكتب التي تؤلّف في فارس والشام غالبا ما تُعرف في الأندلس قبل أن تُعرف في المشرق . وقد أرسل الحَكَم ألف دينار من الذهب الخالص الى أبي الفرج الأصفهاني ليبعث إليه النسخة الأولى من كتابه "الأغاني" . وفي الواقع، جرت قراءة هذا الأثر النفيس في الأندلس قبل ان تتمّ في العراق . وقد عيّن الحَكَم وكلاء في القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية ليجمعوا له المؤلّفات العلمية، القديم منها والحديث، بأيّ ثمن كان . ويُروى أنّ عدد المجلّدات الموجودة لديه بلغ أربعمئة ألف مجلّد .

ولكن لم يكد يمضي على الفلسفة العربية الأندلسية قرنان من الزمن حتّى برز التعصّب الديني إن في الأندلس نفسها أو في المشرق، فهدم هذا التعصّب ما بناه الحَكَم في الأندلس . وقد رأى علماء الكلام في المشرق أن لا سبيل إلى نجاة المأمون من عقاب الآخرة لأنّه زعزع التقوى في الإسلام بإدخاله فلسفة اليونان . إنّ عصر الحَكَم الذهبي لم يُبرز للتاريخ أي فيلسوف مشهور . فابن باجّه وابن طفيل وابن زهر وابن رشد الذين أزعجهم التعصّب لم يشتهروا بين قومهم بل دخلوا على العكس مجرى الحياة الأوروبّية، أي "حياة

البشرية الحقيقية" حسب تعبير رينان(١) . فالمسلمون العرب لم يتقبّلوا الفلسفة العربية ، إنّما اليهود هم الذين تقبّلوها فأخذوها على محمل الجدّ ونقلوها الى العبرية(٢) . إنّ الفلسفة بعد ابن رشد قد فقدت مكانتها كلّها بين العرب واستمرّ هذا الفيلسوف ، كما الفلسفة العربية ، لدى اليهود في مدرسة موسى بن ميمون . إلّا أنّ المسلمين حكموا على هذا الفيلسوف اليهودي أيضا بأحكام قاسية . فالمقريزي (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢) قال عنه إنّه يجعل من أبناء دينه معطّلين وإنّ مذهبه هو الأبعد عن الأديان السماوية(٣) .

ولكن لم تفجّرت هذه العداوة بين الدين الإسلامي والفلسفة وما أبرز مظاهرها ؟ كان علماء الدين المسلمون يعتبرون أنّ كلّ علم عقلي مريب لأنّه يعلّم الاستغناء عن الوحي . وقال خصوم الفلسفة العربية إنّ هذه العلوم كانت تؤدّي الى الاعتقاد بواجب الوجود وقِدَم العالم ، وإنكار البعث ويوم الحساب ، والحياة بلا وازع واتّباع الهوى . وكان الفلاسفة يُعَدّون غير أتقياء بصورة عامّة . فابن سينا كان داعرا جهرا ويشرب الخمر على نمط الشعراء في زمن النبي محمّد . ولمّا قيل له إنّ الخمر محرّمة قال : " إنّما نُهي عن الخمر لأنّها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتي محترز عن ذلك ، وإنّي أقصد به تشحيذ خاطري" . ولذا كان فلاسفة العرب بين المسلمين مثل ملحدي القرن السابع عشر تقريبا . وينقل رينان عن الغزالي قوله عن الفلاسفة العرب في "المنقذ من الضلال" :

١ــ Renan, Averroès, pp. 2-7 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ص ٢٤ــ٢٧ .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ١٧٣ ، وبالعربية ، ص ١٨٥ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٤١ــ٤٢ ، وبالعربية ، ص ٥٧ .

" وربّما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ، ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظّم الشريعة بلسانه ، ولكنّه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعا من الفسق والفجور ، وإذا قيل له: إذا كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلي؟ فربما يقول : لرياضة الجسد ولعادة أهل البلد وحفظ المال والولد " (١) .

ويعترف رينان أنّ العلم العقلي كان يسوق المسلمين غالبا إلى نوع من المادّية matérialisme . وكان من بين الفلاسفة أولئك الحشّاشون المرعبون الذين كانوا يلقون الهلع في قلوب الملوك والخلفاء بواسطة الفدائيين المأجورين . وكانوا إذا انزووا في قلعة ألَمُوت Alamout (٢) قضوا أوقاتهم في تأليف رسائل في الفلسفة . ولمّا دخل التتر" وكر عقابهم nid de vantour " وجدوا فيه معهدا علميّا كاملا ومكتبة رحبة وقاعة للطبيعيّات ومرصدا مجهّزا بأكثر الآلات إتقانا (٣) . ويعتبر رينان أنّ معظم الفلاسفة العرب كانوا ملحدين أو غير مؤمنين وأنّ ابن رشد كان عقلانيّا محضا . ففي كلّ مرّة يطّلع المسلمون على العلوم الدخيلة يتخلّون عن دينهم ويصبحون من أصحاب البدع . وهذا ما حدث عندما درس المسلمون العلم والفلسفة اليونانيّين في الماضي ، وهذا ما يحدث اليوم وهم يدرسون العلم الأوروبّي (٤) . وفي كلّ مرّة كان المسلمون المتعصّبون يقاومون هذه العلوم . ولقد نجحوا في الماضي في كبت الحركة الفلسفية لأنّ عدد الفلاسفة

١ــ Renan, Averroès, p.171-172 ، ورينان ، ابن رشد ، ص ١٧٩ــ١٨٠ .

٢ــ أي وكر العقاب ، وهو قلعة حصينة تقع شمالي شرقي قزوين من بلاد فارس ، أقام فيها زعماء الحشّاشين بين عام ١٠٩٠ وعام ١٢٥٦ .

٣ــ Renan, Averroès p.171-172 ، ورينان ، ابن رشد ، ص١٧٩ــ ١٨٠ .

٤ــ Renan, Avenir, p.497,n. 20

كان قليلا وتأثيرهم ضعيفا فلم يستطيعوا ترجيح كفّة الميزان إلى جانبهم كما كما حدث في أوروبّا . أمّا في القرن التاسع عشر فيتوقّع رينان أن تخفّ وطأة الإسلام بتأثير العلم الأوروبّي وحده . ذلك أنّ شباب الشرق يأتون إلـــى مدارس الغرب فينهلون من العلم الأوروبّي ويحملون معهم النتائج الطبيعيّة الملازمة له ، أي الطريقة العقلانية والفكر التجريبي ومعنى الحقيقي واستحالة الاعتقـاد بتقاليد دينيّة مسلّم بها بعيدا عن كلّ نقد . وهذا ما جعل المسلمين المتصلّبين يبدون قلقهـم ويحذّرون الشباب المهاجر من الخطر . ويذكر رينان على سبيل المثال الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ـ١٨٧٣) الذي اعتبـر بعد عودته من باريس الى مصر أنّ العلم الأوروبّي هو بدعة ، وخصوصا في ما يتعلّق بمبدأ استمرار قوانين الطبيعة ، وأنّه يتضمّن اخطاء مؤسفة مثل الكلام على حركة دوران الأرض . ويتفهّم رينان رأي الطهطاوي الكاتب المسلم لأنّ أي عقيدة موحى بها هي دوما مواجهة للبحث الحر إذ هو يستطيع مناقضتها . فنتيجة العلم هي إبعاد الإلهي دوما عن عالم الوقائع الخاصّة التي يعتقـد انه موجود فيها . إنّ التجربة تقصي الخوارق وتضيّق نطاقها ، غير أنّ هـذه الخوارق هي أساس كلّ دين . لقد نجح الإسلام في قتل العلم ، ولكنّه بقتله قتل ذاته أيضا وحكم على نفسه بالتخلّف التام في العالم . ويذهب رينان إلى القول بأنّ هذه الأفكار العلمية ستصبح أقوى من القرآن في عقول مطّلعة على الأساليب الحديثة . إنّ هذه الثورة سيقوم بها العلم الأوروبّي الذي لا يحمل طابعا وطنيّا معيّنا بل هو عمل صاف يقوم به الفكر الانساني (١) .

١ـ Renan, Avenir, p. 50; l'Islamisme, p. 20

ويرى رينان أنّ الإسلام منذ نشوئه قد اضطهد العلم والفلسفة لأسباب دينيّة وسياسيّة وإثنيّة . إلّا أنه يميّز بين مرحلتين في تاريخه : المرحلة الأولى تستمرّ حتّى القرن الثاني عشر ، والمرحلة الثانية تبدأ منذ القرن الثالث عشر وتستمرّ حتّى أيّامه . في المرحلة الأولى لم يكن المسلمون متعصّبين ، ويُرجع رينان هذا الموقف الى سببين متمايزين . فهو مرّة يعتبر أنّ عدم تعصّبهم يعود الى اعتدال المعتزلة الموجودين بينهم ، ومرّة أخرى يرى أنّ العرق العربي هو غير متعصّب لأنّه مشكّك . فأصحاب النبي كان ايمانهم ضعيفا برسالته فوق الطبيعية ، واستمرّ الشكّ مدفوعا إلى أقصى حدوده ، في القرون الستّة الأولى للهجرة . ولم يصبح المسلمون متعصّبين إلّا في المرحلة الثانية عندما أفلت الإسلام بالتدرّج من سلطان العرق العربي ووقع في قبضة عروق توّاقة إلى التعصّب مثل الإسبان والبربر والفرس والأتراك . وعندها سلك الإسلام سبيلا عقائديّا صارما ومتحيّزا ، وجاء حكم العقيدة المطلق دون أيّ فصل ممكن بين الروحي والزمني . فأصاب الإسلام ما أصاب الكاثوليكيّة في اسبانيا زمن محاكم التفتيش الدينية وما كان يصيب أوروبّا كلّها لو تمكّن الارتداد الديني في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر من إخماد كلّ تقدّم عقلي . لقد شُنّت منذ أواخر القرن الثاني عشر حرب على الفلسفة في العالم الإسلامي كلّه ، وقام علماء الكلام ، الأشعريّون منهم خصوصا ، بردّة فعل ليستعيدوا عن طريق البرهان والقوّة ما فقدوه سابقا . ومنذ ذلك الوقت ، أي حوالي سنة ١٢٠٠ ، انتصر الإسلام السنّي بعد قضائه على الفلسفة قضاء نهائيّا ، وما عاد الكتّاب والمؤرّخون يتحدّثون عن الفلسفة إلّا كذكرى سيّئة . وأُتلفت المخطوطات الفلسفية فصارت نادرة ، وعلم الفلك لم يُسمح الإشتغال به إلّا في ما يتعلّق بتحديد وجهة الصلاة[١] .

١ــ Renan, l'Islamisme , p.14-17; Averroès, p. 29-30 ورينان ، ابن رشد ، ص ٤٧ . Mahomet, p. 23.

ويرفض رينان الاعتراف بأنّ الإسلام كان رحبا سموحا إذ حضن الفلسفة والعلم بين ربوعه . فهو يعتبر أنّ الحركة العلمية جرت رغما عنه وضدّه . إلّا أنّ هذا الدين تحمّل الفلسفة في النصف الأوّل من العصر الوسيط لأنّه لم يستطع أن يقف في وجهها . وهو لم يقو على منعها لأنّه لم يكن متّحدا ولا مستعدّا للأخذ بأساليب التنكيل . فالشرطة كانت بيد النصارى(١) وكانت منشغلة بملاحقة تحرّكات العلويّين . إلّا أنّ الإسلام خنق كلّ شيء عندما توافرت له جموع غفيرة متحمّسة في إيمانها . فالإسلام كان متسامحا عندما كان ضعيفا، وغدا عنيفا عندما قوي . أن نمنحه شرف الفلسفة والعلم اللّذين أحجم عن إفنائهما بادئ الأمر هو كأن نمنح اللّاهوتيّين شرف اكتشاف العلوم الحديثة في حين أنّ هذه العلوم قد تمّت رغما عنهم، أو كأن نمنح الكاثوليكيّة شرف وجود غليله، مع أنّ الدين أزعجه وحال دون بلوغه أقصى أهدافه . ولكنّ الدين لم يكن قويّا بما فيه الكفاية حتّى يوقف عمل ذلك العالِم(٢) .

ويرى رينان أنّ التعصّب الإسلامي لم يزل فاعلا حتّى اليوم . فهو عندما كان يقوم برحلته الأثريّة إلى فينيقيا أراد زيارة جامع الخليل وأقبيته التي يعتبرها المسلمون أماكن مقدّسة . وكان أهل الخليل وأهل القدس المتعصّبون يعتبرون دخول أي مسيحي هذه الأماكن مسّا بمقدّساتهم . إلّا أنّ رينان أصرّ على دخولها وحصل من الحاكم العثماني فؤاد باشا على الأوامر اللّازمة كي يستطيع تحقيق أمنيّته . غير أنّ باشا القدس، ورغم اعترافه بشرعية أوامر فؤاد باشا، قال إنّ هذه الأوامر لا يمكن أن تُنفّذ دون حراسة عسكريّة . فاستغرب رينان عجز الحكومة في بلد يخضع لها وقال : لو أنّ البابويّة

١ــ قول رينان هذا يدعو الى الاستغراب لأنّ الشرطة لم تكن في أي فترة من فترات الحكم الاسلامي ــ حسب علمنا ــ بيد النصارى . فهي كانت حتّى عهد المعتصم (٨٣٣ــ٨٤٢م) بيد الفرس والعرب، ثمّ صارت بعده بيد الأتراك .

٢ــ Renan, l'Islamisme, pp. 17 - 19

منعت علماء بروتستانت من زيارة أماكن مقدّسة في روما لها أهمّية علميّة ، لاحتجّت أوروبّا كلّها على هذا الأمر . إنّ التعصّب الإسلامي ينعم بوضع مميّز يجب منعه من التمتّع به[١] .

ومع ذلك ذهب رينان الى أنّ الإسلام لم يكن الدين الوحيد الذي اضطهد العلم والفلسفة ، فتحدّث عن تعرّضهما أيضا لاضطّهاد الديانتين المسيحية واليهودية . وسنكتفي هاهنا بعرض سريع لما قاله في هذا الموضوع لأنّ الخوض في تفصيلاته يتعدّى النطاق الذي يتّسع له هذا البحث . ويمكن تلخيص رأي رينان في هذا الشأن بأنّ اليهود في الأندلس قد أبدوا ارتياحهم للفتح العربي فصرفوا همّهم إلى العلوم وإلى الفلسفة العربية[٢] متأثّرين بالمشّائية الرشدية . وقد بقيت مدرسة الفيلسوف اليهودي ابن ميمون وفيّة لهذه المشّائية التي تمكنت من الانتصار على اللّاهوت اليهودي في النصف الثاني من العصر الوسيط . غير أنّ اللّاهوتيّين اليهود لم يلبثوا أن استعادوا مكانتهم في القرن السادس عشر وتمكّنوا من القضاء على المشّائيّة الرشدية[٣] .

أمّا المسيحيّون ، فقد أسهب رينان في الكلام على موقفهم العدائي من العلم والفلسفة . وممّا ذكره في هذا الصدد أنّ مسيحيّ أوروبّا ، ولا سيّما الإيطاليين الذين استعانوا بشروح ابن رشد فترة طويلة ، قد قاموا بردة فعل عنيفة على الفلسفة العربية عموما وعلى فلسفة ابن رشد بصورة خاصّة . فاعتبره

---

١ — Renan, Mission, p. 804-805

٢ — Renan, Averroès, pp.173-175، ورينان ، ابن رشد ، ص ١٨٥—١٨٦ .

٣ — المصدر نفسه ، ص ١٨٢—١٨٣ وص ١٩٨ ، وبالعربية ص ١٩٣—١٩٤ وص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

بعضهم ملحدا ، وهذا ما ذهب اليه دوبليسي مورناي Duplessis - Mornay (١) وفوسيوس Vossius (٢) . ولم يتردّد بترارك في أن يطلق عليه صفة "الكلب المسعور" (٣) . وصار ابن رشد يُعتبر ممثّل تيّار التعرّب Arabisme الملحد (٤) . وقام رجال الدين المسيحيون، ومنهم اتيان تانپييه Étienne Tempier (٥) والبابا يوحنّا الحادي والعشرون (١٢٢٠ ـ ١٢٧٧) بملاحقة مذهبه قانونيّا (٦) . واعتبر رينان أنّ القديس توما (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) كان من أخطر الأوروبيّين الذيـــن حاربوا ابن رشد والرشدية (٧) . أمّا ريمون لول Raymond Lulle (٨) فإنّ حملته الصليبيّة على الرشدية لم تكن مقصودة لذاتها بل كان دافعه

١ــ Duplessis- Mornay (١٥٤٩ــ ١٦٢٣) . من مشاهير البنّائيـن الأحرار الإنجيليّين .

٢ــ G.J. Vossius كاتب هولندي (١٥٧٧ــ ١٦٤٩) . قام بدراسات تربوية ودينية .

٣ــ Renan, Averroès, p.337، ورينان ، ابن رشد ، ص ٣٤٥ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ١٦٤ ، وبالعربية ص ١٧٣ .

٥ــ Étienne Tempier (١٢١٠ ــ ١٢٧٩) كان قيّما على نوتردام في باريس ومدير الجامعة فيها (١٢٦٣) . ثمّ ترقّى فصار أسقفا لباريس (١٢٦٨) وكان له أثر بليغ في النظريات الفلسفية الشائعة في عصره ، ولا سيّما تلك التي حاربت فلسفة ابن رشد .

٦ــ Renan, Averroès, p. 267; pp.273-275
ورينان ، ابن رشد ، ص ٢٧٨ ، وص ٢٨٣ــ٢٨٤ .

٧ــ المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ــ ٢٤٠ ، وبالعربية ، ص ٢٥١ .

٨ــ Raymond Lulle . لاهوتي إسباني (١٢٣٣ــ ١٣١٥) . تزهّد في حياته ودرس العربية وأنشأ ديرا لإعداد مبشّرين لإفريقيا . كان له أثر عميق في شيوع المباحث الإسلامية ، وفي التصدّي لمضامينها .

إليها كرهه للاسلام(١) . وحتّى الرسّامون فإنّهم أصبحوا، ابتداء من القرن الرابع عشر، يعبّرون في لوحاتهم عن الإحتقار الذي كان معظم الأوروبّيين يكنّونه لابن رشد . وقد تمّ عرض هذه اللّوحات في كنائس پيزا وفلورنسا(٢).

إلّا أنّ رينان يميّز بين اضطهاد المسيحية للعلم واضطهاد الإسلام له. فمع أنّ اللّاهوت الغربي لم يكن أقل اضطهادا للعلم من الإسلام، فإنّ تصدّيه له لم ينجح في سحق الفكر الحديث . إنّ الاضطهاد الديني في الغرب لم ينجح إلّا في بلد واحد هو اسبانيا، حيث استطاع نظام مخيف أن يقمع الفكر العلمي . أمّا الإسلام فقضى على فكر البلدان التي فتحها. وقد حدث فيها ما كان سيحدث في أوروبّا كلّها لو نجحت " التحقيقات " التعسّفية وفيليب الثاني Philippe II (٣) وپيّوس الخامس Pie V (٤) في إيقاف الفكر البشري(٥) . إنّ الفصل بين السلطتين الدينية والدنيوية الذي تحقّق في الغرب قد منح للعلم الحرّية في حين أنّ هذا الفصل لن يتحقّق في البلدان الإسلاميّة في اعتقاد رينان، ولذا فسيستمرّ العلم فيها أسير الدين .

١ــ Renan, Averroès, p.255- 256 ، ورينان، ابن رشد، ص ٢٦٧ .

٢ــ المصدر نفسه، ص ص ٣٠٢ــ ٣٠٩ و ص ٣١٤ ، وبالعربية، ص ص ٣١١ــ ٣١٧ و ص ٣٢١ .

٣ــ Philippe II (١٥٢٧ــ ١٥٩٨) . تولّى الحكم في اسبانيا وفي البرتغال . تعصّب للكاثوليكية تعصّبا شديدا وقاوم كلّ من لم يؤيّده في موقفه . اضطهد الإنجيليّين والنزعات التحرّرية .

٤ــ Pie V (١٥٠٤ــ ١٥٧٢) . تولّى البابويّة من عام ١٥٦٦ إلى عام ١٥٧٢ . أظهر تشدّدا في محاربة التجديد في الدين والفكر، واشترك في المحاكم الدينية وطبّق قرارات مجمع ترانت الديني بصرامة . ألّف "العصبة المسيحية" لمحاربة الأتراك .

٥ــ Renan, l'Islamisme, pp.17-19.

٥ـ العلمنة عند رينان وارتباطها بمفهومه للقوميّات

أ ـ العلمنة

رأى رينان أنّ العلم والدين متناقضان وأنّ الإنسان لا يستطيع أن يخدم سيّدين في آن ، وقال : إنّ الحبّ الصافي الذي أكنّه للعلم قد دفعني إلى أن أقطع الصلات بكلّ ايمان رؤيويّ . لقد أحسست أنّني ، ما إن أعلنت أنّ العقل هو سيّدي الأوحد ، حتّى مكّنت وضع العلم والفلسفة في نفسي . وأضاف أنّه وإن بدا كڤولتير مجادلا عنيدا في أمور الدين ، فهو يقوم بذلك احتراما للمسائل الروحيّة[١] . إنّ الإيمان يعيق حرّية البحث[٢] ، كما أنّ المعتقدات الدينية من ناحية أخرى يجب أن تبقى بمأمن من النتائج التي قد يتوصّل إليها العلم بواسطة الإستقصاء[٣] . الحرّية ضرورية من أجل تطوّر الفكر ، والعلمنة هي التي تحقّق للعلم الحرّية .

واعتبر رينان أنّ الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام لم تدع في الأساس الى قيام دول دينيّة . ولكنّ ممارسات المسيحيّين والمسلمين هي التي أدّت إلى الربط بين الدين والعلم ممّا أساء إلى كلّ من المسيحيّة والإسلام وإلى العلم . فمن الأسباب التي أسهمت في تفوّق

١ـ Renan, Avenir, p. 42-43

٢ـ Renan, Souvenirs, Préface, p. 15

٣ـ Renan, Langues Sémitiques, p. 475

الشعب اليهودي دينيّا معارضة أنبياء اسرائيل كلّ تنظيم سياسي[١] . ومنذ أن وُجدت أسفار موسى الخمسة لم يعد لاسرائيل وطن سوى شريعة موسى . فنتائج هذا القانون اجتماعية لا سياسيّة ، والشعب اليهودي يعمل من أجل مملكة الله لا من أجل جمهوريّة مدنيّة . إنّه يهدف إلى تحقيق مؤسّسة عالمية لا إلى تحقيق جنسيّة أو وطن[٢] . لقد كانت الثيوقراطية اليهوديّة غريبة تماما عن فكرة الدولة ، فهي رفضت المجتمع المدني وأي حكومة تنشأ عنه ، كما اعتبرت أموال الصناديق العامّة مالا مسروقا[٣] . وكان اليهود يعتبرون مهنة جباة الضرائب مهنة إجراميّة . ودعاة الشريعة كانوا يكرهونهم ولا يذكرونهم إلّا مع القتلة وقطّاع الطرق ، لذا عاش هؤلاء على هامش المجتمع ولم يكونوا يلتقون إلّا في ما بينهم . لقد اعتبر اليهود مفهوم الضريبة الذي كان جديدا بالنسبة إليهم علامة خضوع[٤] . وذهب رينان في محاضرة ألقاها عن اليهوديّة إلى أنّه يحلم بأن يحمل الجميع إلى القدس ، التي اعتبرها معبد اليهود ، ثراث هذا الشعب المبدّد . غير أنّ اليهود مثاليّون قبل كلّ شيء ومعبدهم الحقيقي هو التوراة[٥] . وكأنّه يريد القول إنّ هذا الشعب لا يطمح إلى تأسيس وطن يحتلّ حيّزا جغرافيّا . ومع هذا ، فقد تنبأ بأنّ معركة العالم ستدور حول أورشليم[٦] !

١ــ Renan, Vie, p. 7

٢ــ المصدر نفسه ، ص ١٠ــ١١ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٦٢ــ٦٣ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص١٦٧ــ ١٦٨ .

٥ــ Renan, Judaïsme, p.25-26

٦ــ راجع الصفحة ٤٩ من هذا البحث .

يقول رينان إنّ الاسرائيلي كان يعتقد أنّ دينه هو الأفضل وأنّ دين الله الحقيقي قد وضع له وحده[١] . وجاء المسيح فأعلن أنّ للناس جميعا الحقّ في أن يشاركوا في مملكة الله . وصار الدين منفصلا عن الدولة ، وتمّ تأليف سلطة جديدة هي "السلطة الروحية"[٢] . ويضيف رينان أنّ المسيح كان غوضويّا في بعض النواحي إذ لم يكن يملك أيّة فكرة عن الحكم المدني الذي بدا بالنسبة إليه ظلما ، فتكلّم فيه بتعابير مبهمة كما يتكلّم إنسان لا فكرة له عن السياسة . كلّ حاكم هو عدو طبيعي لرجال الله . وفكرة المقاومة المسلّحة لم تخطر يوما في باله . لقد آمن أنّ القدرة الكلّية toute-puissance تكمن في التألّم والإذعان وصفاء القلب . لم يكن المسيح روحانيا بل كان مثاليا كاملا[٣] . وهو عندما أهمل السياسة أظهر للعالم أنّ الوطن ليس كلّ شيء ، وأنّ الإنسان أقدم من المواطن وأرفع منه منزلة[٤] . اعتزم القيام بثورة أخلاقيّة جذريّة ، فترك السياسة ولم يفكّر أبدا بالثورة على الرومان. لذا خضع للسلطات خضوعا خارجيّا تامّا ودفع الضريبة لقيصر حتّى لا يثير الإستنكار. فهو يعتبر أنّ الحقّ والحرّية ليسا من هذا العالم ، فلمَ نعكّر حياتنا من أجلهما؟[٥] لقد حاول الفرّيسيّون جاهدين أن يدفعوا المسيح إلى

١ــ Renan, Vie, p. 13

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٤٥٥ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٣١ــ١٣٢ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .

٥ــ المصدر نفسه ، ص ١٢٣ــ ١٢٤ .

التدخّل في المسائل السياسية وحثّوه على الإنخراط في حزب يهوذا الجليلي Juda le Gaulonite ، بعدما استطاع بسذاجته أن يتحاشى الخلاف مع السلطة الرومانية رغم مناداته بمملكة اللّه . وقد أراد الفرّيسيون تبديد الغموض في موقفه وإجباره على الإفصاح . فجاءته يوما مجموعة منهم ومن السياسيّين الذين يسمّون هيروديّين وقالوا له تحت ستار من الحماسة والورع : يامعلّم ، نعرف انك صادق تعلّم بالحقّ طريق اللّه ولا تبالي بأحد ، فقل لنا هل يحلّ لنا أن ندفع الجزية للقيصر أم لا؟ وكانوا يأملون بسؤالهم هذا الحصول على جواب يسوّغ لهم تسليمه إلى بيلاطس . ويقول رينان : فأتى جوابه رائعا ، اذ طلب رؤية الصورة المحفورة على النقد ، وعندما رأى صورة القيصر قال لهم : "أعطوا لقيصر ما لقيصر ، وللّه ما للّه" (١) . ويضيف : هذه الكلمة العميقة قرّرت مستقبل المسيحيّة . لقد اشتملت على روحانية ناجزة ودقّة رائعة أسّست الفصل بين الروحي والزمني ووضعت أسس التحرّرية والحضارة الحقيقيّتين (٢) . بهذه الكلمة خلق المسيح شيئا ما غريبا عن السياسة وبنى ملجأ للنفوس وسط امبراطورية القوة الوحشيّة . غير أنّ هذه العقيدة تنطوي كذلك على مخاطر . فالمبدأ القائل إنّ التعرّف إلى السلطة الشرعيّة يكون بالنظر إلى النقود والتصريح بأنّ الإنسان الكامل يدفع الضريبة دون نقاش ، كلّ هذا دمّر الجمهوريّة القديمة ، أي اليونانيّة الديمقراطيّة ، وعزّز كلّ أنواع الإستبداد . فالمسيحيّة بهذا المعنى قد أسهمت كثيرا في إضعاف الحسّ بالواجب لدى المواطن وفي التسليم التامّ لسلطة الأمر الواقع المطلقة . إلّا أنّ المسيحيّة

١ــ متّى ٢٢: ١٦ و ١٧ و ٢١ .
يقول رينان في هذا الموضع إنّ المسيح هو الذي تفوّه بهذه العبارة . غير أنّه يبدي شكّه في الهامش في أن يكون المسيح قائلها بالفعل . أنظر الصفحة ٨٠ من هذا البحث .

٢ــ Renan, Vie, p. 360 - 361

التي لم تتعاط السياسة خلال ثلاثمئة سنة استطاعت بالمقابل أن تجعل سلطة الدولة مقصورة على الأمور الأرضيّة ، وأطلقت قيد الفكر ، أو هي على الأقلّ كسرت حدّة التسلّط الروماني (١) . ورينان لا يعتقد مطلقا أنّ المسيح كان ينوي تعيين قائد معيّن "لكنيسته" . حتّى إنّه يشكّ في أن تكون فكرة " الكنيسة" نفسها ، كما ظهرت في ما بعد ، قد خطرت في ذهن مؤسّس المسيحيّة . فكلمة " مجلس الشعب" Ecclésia لم تظهر إلّا في الإنجيل المنسوب إلى القدّيس متّى . كما رفض رينان تماما فكرة أن يكون المسيح قد أسّس البابويّة ، أي أن تكون الكنيسة ملكيّة (٢) . فالمسيح نفسه قد رفض أن يجعله أهل الجليل ملكا فهرب إلى الجبل حيث أمضى مدّة من الزمن وحيدا (٣) . وهكذا بيّن رينان أنّ المسيحيّة في الأساس لا علاقة لها بالحكم او الدولة . وقال إنّ هذه الديانة لم تصبح دين دولة إلّا في القرن الثالث في ظلّ حكم قسطنطين (٤) . ثمّ تحوّل المطارنة إلى أمراء والبابا صار ملكا . وأضحت المملكة حكومة طغيان مخيفة تستخدم أساليب التعذيب من أجل المحافظة على نفسها (٥) . فرجال الاكليروس

---

١ — Renan, Vie, p.126-127

٢ — Renan, Oeuvres Complètes, VII, p. 268

٣ — Renan, Vie, p. 124 ؛ يوحنا ٦ : ١٥ .

٤ — Renan, Judaïsme, p. 19
الواقع أن قسطنطين الأوّل الكبير (٢٨٠ — ٣٣٧) لم يصبح امبراطورا حاكما لروما الّا في أوائل القرن الرابع ، وكان ذلك منذ سنة ٣٠٦ وحتّى سنة ٣٣٧ . وهو قد اعتبر ان الكنيسة تشكّل إحدى أهمّ دعائم الدولة ، كما تدخّل هو مباشرة في المسائل الدينيّة . جعل من القسطنطينية روما جديدة . واتّخذت الامبراطورية في عهده شكل ملكيّة مستندة إلى الحقّ الإلهي .

٥ — Renan, Vie, p. 455- 456

المتعصّبون حرّضوا السلطة المدنيّة على اضطهاد الناس فأصدرت أحكاما بالموت ، وسلّم ملك اسبانيا إلى المحرقة مئات من رعاياه ليكسب رضى رجال الدين[١] . وتفاقم قمع الكنيسة بانحسار سيطرتها الشرعيّة . فاضطهاد المحكمة الدينية لم يصبح شيئا مرعبا إلّا في القرن السادس عشر عندما انهزمت الكنيسة أمام الإصلاح الديني الذي قام به لوثر . فكلّما اضطرّ الحكم إلى استعمال العنف كي يبقى قائما أصبحت سلطته غير شرعيّة . وفي المقابل ، فإنّ لويس الرابع عشر (١٦٣٨ـ ١٧١٥) الذي كانت سيادته شرعية ومقبولة لم يلجأ إلى أيّ عنف للحفاظ على سلطته المطلقة[٢] . وفي عهد هذا الملك لم يعد الدين يستطيع أن يستوعب أمور الحياة فصار يلعن كلّ ما لا يستطيع استيعابه وبدأ النسّاك يدعون الى الزهد . وحلّت الحياة الدنيوية محلّ الحياة الدينيّة وأصبحت الاكتشافات والأفكار الجديدة شغل الناس الشاغل . فأبعد رجال القرن الثامن عشر باسم الدين الإستبداد الكهنوتي والمعتقدات الباطلة . غير أنّ رينان يرى أنّهم بالغوا في ردّة فعلهم فغاب اللّون الديني عن ذلك القرن . وثبّت الفلاسفة أنفسهم ، دونما شعور منهم ، أقوال خصومهم فافترضوا أنّ علمنة الحياة تقتضي حذف كلّ عادة دينية . أمّا رينان فاعتبر أنّ قانون فرنسا الملحد هو عيب مؤقّت ، ودعا إلى الإيمان بدين الفكر قائلا إنّ الحكيم ليس بحاجة إلى أوقات معيّنة للصلاة اذ إنّ حياته كلّها صلاة[٣] .

١ـ Renan, Vie, p. 423

٢ـ Renan, Avenir, p. 347

٣ـ المصدر نفسه ، ص ص ٤٧١ ـ ٤٧٣ .

وذهب رينان إلى أنّ الإسلام أيضا لم يدع في الأصل إلى الدمج بين السلطتين . فالنبي محمّد رفض تعيّين خلف له . ويروي المفكّر الفرنسي أنّ عامر بن طفيل اشترط ، في مقابل اعتناقه الإسلام ، أن يعيّنه النبي خليفة له في قيادة الأمّة . فأجابه النبي : لا يحقّ لي أن أتصرّف بأمر القيادة من بعدي . إنّ الله سيوكل بها من يشاء[١] . واعتبر رينان ان المسلمين ظلّوا متسامحين حتّى القرن الثاني عشر . ولكن عندما تسلّمت في القرن الثالث عشر سلالات بربريّة فظّة زمام الإسلام دخل المسلمون عهدا جديدا . فبدأ حكم العقيدة المطلق دون أي فصل ممكن بين الروحي والزمني ، وصار كلّ من لا يمارس شعائره الدينية عرضة للتنكيل . إنّ هذا النظام التعسّفي الذي يقيّد الحرّيات لم تفقه كيدا إلّا المحاكم الدينيّة في اسبانيا والدول الحَبرية في أوروبّا . غير أنّ أثر الإسلام كان عميما اذ أحكم القبضة على أجزاء واسعة من العالم وحافظ فيها على فكرة الدولة القائمة على الدين ، تلك الفكرة التي تتناقض مع التقدّم . لقد اضطهد الإسلام الفكر الحرّ ولم يكن اضطهاده أعنف من اضطهاد الديانات الأخرى لذلك الفكر ، الّا أنّه كان أكثر فاعلية[٢] . ولكنّ رينان يرى ، مع ذلك ، أنّ عدم وجود مركز لاهوتي في الأمم الإسلامية من شأنه أن يؤمّن لها بعض الحرّية الدينية . وهو ينتقد فورستر Forster [٣] ويقول إنّ الخلافة لم تشبه البابويّة أبدا . فالخليفة لم يكن قويّا إلّا زمن الفتح الإسلامي . ولكن

---

١ — Renan, Mahomet, p. 20

٢ — Renan, l'Islamisme, pp.16-19

٣ — قد يكون Georg Forster الطبيب والمؤلّف الموسيقي الألماني (١٥١٥ — ١٥٦٨) الذي كان على صلة وثيقة بلوثر ، أو Jean - Reinhold Forster (١٧٢٩ — ١٧٩٨)، وهو صاحب مؤلّفات عديدة هامّة في التاريخ والجغرافيا .

عندما صارت السلطة الزمنية في يد أمير الأمراء وقع الخليفة في إذلال يرثى له . وذهب إلى أنّ عدم امتلاك الخليفة هذه السلطة يزيل العائق أمام تقدّم الفكر الحديث . ويعتبر رينان أنّ الإسلام يجب ألّا يخاف العقلانية لأنّه يملك مرونة تكسبه قوى للمقاومة خفيّة . ويقارن بين وضع المسيحية عندما قام فيها الإصلاح الديني وبين الإسلام إذا ما قام فيه إصلاح مماثل فيقول إنّ الأمم المسيحيّة اضطرّت لكي تقوم بالإصلاح إلى أن تكسر وحدتها بقوّة وأن تثور ثورة مفتوحة على السلطة المركزية ، أمّا الإسلام الذي ليس فيه بابا ولا مجامع دينيّة ولا مطارنة ولا اكليروس ففي وسعه ألّا يخاف كثيرا من يقظة العقلانية . ووجد أنّ الشعائر الإسلامية ، إذا ما حذفت منها بعض الأمور ، تشبه ببساطتها المذاهب البروتستانتية الأكثر صفاء[١] . غير أنّ رينان ذهب في موضع آخر إلى حدّ اعتبار أنّ الإسلام ليس دين دولة وحسب ، كما كانت الكاثوليكية في فرنسا أيّام حكم لويس الرابع عشر وكما هي حتّى الآن في اسبانيا ، إنّما هو دين إقصاء الدولة . إنّه تنظيم تتفرد الدول البابوية في أوروبّا بتقديم نموذج يشبهه . ويضيف: هنا تكمن الحرب الأبدية [بين الآريين والساميّين أو بين الأوروبّيين والمسلمين] التي لن تتوقّف إلّا عندما يموت آخر أبناء اسماعيل من الفقر أو عندما يعزله الخوف في قلب الصحراء[٢] . إنّ الإسلام هو نقيض أوروبّا الأكمل . هو التعصّب الذي لم تعرف مثله إلّا اسبانيا أيام فيليب الثاني وايطاليا أيّام پيّوس الخامس . ولن ينتهي النزاع بين الدين والعلم — على حدّ قول رينان — إلّا بزوال الإسلام المتعصّب الذي يكره العلم[٣] . وهو

---

١ — Renan, Mahomet, p.38-39

٢ — في تعبير رينان هذا ما يوحي بأنّ عداءه للمسلمين الذي عبّر عنه مرارا إنّما هو يتعدّاهم ها هنا ليشمل العرب أجمعين .

٣ — Renan, Peuples Sémitiques, p. 27

لا يستبعد أن يُهدم الإسلام ويُنشأ دين جديد في الشرق[١].

ب ـ مفهومه للأمّة

يقول رينان إنّه لم يعد هناك دين دولة[٢]. فالدين صار شيئا فرديّا، وتقسيم الأمم حسب الانتماءات الطائفيّة لم يعد موجودا. وهو ينفي أن يكون الدين أساسا لقيام الأمم الحديثة[٣]. ففي الماضي تسبّبت السياسة التركية التي حدّدت القوميات بموجب الانتماء الديني في خراب الشرق. واعتبر أنّ أساس نشوء أمّة ما يكمن في أن تجمع بين أفرادها أشياء مشتركة كثيرة وأمور منسيّة كثيرة. ولقد أعلنت فرنسا بواسطة الثورة الفرنسية أنّ الأمّة أمر قائم بذاته[٤]. ويذهب رينان إلى أنّ اللّغة ليست أساسيّة في نشوء الأمم، إذ هي مدعاة إلى الاتّحاد لكنّها لا تحتّمه[٥]. فالولايات المتّحدة وانكلترا كما أميركا الاسبانية واسبانيا تتكلّم اللّغة نفسها دون أن يتسبّب هذا بقيام أمّة واحدة في ما بينها. وعلى عكس ذلك، فإنّ سكّان سويسرا يتكلّمون ثلاث لغات أو أربعا. فالإرادة أهمّ من اللّغة. أمّا الأهمّية السياسية التي نعطيها للّغات فتعود إلى كوننا نعتبرها مؤشّرات عرقية، وهذا أمر خاطئ جدّا. فمصر مثلا تتكلّم العربية[٦].

١ـ Renan, Oeuvres Complètes, VII, p. 722-723

٢ـ أولم يستثني رينان الإسلام من هذا الأمر؟

٣ـ Renan, Qu'est-ce qu'une Nation? p.22-23. Paru dans Discours de Réception. نذكره من بعد باسم Nation.

٤ـ المصدر نفسه، ص ص ٨ـ ١٠.

٥ـ ما الذي دفع رينان إذن الى إطلاق عبارة "الأمّة العربية" la nation arabe على العرب بوخصوصا في المرحلة التي سبقت ظهور الإسلام؟
أنظر: Renan, Langues Sémitiques, p. 306; Mahomet, p.7

٦ـ Renan, Nation, p.19-20
ويشير المثال الذي يعطيه رينان الى أنّه لا يعتبر المصريّين عربا.

حتّى العرق لا أهمّية له بالنسبة إلى رينان في نشوء الأمم الحديثة . وفي رأيه انه لا يوجد في الحقيقة عرق صاف . وإذا نحن أقمنا السياسة على الاعتبار العرقي فإنّنا نقيمها على أوهام[١] . كما ان الجغرافيا ووحدة المصالح رابطان قويّان ولكنّهما غير كافيين لقيام أمّة ما . وبعيدا عن جميع هذه العناصر المادّية يقول رينان إنّ الأمّة هي روح أو مبدأ روحي . والشرط الأساسي لتكوين شعب ما هو وجود أمجاد مشتركة في الماضي وإرادة مشتركة في الحاضر[٢] . إنّ اتّحاد الشعوب التي تؤلّف الدول هو الذي يعطيها الطابع القومي . ففرنسا وألمانيا وانكلترا وايطاليا واسبانيا بدأت منذ منتصف القرن التاسع تبلور نهجها القومي الذي أدّى بها إلى ما هي عليه اليوم . إنّ حالها عكس حال تركيا التي بقي فيها التركي والسلافي واليوناني والأرمني والعربي والسرياني والكردي متميّزين بعضهم عن بعض[٣] . غير أنّ رينان ذهب إلى أنّ الأمم ليست أمرا خالدا . وتوقّع ، بتنبّؤ بدأ يصحّ ، أن تحلّ الكونفدرالية الأوروبّية محلّ الأمم الأوروبّية ، وذلك بعد القرن التاسع عشر . وقال إنّ وجود الأمم في الوقت الحاضر أمر جيّد بل ضروري من أجل ضمان الحرّية التي لم تكن لتبقى لو خضع العالم لقانون واحد وسيّد واحد[٤] .

١ــ Renan, Nation, p.13; p.15

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤ ، وص ٢٦ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٥ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ١٨ .

لقد عالج رينان في هذا الفصل عددا من القضايا ووقع في تناقضات عديدة في أثناء معالجته لها . فعندما تحدّث عن أهمّية اللّغة العربيـة مثلا قال إنّها اللّغة السامية الوحيدة التي استطاعت أن تعبّر عن المسائل الفقهية والكلامية والعلمية وعن القضايا الفلسفية المجرّدة . إلّا أنّ رينان لم يستقرّ على هذا الرأي فقال في موضع آخر إنّ العربية قاصرة عن التعبير عن الحقائق الماورائية واعتبر أنّ الفلاسفة والعلماء العرب كتّاب رديئون . وهذا القول يناقض ما ذكره هو نفسه من أنّ الفرس والاسبان قد تبنّوا اللّغة العربية وجعلوها لغتهم العلمية . وفي كلام له على فلسفة العرب يقول إنّ هذه الفلسفة إنّما هي فلسفة الفرس والاسبان مكتوبة بالعربية . ولم يحل ذلك دون قوله إنّ الإسلام لم يصبح متعصّبا إلّا في القرن الثالث عشر عندما أمسك بزمامه الفرس والبربر والأتراك . فهل يكون الفرس تارة روّاد الفلسفة العربية وطورا أعداءها ومضطهديها ؟

وعندما حاول رينان أن يتحدّث في تاريخ المسلمين العلمي ميّز بين مرحلتين ، الأولى تمتدّ حتّى القرن الثاني عشر ، والثانية تبدأ بالقرن الثالث عشر فقال إنّ الإسلام كان متسامحا في المرحلة الأولى وعنيفا في المرحلـة الثانية . واعتبر في موضع آخر أنّ الإسلام كان متسامحا وهو ضعيف ثمّ غدا عنيفا عندما تحقّقت له القوّة . فهل تكون ممارسة العنف هي المقياس الذي اعتمده من أجل تحديد مدى القوّة عند المسلمين ، لا سيّما إذا رجعنا إلى ما هو مسلّم به تاريخيّا وهو أنّ مجد العرب والمسلمين يمتدّ إلى منتصف القرن الثالث عشر قبل أن يتسلّم زمامهم الأتراك الذين أدخلوهم طور الإنحطاط ؟ أفلم يكن الإسلام متسامحا وهو قوي ومضطهدا بعدما ضعف كما حدث مع المسيحية حسب قول رينان نفسه ؟

ومن مواقف رينان المتناقضة تلك التي يتحدّث فيها عن تسامح المسلمين العرب . فهو مرّة يعتبر أنّ تسامح هؤلاء يعود الى طبعهم المشكّك ، ومرّة أخرى يرى أنّهم تحمّلوا الفلسفة لأسباب عملية إذ كانوا متلهّفين عنها بملاحقة الخارجين على الإسلام . فهل كان تسامح المسلمين نابعا من طبيعتهم أم كان مفروضا عليهم لأسباب اقتضتها الظروف السياسية آنذاك ؟

ومن هذه المواقف أيضا اعتباره أنّ المسيحية والإسلام لم يصبحا مميّزين إلّا بعد أن خرجا من محيطهما السامي وتبنّاهما الآريّون ، في حين أنّه أقرّ بأنّ أيّا من هاتين الديانتين لم يكن في مهده الشرقي متعصّبا وأنّ أيّا منهما لم يدع الى الدمج بين السلطتين الدينية والدنيوية ، فيقول إنّ هذا الدمج في المسيحية لم يبدأ إلّا مع قسطنطين امبراطور روما وإنّ الاضطهاد المسيحي قد بلغ ذروته في اسبانيا ، ويقول كذلك إنّ التعصّب بين المسلمين لم يظهر إلّا زمن حكم البربر والفرس والأتراك . أوليس هؤلاء جميعا فضلا عن امبراطور روما والاسبان آريين أو أقرب الى الآريين منهم إلى الساميّين ؟

والّلافت أيضا أنّ تصوّر رينان للعلاقة بين الإسلام والعلم لم يكن واحدا . فهو مرّة يرى أنّ الإسلام يجب ألّا يخاف العقلانية لأنّها لا تمسّه ويعتبر أنّ الفصل بين السلطتين فيه قد يتمّ بصورة أسهل ممّا حصل في المسيحية لأنّ الإسلام دين عقلي ، ومرّة أخرى يذهب إلى أنّ الإسلام سيهوي تحت وطأة اكتشافات العلم الحديث ويعتبر أنّ الإسلام دين دولة وسيستمرّ كذلك . وهكذا يبقى رينان حائرا بين ما تمليه عليه أبحاثه الفكرية من مواقف وآراء وبين أن يُخضع نتائج هذه الأبحاث لأهوائه الشخصية ، بين أن يكون مفكّرا عالما وأن يكون إنسانا متحيّزا يرضخ لما في نفسه من نزعات وأهواء .

الفصل الرابع

أثر رينان في المفكّرين العرب.

يكتسب رينان أهمّية خاصّة لدى المفكّرين العرب لأنّه يمثّل نموذجا للمفكّرين الغربيين الوضعيين الذين وصل فكرهم الى العرب مباشرة. فقد عاش رينان في البلدان العربية مدّة من الزمن ودرس لغة أبنائها وفلسفتهم وأديانهم وأبدى رأيه فيها جميعا. وقد ولّدت آراؤه هذه بين أبناء الشرق تيّارات متباعدة إلى حدّ التناقض. إذ نشأ تيّاران دينيّان متأثرين بهذه الآراء، أحدهما مسيحي والآخر مسلم، كما نشأ تيّار لا ديني علماني.

١- التيّار المسيحي

أمّا التيّار المسيحي فتعود نشأته إلى الفترة التي أمضاها رينان في لبنان بحثا عن الآثار الفينيقية، إذ ولّد احتكاكه بالموارنة إحساسا لدى بعضهم جعلهم يشعرون باستقلالية ما تعود بهم، بمعزل عن محيطهم العربي، إلى أصل فينيقي[1]. وكان بين المتأثّرين برينان في إحيائه التراث الفينيقي في المنطقة المؤرّخ الماروني طنّوس الشدياق، الذي عرف رينان شخصيّا حسب قول كمال الصليبي[2]، فذكر الشدياق أنّ لبنان هو

١- راجع بشأن هذا الموضوع من الصفحة ٣٤ إلى الصفحة ٣٨ في هذا البحث.

٢- الصليبي، بيت بمنازل كثيرة، ص٢١٦.

" جبل بين طرابلوس وبعلبك ممتدّ مسافة أربعة أيّام في فينيقية" (١) .
وهو لم يكن مؤرّخا وحسب إذ أسهم "في الحوادث الحزبية الطائفية التي جرّ إليها اللبنانيّون على أثر انهيار الامارة .. حتّى انه شارك في بعض المعارك ، في الشويفات خاصّة، .." (٢) .

لقد مهّد رينان بالاستنتاجات التي خلص إليها حول تميّز جبل لبنان وخصوصيّة الموارنة لاعتبار الجبل مكانا مناسبا لإقامة دولة لا عربية تقوم على التراث الفينيقي رغم أنّ هذا الجبل في الأساس لم يكن شاهدا على الحضارة الفينيقيّة . وقد تمّ اختيار هذه البقعة لأنّها كانت الأكثر بعدا عن التراث العربي . واعتبر رينان أنّ التراث الفينيقي القديم يستمرّ الموارنة اليوم في تجسيده . فعندما تحدّث عن عدم تفوّق الفينيقيّين في الفنّ اتّخذ كنائس الموارنة نموذجا للفقر الفنّي ، بينما اعتبر أنّ كنائس الاثوذكس، الذين يمثّلون العنصر اليوناني في سوريا ، إنّما تدلّ على مقدار أكبر من الذوق (٣) . كما تحدّث عن تميّز الموارنة من الناحية اللّغوية اذ انهم ، رغم تبنّيهم اللّغة العربية ، فضّلوا أن يكتبوها بالحروف السريانية . وقد سمّيت تلك اللّغة حينها بـ " الكرشونيّة" (٤) .

بمثل هذه الخطى تمّ التمهيد لفكرة قيام قومية لبنانية ، يكون جبل

١ــ طنّوس الشدياق ، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان ، ص ٩ .

وجدير بالذكر أنّ عنوان الفصل الثاني من هذا الكتاب هو " في مدن لبنان الفينيقيّة" .

٢ــ المصدر نفسه ، راجع التمهيد الذي وضعه للكتاب فؤاد أفرام البستاني ، ص ج .

٣ــ Renan, Mission, p. 830

٤ــ Renan, Langues Sémitiques, p. 266

لبنان وطنها والموارنة شعبها . وهذا ما سيخلق واحدا من أهمّ التيّارات الفاعلة في تاريخ لبنان في القرن العشرين . ومن الأمثلة الواضحة على هذا الإتّجاه إنشاء شارل قرم مثلا في الربع الأوّل من القرن العشرين مجلّة بالفرنسيّة اسمها " La Revue Phénicienne " أي المجلّة الفينيقيّة(١) . وقد شدّدت هذه المجلّة على ماضي لبنان الفينيقي وكانت دافعا ثقافيّا من أجل نيل لبنان استقلاله . ثمّ أصدر قرم سنة ١٩٣٣ "الجبل الملهم" بالفرنسية ، فتحدّث عن جبل لبنان موطنا للبنانيّين أبناء الحضارة الفينيقيّة . ثمّ صدرت سنة ١٩٣٨ ، بالفرنسية كذلك ، مجلّة Phénicia التي هدفت إلى الجمع بين اللّبنانيّين والفرنسيين(٢) .

٢ـ التيّار الإسلامي

وإذا كان اتّصال رينان بالموارنة قد ولّد فيهم إحساسا قوميّا يستند في نشوئه إلى الديانة المسيحية ، فإنّ آراءه في المسلمين والعرب وفي لغتهم وفلسفتهم قد أدّت إلى نشأة حركة فكرية كبرى في الأوساط الإسلامية والعربية . وربّما كانت المحاضرة التي ألقاها في السوربون حول الإسلام والعلم إحدى أهمّ الحوافز في تحريك الفكر الإسلامي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . فما الذي دفع رينان الى إلقاء هذه المحاضرة ،

١ـ كان من الذين كتبوا في هذه المجلّة ، فضلا عن مؤسّسها شارل قرم ، الأب هنري لامنس والبطريرك الماروني الياس الحويّك وشكري غانم وفيليب دو طرازي وبول نجيم .

٢ـ صدرت هذه المجلّة برئاسة اورور اوغور Aurore Augour وشارك في كتابتها مفكّرون لبنانيّون وفرنسيّون نذكر منهم شارل قرم وسعيد عقل وموريس الحاج وهكتور خلاط وايلي تيّان وميشال شيحا .

وما هو مضمونها ، وكيف بدت محاولات المفكّرين المسلمين في التعليق عليها أو الردّ على ما جاء فيها ؟

أ ـ لقاء رينان والأفغاني

يقول رينان إنّه في حوالي شهر آذار سنة ١٨٨٣ أجرى حديثا مع جمال الدين الأفغاني فترك هذا الأخير في نفسه انطباعا قلّما شعر بمثيل له . وكان هذا الحديث دافعه الأكبر الى اختيار موضوع المحاضرة التي ألقاها في السوربون في التاسع والعشرين من الشهر ذاته في موضوع الإسلام والعلم(١) . ولم يتحدّث الأفغاني عن هذا اللّقاء إلى أحد بأمّا رينان فأشار إلى أنّه تمّ بواسطة خليل غانم(٢) . وكان هذا الأخير ، بتشجيع من الحكومة الفرنسية ، قد أصدر عام ١٨٨١ في باريس جريدة "البصير" المعادية للعثمانيين والإنكليز . وعندما توقّفت جريدته سنة ١٨٨٣ عن الصدور، شارك في صحف أخرى من بينها "جورنال دي ديبا" Journal des Débats التي نشرت نصّ محاضرة رينان . وكان الأفغاني قد اتّهم بإفساده

١ـ ورد هذا في التعليق الذي كتبه رينان ردّا على الرسالة التي علّق فيها الأفغاني على محاضرته . أنظر : Débats du 19 Mai 1883

٢ـ خليل ابراهيم غانم . أديب وسياسي لبناني (١٨٤٦ـ١٩٠٣) . أتقن الكتابة بالعربية وبالفرنسيّة وعمل مترجما لمتصرّفية جبل لبنان ثمّ لولاية سورية ولوزارة الخارجية في الاستانة . انتخب عام ١٨٧٧ نائبا عن سورية في "مجلس المبعوثان" . ولكن عندما حلّ السلطان عبد الحميد هذا المجلس فرّ غانم الى فرنسا حيث أصدر جرائد " البصير " بالعربية و "الهلال" بالفرنسية و "تركيا الفتاة" بكلتا اللّغتين . واتّصل بأهل السياسة والفكر من أمثال الأفغاني ومحمّد عبده وغمبتا وهانوتو ، كما اتّصل به كثيرون من رجال الدولة العثمانية الذين لاذوا بالفرار من غدر السلطان عبد الحميد ، فأنشأ "جمعية تركيا الفتاة" التي رئسها حتّى وفاته. من مؤلّفاته "حياة المسيح" وقد يكون تأثر برينان في اختيار موضوعه .

الدين والدنيا ، فأبعد من مصر إلى الهند . غير أنّه كان يفضّل الإنتقال إلى باريس لأنّها ملجأ المناوئين لسياسة الإنكليز مثل يعقوب صنّوع (١٨٣٩ـ١٩١٢) والمناهضين لسياسة العثمانيّين في البلاد العربية مثل خليل غانم . ولم يكد الأفغاني يصل مدينة باريس في كانون الثاني ١٨٨٣ حتّى بدأ بتعلّم الفرنسية (١) .

ب ـ موقـــف الأفغانـــي من الفرنسيّيـن

كان الأفغاني يتطلّع إلى فرنسا بإكبار شديد . فهو وإن كان يرى أنّ الغربيّين " أصبحوا أسياد الشرقيّين لأنّهم تقدّموا في العلوم والمعارف بينما انحطّ فيها الشرقيّون " (٢) ، فإنّه فرّق تفريقا واضحا بين سيطرة الإنكليز وسيطرة الفرنسيّين . فكان كلّما سنحت له الفرصة يذمّ الإنكليز ويمدح الفرنسيّين . وفي إحدى مقالاته يقول :

" والحقّ ان الأمّة الفرنسية قد كسبت قلوب الشرقيّين باعتدالها في صفة الأنانية ، وحبّها العام للخير والبرّ . وبذلك يحقّ للشرقيّين أن يحبّوها في المقابل . والحقّ ان تلك الأمّة لم تنفك تظهر عواطفها الكريمة في جميع أنحاء الشرق " . (٣)

ويضيف أنّ الانكليز لم يتركوا أيّ مؤسّسة نافعة في مصر التي كانت طريقهم الى الهند ويقول :

١ـ علي شلش ، جمال الدين الأفغاني في ردّه على ارنست رينان .
"الأزمنة" ، العدد السادس ، أيلول ـ تشرين الأول ١٩٨٧ ، ص ص ٥٠ـ٥٢ .
نذكره من بعد باسم الافغاني في ردّه على رينان .

٢ـ جمال الدين الأفغاني ، سلسلة الأعمال المجهولة ، ص ٧٤ . من مقالة نشرت في جريدة مصر في ٢٥ نيسان ١٨٧٩ عقب ظهور دائرة المعارف لبطرس البستاني .
نذكره من بعد باسم سلسلة .

٣ـ المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

"ولن تجد في مصر مدرسة واحدة للمعارف أو العلوم، منذ عهد المرحوم محمد علي باشا، إلّا كان مؤسّسها ومنظّمها وناظرها فرنسيّا. فتحيّة الى الأمّة التي تنطق أعمالها بمدحها، والتي يشهد العالم كلّه على فضائلها وطهارة ثوبها الذي لم يدنّسه تلوّن الطمع"(١).

فهذا الشعور المميّز نحو الفرنسيّين قد عبّر عنه معظم اللاّجئين إلى فرنسا أمثال صنّوع وغانم، فضلا عن الأفغاني.

ج — مضمون محاضرة رينان

أمّا المحاضرة التي ألقاها رينان في السوربون عندما كان مديرا للكوليج دو فرانس في الإسلام والعلم(٢) فيمكن اختصارها على النحو الآتي: إنّ البلدان الإسلامية تعيش حالا من الانحطاط. وقد ظنّ بعضهم أنّ هذا ليس إلّا أمرا مؤقّتا فتوقّع أن تعود الحضارة الإسلامية الى سابق ازدهارها تضمّ العلماء والفلاسفة كما كانت في الماضي. ولكنّ رينان يسأل: هل كان للعلم الإسلامي وجود في الأصل؟ ثم يجيب قائلا إنّنا نستطيع من الناحية التاريخيّة أن نميّز بين مراحل عدّة في تاريخ المسلمين: ففي القرن الأوّل للهجرة كان المسلمون بمنأى عن العلم والفلسفة لأنّ الخلفاء الراشدين والأمويّين كانوا من العرب الذين يكتفون

١ــ الأفغاني، سلسلة، ص ٣٨. من مقالة نُشرت في جريدة "مصر" في ١٧ أكتوبر ١٨٧٨ يمدح فيها الأفغاني سياسة الفرنسيّين في الجزائر ويذمّ سياسة الإنكليز في الهند.

٢ــ نشرت المحاضرة في كتاب جمع عدّة محاضرات ألقاها رينان بين سنتي ١٨٧٩ و ١٨٨٥. أنظر: Renan, l'Islamisme, pp.1- 24.

بوجود الله لتفسير الأشياء . ثمّ بدأت مرحلة العبّاسيّين الذين نقلوا الخلافة إلى منطقة دجلة والفرات فعادت العلوم والفلسفة تزدهر في بلاد الفرس الساسانيّين بعد أن خبت لمئة عام على أثر ظهور الإسلام . لقد كانت الثورة التي حملت العبّاسيّين إلى الحكم فارسية المنشأ وأتت بمثابة بعث لبريق كسرى أنو شروان . واستمرّت هذه المرحلة حتّى سنة ١٢٧٥ ، وهي السنة التي تسلّم الأتراك فيها الحكم فقضوا على العلم والفلسفة .

حدّد رينان في نبذته التاريخية هذه علاقة الشعوب الإسلاميّة بالعلم والفلسفة بالرجوع إلى الجنس الذي يتحدّر منه حكّام هذه الشعوب. وقد ابتغى كعادته أن يعلي من شأن الآريين حتّى بين المسلمين .

أمّا الفلسفة " المسمّاة " عربية — على حدّ تعبير رينان — فهي ليست ذات هويّة عربية أو إسلاميّة . وهي ليست عربية لا بالفكر ولا بالدم . صحيح أنّها كتبت باللّغة العربية ، لكنّ مضمونها يوناني والذين ألّفوا فيها ، باستثناء الكندي ، لم يكونوا من أصل عربي . وإهمال رينان لأهميّة اللّغة التي وُضعت بها هذه الفلسفة ينسجم مع عدم ايلائه اللّغة أهمّية كبرى في تحديده لجنسيّات الشعوب . وهو يبدي حسرته لأنّ الغرب لم يستطع نهل العلم اليوناني في القرن الثامن أو التاسع مباشرة من مكتبات القسطنطينيّة بل اضطرّ إلى الإستعانة بالترجمات العربية لهذا التراث ، تلك الترجمات التي كانت بمثابة الخميرة التي فتّحت العبقرية الأوروبّية المتعطّشة إلى الكتب . ويعزو رينان عدم تمكّن الغربيّين من نهل العلم من القسطنطينية إلى سببين . السبب الأول هو النفور بين اللاّتين واليونان الذي جعل اللاّتين يؤثرون الاستعانة بالترجمات العربية على طلب تلك الكتب مباشرة من القسطنطينيّة ، والسبب الثاني هو افتقار الغرب آنذاك إلى علماء في اللّغة والأدب اليونانيين لأنّ هؤلاء العلماء لم يتوافروا فيه إلّا بعد ذلك بثلاثمئة سنة . ولكن ما كاد العلم المسمّى عربيّا يلقّح

بذور الحياة في الغرب اللاتيني حتّى اختفى أثره وراح الغرب يسير في طريق البحث العلمي عن الحقيقة ·

ويعتبر رينان أنّ هذه الفلسفة ليست إسلاميّة كذلك لأنّ أهلهـــا كانوا يهودا ومسيحيّين وحرّانيّين واسماعيليّين ومسلمين ثائرين باطنيّا علـــى دينهم · ويذهب إلى أنّ المسلم بطبعه يكره العلم ويتحاشى علم الطبيعة وعلم التاريخ · فهو يتهرّب من علم الطبيعة لأنّه يعتبره منافسا للّه ، ومن علم التاريخ لأنّه قد يؤدّي إلى إحياء أخطاء قديمة إذا ما طُبّق على أزمنة سابقة للإسلام · والمسلم في نظره يعتبر البحث أمرا فيه اعتداء على حقوق اللّه ، ولذا نراه ينهي كلّ نقاش بقوله " اللّه أعلم " · ولهذا اضطهد المسلمون الفلاسفة ولعنهم رجال الدين المسلمون · فالإسلام لم يكن متسامحا إلّا عندما كان ضعيفا ، أي في النصف الأوّل من العصر الوسيط ، ولكنّه أصبح عنيفا عندما توطّدت دعائمه · وإذا كان الدين في الغرب قد اضطهد الفلسفة هو أيضا فإنّه أخفق في أن يسحق الفكر الحديث ·

د — ردود الفعل على المحاضرة

نشرت محاضرة رينان للمرّة الأولى في جريدة الديبا في اليوم الذي ألقيت فيه ، أي في ٢٩ آذار ١٨٨٣ ، فأثارت ضجّة في الأوساط الفرنسية وأسرع بعض المهتمّين بموضوعها إلى التعليق عليها · فردّ عليها بالفرنسيّة مثلا رئيس البعثة المصرية بفرنسا آنذاك ، وتحمّس الطلّاب المسلمون المصريون في باريس لمعرفة مضمونها والإطّلاع على ردّ رئيس البعثة فاجتمعوا وكلّفوا حسن عاصم بتعريبهما ، وجاء في مقدّمة التعريب أنّهم يريدون الإطّلاع على المحاضرة التي طعن فيها رينان بالإسلام والأمّة العربية لأنّ الدفاع عن الدين فرض على الإنسان ولأنّ حبّ الوطن من الإيمان · وقد عرّب هذه المحاضرة

أيضا محمّد مختار أحد طلبة العلوم الطبّية بباريس[١] . كما كتب فرنسي جزائري لم يذكر اسمه في ٢٦ نيسان ١٨٨٣ مقالة في جريدة " البصير" ردّ فيها على رينان حرصا منه على مصلحة فرنسا . فما كان من الأفغاني إلّا أن تحمّس هو أيضا للتعليق على مقالة هذا الفرنسي الجزائري فكتب كلمة قصيرة بعنوان "الإسلام والعلم" في العدد التالي من جريدة " البصير"، وكان ذلك في ٣ ايار . وممّا جاء في تعليق الأفغاني:

"إنّ رنان الفيلسوف قد ألقى في باريس،كرسي الحرّية ، خطابا جعل موضوعه الإسلام والعلم ، وأظهر فيه أفكاره التي ذهبت به إليها الشواهد التاريخية . وما حاد في خطابه عن سنّة الأدب ، وما تجاوز حدود الكمال الذي يقضي به وجوب احترام الأمم في ما تنتحله دينا .

ومع ذلك فقد امتعض كثير من عظماء الأمّة الفرنسوية وتجهّموا من مقاله ، وحسبوه خروجا عن النصفة . . حتّى قام من هذه الأمّة الشريفة من له الكلمة العالية في الحكومة، وكتب مقالة تذمّر فيها من خطاب رنان ، وبيّن هفواته وأقام الأدلّة على سقطاته ، وذاد عن الديانة الإسلامية ، ودافع عن المسلمين — وما دعاه إلى مقالته هذه إلّا فضيلة مراعاة الأمم في أديانها ، وحسن السياسة" (٢) .

ثمّ يتابع الأفغاني كلامه ليقيم مقارنة بين الفرنسيين المنصفين والإنكليز الذين يسيئون معاملة المسلمين في الهند ، ويقول أخيرا :

" فانظر أيّها البصير إلى التفاوت الكائن بين هاتين

١ــ أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث . ص٨٦ــ٨٨ . نذكره من بعد باسم زعماء الإصلاح .

٢ــ الأفغاني ، سلسلة ، ص ١١٥ .

الأمّتين ، وأنصف" (١) .

يدلّ هذا الردّ القصير على أنّ الأفغاني اغتنم فرصة دفاع كاتب فرنسي عن الاسلام ليبيّن مرّة أخرى دماثة الفرنسيّين وفظاظة الانكليز . وهو الى ذلك دافع عن رينان ووافق على مضمون محاضرته بصورة عامّة مع إقراره بأنّها لم تخل من بعض الهفوات والسقطات .

هـ — تعليق الأفغـانـي على المحاضرة

ثمّ علّق الأفغاني على محاضرة رينان في رسالة مطوّلة كتبها باللّغة العربية الى مدير جريدة الديبا التي كانت قد نشرت محاضرة رينان ، وطلب إليه أن ينشرها على صفحات جريدته . فنُقلت رسالته إلى الفرنسية ونُشرت في عدد يوم الجمعة في ١٨ أيار ١٨٨٣ دون أن يُذكر اسم الذي قام بالترجمة . أمّا النص العربي الذي أرسله الأفغاني الى مدير الديبا فلم يظهر أبدا . كما لم يُترجم النّص الفرنسي الى العربية من جديد الّا على نحو مجتزأ جدّا ومشوّه في أعمال الأفغاني الكاملة . وسننقل النّص الكامل الذي ظهر في الديبا الى العربية لأهمّيته ولإظهار الفرق الفاضح بين الردّ كما نشر في المجلة الفرنسية وبين الصيغة العربية التي عُرضت علينا في أعمال الأفغاني الكاملة . بدأ الأفغاني الرسالة بقوله[(٢) إنه قـرأ في الديبا الخطاب الذي ألقاه "فيلسوف زماننا الكبير ، رينان الذائع الصيت الذي عمّت شهرته أرجاء الغرب ونفذت إلى أقصى أصقاع الشرق" . ولقد أوحى إليه الخطاب "ببعض الملاحظات" فقال :

١ــ الأفغاني ،مسلسلة ، ص ١١٦ .

يقول علي شلش في تقديمه هذه المقالة إنّ الأفغاني كان قد ردّ على رينان، ولكنّ ردّه لم ينشر بالعربية . فإذا كان شلش يقصد ردّ الأفغاني الذي ورد بالفرنسية في الديبا ، وهو الوحيد الذي نُشر بغير العربية للأفغاني في هذا الموضوع في ما نعلم ، فالردّ لاحق لهذه المقالة وليس سابقا لها، إذ انّه نُشر في ١٨ أيار .

٢ــ كلّ ما يرد بين معقوفين[ ] لم يُنشر بالعربية في الأعمال الكاملة للأفغاني . قارن بين : Débats du Vendredi 18 Mai 1883 والأفغاني ، الأعمال الكاملة ، ص ص ٢٠٨ ــ ٢١٠ .

.....

" لقد أراد رينان أن يجلو نقطة ظلّت مغمورة حتّى اليوم في تاريخ العرب ، وأن يلقي على ماضيهم ضوءا ساطعا قد يزعج أولئك الذين يبدون إعجابا بهذا الشعب الذي لا يمكن رغم ذلك أن نزعم بأنّه اغتصب ما سبق أن احتلّه في العالم من مكان ورتبة . ولم يسع رينان مطلقا في اعتقادنا الى هدم مجد العرب الذي لا يُهدم ، بل هو اجتهد في اكتشاف الحقيقة التاريخية وفي التعريف بها لمن يجهلها ولمن يدرس أثر الأديان في تاريخ الأمم . وأسارع فأعترف بأنّ رينان قد أدّى هذه المهمّة الشاقّة بكلّ براعة ، فأورد بعض الوقائع التي بقيت خافية حتّى اليوم . وأنا أجد في خطابه ملاحظات ملفتة ولمحات جديدة وسحرا لا يوصف . ومع ذلك ، فأنا لا أملك إلّا ترجمة شبه أمينة لهذا الخطاب ، ولو قيّض لي أن أطالعه في نصّه الفرنسي لاستطعت أن ألج أفكار هذا الفيلسوف الكبير على نحو أفضل . فليتقبّل تحيّتي المتواضعة علامة إجلال وتعبيرا صادقا عن إعجابي به ! وأقول له ما قاله المتنبّي الذي كان يهوى الفلسفة في مدح شخص رفيع المقام (١) :

خذ من ثنائي عليك ما أسطيعه لا تُلزمنّي في الثناء الواجبا" (٢) .

. . .

والّلافت أن نصّ الرسالة لم يُترجم ثانية من الفرنسية الى العربية بشكل كامل الّا في سنة ١٩٨٧ ، وقد قام بهذه الترجمة الأمينة إجمالا علي شلش .

أنظـــــر

شلش ، الأفغاني في ردّه على رينان ، ص ص ٥٠ ــ ٦٥ .

١ــ هو علي بن منصور الحاجب . وعُرفت القصيدة التي منها هذا البيت بـ "الدينارية" لأنّ الممدوح لم يُجز الشاعر عليها سوى دينار واحد .

٢ــ Débats du Vendredi 18 Mai 1883

بعد هذه المقدّمة ينتقل الأفغاني إلى تلخيص المحاضرة فيقول إنّها اشتملت على نقطتين أساسيّتين . الأولى أنّ الديانة الإسلامية كانت في جوهرها معارضة لتطوّر العلم ، والثانية أنّ الشعب العربي بطبيعته لا يحبّ العلوم الميتافيزيقيّة ولا الفلسفة . ويتساءل الأفغاني : هل نتجت هذه العوائق عن الديانة الإسلاميّة نفسها فقط أم أنّها نتجت عن الطريقة التي انتشرت بها هذه الديانة في العالم ؟ هل صدرت عن أخلاق الأمم التي اعتنقت هذه الديانة وعن ميولها ، أم أنّها صدرت عن الأمم التي أُكرهت على اعتناقها ؟ لا شكّ أنّ ضيق المقام هو الذي حال دون توضيح رينان هذه النقاط . وإذا كان من الصعب تحديد الأسباب الكامنة وراء هذه العوائق بطريقة دقيقة ، فمن الأصعب وصف علاج لها .

ويضيف الأفغاني قائلا :

[" أمّا في ما يتعلّق بالنقطة الأولى ، فأقول إنّه لا توجد أمّة قادرة عند نشأتها على الاهتداء بالعقل الخالص raison pure ، لأنّها في تلك المرحلة لا يمكنها التخلّص من المخاوف التي تنتابها ، فتكون عاجزة عن التمييز بين الخير والشرّ كما تكون جاهلة لما يمكن أن يكون مصدر سعادتها أو شقائها ، أي انّها باختصار لا تعرف كيف تكشف عن العلل أو تفطن إلى المعلولات .

والوقوع في هذه الثغرة يعني أنّه لا يمكن مساعدة الأمّة ، لا بالإكراه ولا بالإقناع ، على ممارسة الأعمال التي قد تفيدها أو تُبعد عنها الضرر . لذا كان لا بدّ للبشرية من أن تبحث خارج ذاتها عن ملاذ أو ركن هادئ يهجع إليه ضميرها المعذّب . وهذا ما استوجب ظهور معلّم ما لم يكن يملك السلطة اللازمة لإكراهها على اتّباع هدي العقل ، فقذف بها في داخل المجهول وفتح لها آفاقا شاسعة سُرّ بها خيالها . وقد وجدت في هذه الآفاق مجالا غير محدود لأمنياتها ، هذا إذا لم تكن قد تمكّنت من

" إشباع رغباتها تماما . ولمّا كانت البشريّة عند نشأتها لا تدرك علل الحوادث ولا أسرار الأمور ، فقد انقادت بحكم الظروف إلى اتّباع نصائح معلّميها وتنفيذ أوامرهم . وقد تمّ فرض هذه الطاعة باسم الكائن الأسمى l'Être suprême الذي نسب إليه المعلّمون جميع الحوادث دون أن يعطوا الناس الحقّ في مناقشة نفعها أو ضررها . وفي ما أعلم لقد كانت هذه العبوديةبالنسبة إلى الإنسان أثقل عبودية وأذلّها . لكني لا أستطيع أن أنكر أنّه لولا هذه التربية الدينية لما استطاعت أيّة أمّة أن تخرج من همجيّتها أو أن تسير في طريق المدنيّة والتقدّم سواء أكانت هذه الأمّة اسلامية أم مسيحيّة أم وثنيّة "[1] .

بعد أن يبدي الأفغاني هذا الرأي غير المتوقّع حول سبب نشوء الأديان ووجود الله يطرح السؤالين الآتيين : هل أنّ العقبة التي تحول دون تطوّر العلم في البلدان الإسلاميّة عقبة غير قابلة للزوال ، كما قال رينان؟ وبم يختلف تعامل الديانة الإسلاميّة مع العلم عن تعامل الديانة المسيحية معها ؟ ومن ثمّ يقول :

[" وإن صحّ ان الديانة الإسلاميّة تشكّل عقبة أمام تطوّر العلوم ، فهل يمكن الجزم بأن هذه العقبة لن تزول يوما ما؟ بم تختلف الديانة الإسلاميّة في هذه النقطة عن بقيّة الديانات؟ إنّ جميع الديانات هي ديانات غير متسامحة ، كلّ واحدة منها بطريقتها الخاصّة . فالديانة المسيحية ، وبها أعني الجماعة التي تتبع أفكارها وتعاليمها الموحاة ، قد خرجت من المرحلة الأولى

---

١ — Débats du Vendredi 18 Mai 1883

"التي أتيت على ذكرها، وباتت حرّة ومستقلّة تخطو سريعا على طريق التقدّم والعلوم، في حين أنّ الجماعة الإسلامية لم تتحرّر بعد من وصاية الدين . ومع ذلك، اذا نحن تذكرنا أنّ قيام الديانة المسيحية قد سبق قيام الديانة الاسلامية بعدّة قرون، فإنّي ما أزال أرجو أن تنجح الجماعة المحمّدية يوما ما في تحطيم قيودها والسير بعزم على طريق المدنيّة، مقتفية خطى الجماعة الغربية التي لم تقف العقيدة المسيحية قطّ حجر عثرة في سبيلها، برغم ما في هذه العقيدة من القسوة وعدم التسامح . لا، فأنا لا أستطيع أن أنتزع من الإسلام هذا الأمل . والقضية التي أرفعها أمام رينان ليست قضية الديانة الإسلامية(١) بل قضية مئات الملايين من الناس المحكوم عليهم، تبعا لذلك، بأن يعيشوا في حال من البهيمية والجهل .

لقد سعت الديانة الإسلامية، في الحقيقة، إلى إخماد العلم وإيقاف تطوّره . وهي قد نجحت بذلك في عرقلة الحركة العقلية أو الفلسفية وفي صرف العقول عن البحث في الحقيقة العلمية . وإذا لم أكن مخطئا] فإنّ الديانة المسيحية قامت بمحاولة مماثلة، ورؤساء الكنيسة الكاثوليكيّة لم يلقوا أسلحتهم بعد، في ما أعلم . فهم ما زالوا يحاربون بلا هوادة ما يسمّونه روح الضلال والخطأ . [وأنا مدرك جميع الصعاب التي سيكون على المسلمين تخطّيها كي يصلوا إلى درجة ذاتها من المدنيّة، بما أنّ بلوغ الحقيقة بواسطة الادوات والطرائق الفلسفية والعلمية أمر محرّم عليهم .

---

١ — ترجمة علي شلش لهذه العبارة لا تؤدّي المعنى الصحيح . كتب شلش: ولست هنا أدافع عن قضية الديانة الاسلامية على نحو ما فعل مسيو رينان [!] أمّا العبارة بالفرنسية فهي :

Je plaide ici auprès de M. Renan, non la cause de la religion musulmane..

أنظر : شلش، الأفغاني في ردّه على رينان، ص ٦٤،

و Débats du Vendredi 18 Mai 1883 .

"فواجب المؤمن الصحيح هو أن يحيد عن سبيل الدراسات التي تبتغي الحقيقة العلمية ، تلك الحقيقة التي تقوم عليها سائر الحقائق ، بالنسبة إلى بعض المفكّرين الأوروبّيين على الأقلّ . إنّ هذا المؤمن يجد نفسه مكبّلا بالعقيدة مثلما يُشدّ الثور إلى المحراث ، فيضطر إلى السير أبد الدهر في الزقاق نفسه الذي خطّه له مسبّقا شُرّاح الشريعة . وبما أنّه مقتنع كذلك بأنّ دينه يشتمل على جميع المبادئ الخلقية وجميع العلوم ، فهو يتمسّك به ولا يبذل أي جهد لتجاوزه . ولماذا يرهق نفسه بمحاولات خاسرة ؟ وما جدوى السعي وراء الحقيقة وهو يعتقد انه يملكها بأسرها ؟ هل يكون أسعد حالا يوم يخسر عقيدته ويكفّ عن الاعتقاد بأنّ جميع أنواع الكمال موجودة في الديانة التي يعتنقها وليس في أي ديانة أخرى ؟ ومذ ذاك والمسلم يكره العلم . أنا أعرف هذا كلّه ، لكنني أعرف أيضا ان ذلك الولد المسلم والعربي الذي رسم رينان صورته بكلمات حيّة وقال إنّه سيصبح في وقت لاحق "متعصّبا" مزهوا بنفسه زهوا أحمق ، لأنّه يملك ما يعتقد أنّه الحقيقة الكاملة" إنّما هو ولد ينتمي إلى عرق ترك آثاره في الدنيا جميعا ، لا بالنار والدم وحدهما ، بل بأعمال فذّة تدلّ على تذوّق للعلوم ، كل العلوم ، بما فيها الفلسفة التي يجب أن أعترف بعجز المسلمين عن تدبير شؤونها لفترة طويلة .]

وسأتحدّث الآن عن النقطة الثانية [التي تناولها رينان في محاضرته بمعرفة راسخة .] فلا أحد ينكر أنّ الشعب العربي قد هرع ، وهو ما يزال في حال من الهمجية ، الى طريق التقدّم الفكري والعلمي بسرعة لا تعادلها إلّا السرعة التي تمّت بها فتوحاته . فعلى مدى قرن من الزمن استوعب هذا الشعب معظم العلوم اليونانية والفارسية [التي كانت خلال قرون قد تطوّرت تدريجا في أرضها الأم ، كما مدّ سيطرته من شبه الجزيرة العربية الى جبال الحملايا وقمّة جبال البيرينيه .]

وأستطيع القول إنّ العلوم قد حقّقت خلال تلك الفترة كلّها تقدّما مدهشا عند العرب وفي جميع الأقطار الواقعة تحـــت

سيطرتهم . وكانت روما وبيزنطية حينئذ مقرّ علوم اللّاهوت والفلسفة، والمركز الوهّاج للمعارف البشريّة كلّها . وكان الإغريق والرومان قد سلكوا سبيل المدنيّة طوال قرون فساروا واثقين مطمئنين في مجال العلم والفلسفة الرحب. ومع ذلك مرّ عليهم زمن أهملت فيه بحوثهم وتوقّفت دراساتهم .

فالآثار التي كانوا قد شيّدوها في ميدان العلم انهارت، والمؤلّفات القيّمة طواها النسيان. لكنّ العرب، رغم حال البهمجية والجهالة التي كانوا عليها في الأصل، تبنّوا ما أهملته الأمم المتحضّرة وأحيوا العلوم التي انطفأت وطوّروها وأضفوا عليها ألقا لم تعرفه من قبل . أوليس هذا دليلا وبرهانا على حبّهم الفطري للعلوم ؟ صحيح أن العرب أخذوا عن الإغريق فلسفتهم كما جرّدوا الفرس من كل ما اشتهروا به في العصور القديمة . لكنّ الصحيح أيضا أنّهم قد عملوا على تطوير هذه المعارف المغتصبة وتوسيعها وتوضيحها وإكمالها وتنسيقها بذوق تامّ وبدقّة وضبط نادرين . وفضلا عن ذلك، فإنّ الفرنسيّين والألمان والإنكليز لم يكونوا أبعد عن روما وبيزنطية ممّا كان العرب الذين كانت بغداد عاصمتهم آنذاك . فكان أيسر على الأوروبّيين أن يستغلّوا الكنوز العلمية المدفونة في هاتين المدينتين العظيمتين، غير أنّهم لم يبذلوا أي جهد في هذا السبيل إلى أن جاءت المدنية العربية فأضاءت ذرى البيرينيه وأغدقت على الغرب أضواءها وغناها . فالأوروبّيون رحّبوا بأرسطو الذي كان قد هجر اليونان وأصبح عربيا، في حين أنّهم لم يفكّروا فيه على الإطلاق يوم كان يونانيّا وعلى مقربة منهم . ألا يشكّل هذا الأمر برهانا آخر لا يقلّ بداهة على تفوق العرب الفكري وارتباطهم الطبيعي بالفلسفة؟ [صحيح أنّ الأقطار التي كانت قد صارت مراكز كبيرة للعلم، مثل العراق والأندلس، وبعد انهيار المملكة العربية في الشرق والغرب، عادت الى السقوط فريسة للجهل وغدت مراكز للتعصّب الديني . ولكنّنا لا نستطيع أن ننكر، رغم هذه الصورة المحزنة، أنّ الشعب العربي الذي كانت له السيطرة في العصر الوسيط كان هو سبب التقدّم العلمي والفلسفي في تلك الفترة .]

ويضيف الأفغاني :

[ورينان ينصف العرب في هذا الأمر . فهو يعترف بأنّهم بأنّهم حافظوا على مشعل العلم وصانوه طوال قرون . فيا لها من رسالة نبيلة تحملها أمّة من الأمم !] ولكن ، رغم تسليمه بأنّ الأقطار الإسلامية قد شهدت علماء ومفكّرين متميّزين جدّا منذ حوالي سنة ٧٧٥ وحتّى قبيل منتصف القرن الثالث عشر ، أي خلال خمسمئة سنة تقريبا ، ورغم إقراره أيضا بأنّ العالم الإسلامي كان خلال تلك الفترة متفوقا في الثقافة العقلية على العالم المسيحي ، فهو يقول إنّ فلاسفة القرون الأولى من تاريخ الإسلام ، وكذلك رجال الدولة ، كانوا في معظمهم من حرّان والأندلس وبلاد فارس . كما كان من بينهم رجال من أبناء ما وراء النهر Transoxiens وأحبار من نصارى الشام . ولست أبغي أن أغمط علماء الفرس حقّهم من السجايا العظيمة ، ولا أن أقلّل من الدور الذي أدّوه في العالم العربي . ولكن اسمحوا لي بأن أقول إنّ الحرّانيّين كانوا عربا ، وإن العرب لم يفقدوا جنسيتهم حين احتلّوا اسبانيا والأندلس ، إنّما هم بقوا عربا . لقد كانت العربية لغة الحرّانيين قبل قرون من ظهور الإسلام . أمّا كونهم احتفظوا بديانتهم السابقة ، وهي الصابئيّة ، فلا يعني أنّهم باتوا غرباء عن الجنسية العربية . بل إنّ أحبار الشام أيضا كانوا في معظمهم عربا غساسنة اعتنقوا الديانة المسيحية .

أمّا فيما يتعلّق بابن باجّه وابن رشد وابن طفيل ، فلا يمكن القول إنّهم أقلّ عروبة من الكندي لكونهم لم يولدوا في الجزيرة العربية ، لا سيّما إذا أخذنا في الاعتبار أنّ الأجناس البشرية لا تتميّز إلّا بلغاتها[1] ، [وأنّه إذا ما اختفى هذا

١ــ في فترة ما اعتبر الأفغاني أنّ اللّغة عامل أساسي في نشوء القوميات وقال : "لا سعادة الّا بالجنسية ، ولا جنسية الّا باللّغة .. إنّ اللّغة عنصر جوهري في خلق مجتمع مستقرّ ، والجماعات البشرية التي ليست لها لغة مشتركة لا تملك وحدة ثابتة" . وقد طالب بأن تصبح العربية اللّغة الرسمية والموحّدة لجميع أنحاء الامبراطورية العثمانية .

. . . . . .

"التمييز فلن يطول الزمن بالأمم حتّى تنسى أصولها المتعدّدة . فالعرب الذين وضعوا سلاحهم في خدمة الديانة الاسلامية، وكانوا في الوقت نفسه من المقاتلين والصحابة ، لم يفرضوا لغتهم على المغلوبين، وإنّما حافظوا عليها لأنفسهم ، وفعلوا ذلك بعناية شديدة حيثما ثبّتوا أقدامهم . ولا شكّ في أنّ الإسلام قد غرس لغته وأخلاقه ومذهبه في الأقطار التي فتحها عنوة . ومنذ ذلك الحين لم تستطع هذه الأقطار أن تتّقي أثره . وبلاد فارس مثال على ما نقول . ولكن إذا عدنا إلى القرون التي سبقت ظهور الإسلام ، لوجدنا أنّ اللّغة العربية لم تكن مجهولة تماما عند العلماء الفرس . صحيح أن توسّع الإسلام قد أعطى هذه اللّغة دفعا جديدا ، وأنّ العلماء الفرس الذين اعتنقوا العقيدة المحمّدية وجدوا في تأليف كتبهم بلغة القرآن شرفا لهم ، [ولكنّ العرب دون شكّ لن يدّعوا لأنفسهم المجد الذي ناله هؤلاء الكتّاب . غير أنّنا نعتقد أنهم ليسوا بحاجة إلى مثل هذا الإدّعاء إذ عندهم ما يكفيهم من العلماء والأدباء المشهورين . وماذا يحدث لو عدنا إلى العهود الأولى التي عرفت سيطرة العرب وتتبّعنا ، خطوة خطوة ، أوّل مجموعة شكّلت هذه الأمّة الفاتحة التي بسطت سلطانها على الدنيا ، واستبعدنا كلّ ما هو غريب عن هذه المجموعة أو عن المتحدّرين منها ، ولم نضع في حسباننا الأثر الذي أحدثته في العقول والحافز الذي أتاحته للعلوم ؟ ألا يؤدّي هذا بنا الى أن ننكر على الأمم الفاتحة سجاياها ومزاياهـــا

. . .

من مقال للأفغاني ترجمه مهدي هندسي Mehdi Hendessi عنوانه بالفرنسية: "Philosophie de l'Union Nationale basée sur la race et l'unité linguistique ". ورد في:

نظمي ، ملامح ، ص ١١٣ .

" المغايرة لتلك التي تنشأ عن الحقيقة المادّية المتمثّلة في الفتح ؟ لو اتّبعنا هذه الطريقة لاستعادت جميع الأمم المغلوبة استقلالها المعنوي الذاتي ، ونسبت إلى نفسها المجد كلّه ، ولم يبق للقوّة التي احتضنت بذوره وطوّرته حقّ شرعي في ادّعاء أيّ حصّة فيه . بهذا المنطق ستقول ايطاليا لفرنسا انه لا مازاران Mazarin ولا بونابرت(١) ينتميان إليها ، وسوف تطالب ألمانيا وإنكلترا بالعلماء الذين رحلوا عنهما إلى فرنسا وجعلوا لكراسي الاستاذية فيها مكانة مرموقة . وسوف يطالب الفرنسيون بمجد أبناء تلك الأسر الشهيرة التي هاجرت إلى جميع أنحاء أوروبا عقب صدور مرسوم نانت Nantes (٢) . [وإذا أمكن القول بأن الأوروبيين جميعا ينتمون إلى سلالة واحدة، لأمكن الادعاء بحق أنّ الحرّانيّين والشاميّين — وهم ساميّون — ينتمون بالنسبة نفسها إلى الأسرة العربية الكبرى .

غير أنّه يحقّ للمرء أن يتساءل كيف اندثرت الحضارة العربية فجأة بعد أن أضاءت الدنيا بنور باهر كهذا ، وكيف لم تتمّ ثانية إضاءة هذه الشعلة منذ ذلك اليوم ، ولم لا يزال العالم العربي مدفونا في ظلمات حالكة .

وهنا تتجلّى مسؤولية الديانة الإسلامية كاملة . فمن الواضح انه حيث استقرّ الأمر للإسلام فإنّه سعى إلى

---

١ — Jules Mazarin . رجل دولة فرنسي (١٦٠٢ — ١٦٦١) . عيّنه ريشيليو كردينالا . وكان الحاكم الفعلي في فرنسا لمدّة طويلة . وقد كان مازاران ونابوليون وبونابرت من أصل إيطالي .

٢ — كان هنري الرابع ملك فرنسا قد أصدر في سنة ١٥٩٨ مرسوم نانت ومنح بموجبه حرّية العبادة للبروتستانت في بلاده . ولكنّ لويس الرابع عشر عدّل هذا المرسوم بمرسوم آخر — هو الذي قصد إليه الأفغاني — أصدره سنة ١٦٨٥ ألغى فيه كلّ التسهيلات التي أعطيت للبروتستانت، ففرّ مئات الألوف منهم الى سويسرا وألمانيا وسواهما .

"خنق العلوم ، ووجد في الاستبداد خير معين على تحقيق خططه . يروي السيوطي ان الخليفة الهادي أمر بقتل خمسة آلاف فيلسوف في بغداد حتّى يستأصل بذرة العلوم في الأمصار الاسلامية . وإذا سلّمنا بأنّ هذا المؤرّخ قد بالغ في تقدير عدد الضحايا ، فإنّ حكمه بوقوع الاضطهاد على الأقل يظلّ حكما صحيحا . وهذه وصمة ملطّخة بالدم في تاريخ كلّ ديانة وكلّ أمّة تقوم بعمل مماثل . وأنا أستطيع أن أجد في ماضي الديانة المسيحية حقائق مشابهة . فالديانات كلّها متشابهة ، أيّا كان الإسم الذي تُعرف به . ومن المتعذّر تحقيق الانسجام أو المصالحة بين هذه الديانات وبين الفلسفة . فالديانة تفرض على الإنسان عقيدتها وإيمانها ، في حين أنّ الفلسفة تحرّره من ذلك تحريرا كاملا أو على الأقلّ تحريرا جزئيّا . فكيف يرجو المرء إذا أن يقوم بينهما الإنسجام؟ فحين دخلت الديانة المسيحية ، في أكثر صورها تواضعا وإغراء ، أثينا والاسكندرية اللّتين كانتا المركزين الأساسيّين للعلم والفلسفة ، وبعدما ثبّتت أقدامها في هاتين المدينتين ، كان همّها الأوّل ان تقصي العلم الحقيقي والفلسفة الحقيقية ، فسعت إلى خنقهما باللجوء إلى المناقشات اللّاهوتيّة المعقّدة الشائكة بغية تفسير الأسرار المستغلقة ، في كلّ ما يتعلّق بالتثليث والتجسّد والاستحالة . وسيكون الحال دائما هكذا . فعندما يكون للدين اليد الطولى تكون الفلسفة في طريقها إلى الزوال . وعندما تكون السيادة للفلسفة يكون العكس هو الصحيح . وطالما بقي للبشرية وجود ، فالصراع مستمرّ بين العقيدة والبحث الحرّ ، بين الدين والفلسفة[1] ، وهو صراع عنيف أخشى ألّا يكون الانتصار فيه للبحث الحرّ لأنّ الناس لا يروقهم العقل الذي يقتصر فهم تعاليمه على نخبة من الأذكياء ، ولأنّ العلم ، مهما كان جميلا ، لا يشفي غليل الإنسانية التي تتعطّش إلى المثال وتهوى الهيام في مناطق معتمة وبعيدة لا يستطيع الفلاسفة والعلماء معاينتها أو اكتشافها "[2] .

---

١ ــ هذه العبارة الأخيرة "بين الدين والفلسفة" لم ترد حتّى في ترجمة شلش ! أنظر : شلش ، الأفغاني في ردّه على رينان ، ص ٦٥ .

٢ ــ Débats du Vendredi 18 Mai 1883

يتّضح من رسالة الأفغاني هذه أنّه أقرّ بأنّ الديانة الإسلاميّة قد اضطهدت العلم والفلسفة ، لكنّه ، بخلاف رينان ، لم يفقد الأمل في أن يزول هذا الاضطهاد ذات يوم. ويلمّح في رسالته إلى أنّه يميّز بين علاقة المسلمين السلبيّة بالعلوم وعلاقة العرب الإيجابية المنفتحة بها . وهو يذهب إلى حدّ اعتبر معه أنّ الجنسيات لا تقوم على الأديان بقدر ما تقوم على اللّغـــة والسلالات . والحلّ بالنسبة إليه لا يكمن في إضعاف الإسلام ، كما قال رينان ، بل هو في الحؤول دون سيطرة الإسلام على العلم .

واللّافت ان الرسالة نُشرت في الأعمال الكاملة للأفغاني مبتورة مشوّهة إذ خلت من جميع الكلمات والعبارات التي مدح بها الأفغاني رينان وأشاد فيها بمعلوماته الغنيّة ، كما أُسقطت منها جميع الأفكار التي سلّم بها الأفغاني لرينان حول اضطهاد الإسلام للعلم والفلسفة . وحُذف كذلك تركيزه على اللّغة والسلالات كعاملين أساسيّين في تشكّل الجنسيات لأنّ هذا يضعف بالطبـــع دور الدين في هذا المجال . وإلى هذا لم يرد ذكر السبب الذي حمـل الأفغاني على التفاؤل بإمكان انتهاء النزاع بين الإسلام والعلم في يوم من الأيّام . فهو بعد أن قال إنّ الإسلام والمسيحية وجميع الديانات لا يمكن أن تتصالح والعلم ، وجد أنّ الجماعة المسيحية صارت حرّة ومستقلّة لأنّهـا تحرّرت من سلطة الدين في حين أنّ الجماعة الإسلامية لم تتخلّص بعد من "وصاية الدين" . وهو يأمل في أن تقتفي هذه الجماعة خطى المسيحيّين في الغرب كي تتمكّن من السير في طريق المدنية . ومن الواضح أنّ في هذه الأمنية بذور فصل بين الإسلام والعلم .

إنّ رسالة الأفغاني لم تُنشر كاملة إلّا بالفرنسية عندما أُلحقت بالترجمة الفرنسية لكتاب " الردّ على الدهريّين" ، وظهرت بعنوان : ردّ Réponse

الأفغاني على رينان نقله لويس ماسينيون[١]، دون أن يُذكر اسم الذي ترجمه أصلا إلى الفرنسيّة. ويفترض موت Mott أنّ رينان نفسه هو الذي نقل النصّ الى الفرنسية[٢]، غير أننا لا نرجّح هذا الافتراض.

لقد اختفى نصّ الرسالة التي وضعها الأفغاني بالعربية. وكان من المهمّ العثور عليه لأنّ الترجمة الفرنسية لم ترق لكثير من المسلمين المتشدّدين الذين وجدوا فيها انفتاحا وتسليما يشوّهان سمعة الأفغاني، فنزع بعض هؤلاء إلى التشكيك في صحّتها. ولكنّنا يمكن أن نتساءل: لو كانت الترجمة غير دقيقة أو غير صحيحة فلم لم يبعث الأفغاني بتوضيح إلى جريدة الديبا في هذا الخصوص، وإذا افترضنا أنّه قد بعث به ورفضت الجريدة نشره، فلماذا لم يعمد الأفغاني إلى نشر النصّ العربي في جريدة عربيّة من أجل دفع الشكوك التي رافقت شيوع النصّ الفرنسي؟

و- ردّة فعل محمّد عبده على تعليق الأفغاني

(١٨٤٩ - ١٩٠٥)

لقد سمع محمّد عبده بمضمون رسالة الأفغاني فاعتراه القلق على ما يبدو. ثمّ أرسل إليه الأفغاني نصّها بالفرنسية مرفقا برسالة منه. فكتب عبده بعد تسلّمهما رسالة بعث بها في ١٤ حزيران من بيروت - المنفى إلى أستاذه قال فيها:

١- Al-Afghani, Réfutation des Matérialistes, traduit par A.M. Goichon, pp. 174-185.

٢- Mott, Ernest Renan, p. 341

" بلغنا، قبل وصول كتابكم الكريم ، ما نُشر في "الدبا" من دفاعكم عن الدين الإسلامي (يا لها من مدافعة) ردّا على مسيو رنان . فظننا ها من المداعبات الدينية تحلّ عند المؤمنين محلّ القبول . فحثثنا بعض الدّينين على ترجمتها[١] ، لكن حمدنا الله تعالى إذ لم يتيسّر له وجود أعداد "الدبا" ، حتّى ورد كتابكم واطّلعنا على العددين[٢] ، ترجمهما لنا حضرة الفاضل حسن أفندي بيهم . فصرفنا ذهن صاحبنا الأوّل عن ترجمتهما ، وتوسّلنا في ذلك بأن وعدناه أن الأصل سيحضر . فإن حضر نُسرّ ، ولا لزوم للترجمة . فاندفع المكروه. والحمد لله ، نحن الآن على سنّتك القويمة: لا تقطع رأس الدين إلّا بسيف الدين . ولهذا لو رأيتنا لرأيت قعّادا عبادا ركّعا سجّدا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل" [٣] .

وتباينت تفسيرات الكتّاب لمضمون هذه الرسالة إلى حدّ التناقض . فاتّخذها بعضهم حجّة للهجوم على عبده ، وعمد آخرون إلى شرحها بهدف الدفاع عنه . وأيّا يكن الأمر ، فإن أبعاد هذه الرسالة تبقى غامضة رغم التفسيرات التي قُدّمت لتبديد هذا الغموض . فردّة فعل عبده الأولى بعد

١ــ كان عبده عندما بعث بهذه الرسالة في الرابعة والثلاثين من العمر . وهو لم يشرع في تعلّم الفرنسية إلّا عندما بلغ الرابعة والأربعين . أنظر :
الإمام محمّد عبده ، نصوص مختارة ، ص ٢٤٠ .

٢ــ العددان هما اللّذان تضمّنا على الأرجح محاضرة رينان ورسالة الأفغاني لا رسالة الأفغاني وتعليق رينان عليها كما افترض شلش في : الأفغاني في ردّه على رينان ، ص ٥٥ . وسيأتي الحديث عن تعليق رينان هذا في ما بعد .

٣ــ محمّد عبده ، سلسلة الأعمال المجهولة ، ص ٥٣ .
نذكره من بعد باسم الأعمال المجهولة .

معرفته بمضمون رسالة الأفغاني إلى الديبا ، التي يُفترض أن تكون دفاعا عن الإسلام ، جعلته يعلّق متهكّما : "يا لها من مدافعة" . وبعد أن طلب عبده من "بعض الدينيين" أن يترجموها له من الفرنسية إلى العربية "حمد الله" لأنّ نصّها بالفرنسية لم يقع في أيديهم . والغريب انّه عندما وردت إليه رسالة الأفغاني التي أُرفقت بنصّ رسالته بالفرنسية إلى الديبا ، لم يكترث على الإطلاق بمضمون هذه الأخيرة بعد ترجمتها . وكأنّه لم يفاجأ بموقف الأفغاني فيها ، وإنّما كان همّه الأوحد ألّا يعرف "صاحبه الأوّل" المتديّن بمضمونها ، والأغرب انه لم يتجرّأ على مصارحة صاحبه هذا بأنّ نصّ الرسالة قد وصله إنّما وعده " أنّ الأصل سيحضر " ، "فاندفع المكروه" أي انّه ارتاح لعدم وقوعها بين يدي صديقه المتديّن . أمّا عبارة " لا تقطع رأس الدين إلّا بسيف الدين" فالقصد منها غير واضح رغم الشروحات التي أعطيت لها والتي كان التناقض سمتها الغالبة(١) .

وممّا يزيد الأمر غموضا وتعقيدا اختفاء النصّ العربي لرسالة الأفغاني التي بعث بها إلى الديبا . وحتّى عندما أراد الأفغاني إطلاع عبده عليها فإنّه أرسل إليه النصّ بالفرنسية لا بالعربية ، كما أنّ رسالته إلى عبده في هذا الموضوع اختفت هي أيضا . ونحن نميل إلى الإعتقاد بأنّ اختفاء

---

١ ــ فسّر شلش هذه العبارة بقوله إنّ عبده قصد بـ "سيف الدين" القرآن وبـ " رأس الدين" الحاكم الخليفة . أنظر :
عبده ، الأعمال المجهولة . من تمهيد شلش للرسالة ، ص ٤٥ .
أمّا ايلي كدوري فذهب إلى حدّ اعتبار هذه العبارة دليلا على إلحاد عبده فضلا عن أستاذه الأفغاني . أنظر :
Elie Kedourie, Afghani and ʿAbduh, p. 45.
نذكره من بعد باسم : Afghani .

رسالتي الأفغاني إلى كلّ من الديبا وعبده لم يكن من قبيل الصدفة أو الإهمال ، بل كان أمرا حرص عليه المفكّران المسلمان ولا سيّما عبده الذي حاول في ما بعد أن يُخضع أفكار الأفغاني لعمليّات تشذيب وتجميل كي تلائم المحيط الذي كان يصبو إلى الإطّلاع عليها .

ز — ملاحظات رينان حول تعليق الأفغاني

أمّا رينان ، فما إن قرأ رسالة الأفغاني في الديبا حتّى أسرع إلى التعليق عليها في الجريدة نفسها في اليوم التالي ، أي في ١٩ أيار[١] ، وقد بدأ رينان مقالته بمدح الأفغاني فوصفه بأنّه " آسيوي مستنير" وقال إنّ أفكاره العقلانية تقنعنا بأن العقل يقرّب بين الناس في كلّ أنحاء المعمورة وبأنّه لا يوجد في الحقيقة سوى عقل واحد . ووحدة الفكر البشري هي النتيجة التي تبعث في النفس العزاء ، وهي لا تكون إلّا بتنحية الإدّعاءات المتناقضة للأديان فوق الطبيعة . ثمّ تحدّث رينان عن لقائه بالأفغاني فوصف الأثر الذي أحدثه هذا الرجل في نفسه ، وقال إنّ الحديث الذي داربينهما هو الذي دفعه إلى اختيار موضوع محاضرته في السوربون كما أشرنا .

١ــ وردت ترجمة بعض فقرات هذا التعليق في :

أمين ، زعماء الإصلاح ، ص ٩١ .

وشلش ، الأفغاني في ردّه على رينان ، ص ٥٤ ــ ٥٥ .

غير أنّ هاتين الترجمتين غير وافيتين لا سيّما أنهما أغفلتا أفكارا هامّة أوردها رينان .

" فالشيخ جمال الدين هو أفغاني متحرّر تماما من أحكام الإسلام المسبقة . وهو ينتمي إلى هذه السلالات النشيطة في إيران القريبة من الهند حيث لا يزال الفكر الآري يعيش بنشاط تحت القشرة السطحية للإسلام الرسمي . وهو يمثّل أفضل برهان على تلك البدهية الكبرى التي أعلنّاها مرارا وهي أنّ الأديان تقيّم بالأجناس التي تعتنقها .وقد جعلني تحرّر تفكيره وشخصيّته النبيلة الوفيّة أتمثّله ، وأنا أتحدّث إليه ، واحدا من معارفي القدامى وقد عادت إليه الحياة ، مثل ابن سينا وابن رشد ، او سواهما من أولئك الملحدين العظام grands infidèles (١) الذين مثّلوا تقاليد الفكر البشري لمدّة خمسة قرون . ويا لها من مفارقة شديدة حين رحت أقارن بين ظهوره المثير هذا وما يدور في البلدان الإسلامية الواقعة إلى جانب بلاد فارس ، حيث يندر وجود الفضول العلمي والفلسفي . فالشيخ جمال الدين إنّما يقدّم أفضل حالات الاحتجاج العرقي على الفتوحات القائمة على الدين . وهو يؤكّد ما قاله غالبا المستشرقون الأوروبّيون الأذكياء ، من أنّ أفغانستان هي البلد الوحيد في آسيا كلّها، باستثناء اليابان ، الذي يمكن أن يشكّل ما نسمّيه أمّة" (٢) .

---

١ ــ الطريف أنّ بعض الكتّاب لم يجرؤوا على نقل عبارة رينان هذه حرفيّا فحذفوا منها كلمة "الملحدين" ، فأصبحت : من اولئك العظام !. أنظر :
الأفغاني ، الأعمال الكاملة ، ص ١١ . من نبذة كتبها محمّد عمارة عن حياة الأفغاني . ومحمّد طاهر الجبلاوي ، جمال الدين الأفغاني ، حياته وآراؤه ، ص ٦٦ .
أمّا سليم عنحوري الذي قال إنّ الأفغاني "برز في علم الأديان حتّى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدم العالم" ، فعاد عن كلامه إثر حديث أجراه في بيروت مع محمّد عبده الذي أقنعه ــ حسب قول رشيد رضا ــ بأنّه كان مخطئا وبادر إلى إعلان ذلك في الجرائد . أنظر : قدري قلعجي ، جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق ، ص ٥٧ . ثمّ : رشيد رضا ، تاريخ الشيخ محمّد عبده ، الجزء الأوّل ، ص ص ٤٩ ــ ٥١ .

٢ ــ Débats du 19 Mai 1883

بعد مدح رينان للأفغاني وتأكيده ثانية على تفوّق الآريّين ينتقل إلى التعليق على مضمون رسالة الأفغاني فيقول إنّه لا يختلف فعليًا وإيّاه إلّا حول نقطة واحدة هي أنّ الأفغاني لا يقبل الإيضاحات التي يدفعنا النقد التاريخي إلى استخلاصها . فالامبراطورية الرومانية جعلت من اللّغة اللّاتينية وسيلة التعبير عن الفكر البشري حتّى القرن السادس عشر في الغرب كلّه . لكنّ هذا لا يعني أنّ كلّ ما كُتب باللّاتينية يعبّر بالضرورة عن مجد روما ،كما أنّ ما كُتب باليونانية أو بالعربية ليس كلّه هيلينيًا أو عربيًا . وليس كلّ ما يجري في بلد مسيحي هو من أثر المسيحية ولا كلّ ما يحدث في بلد مسلم هو ثمرة الإسلام . إنّ هذه الإيضاحات ضرورية إذا رغب المرء في أن لا يكون التاريخ نسيجا من التقديرات التقريبية ومن سوء الفهم . ويضيف رينان :

" ثمّة نقطة واحدة بدوت وكأنّني ظلمت فيها الشيخ إذ انّني لم أوضح بمقدار كاف الفكرة القائلة إنّ جميع الأديان الموحى بها تضمر العداء للعلم الوضعي ،وانّ المسيحية في هذا الخصوص ليست أرفع شأنا من الإسلام . هذا أمر لا شكّ فيه. فغاليله لم يلق على يد الكاثوليكية معاملة أفضل من تلك التي لقيها ابن رشد على يد الإسلام . إنّ غاليله قد عثر على الحقيقة في بلد كاثوليكي بالرغم من الكاثوليكية ،مثلما ان ابن رشد تفلسف في بلد مسلم بالرغم من الإسلام . وإذا كنت لم ألحّ على هذه النقطة فلأنّ آرائي في هذا الشأن معروفة بما فيه الكفاية ولا حاجة بي إلى تكرارها أمام محفل قد اطلع على أعمالي . لقد قلت مرارا إنّ على الفكر البشري أن يتحرّر من كل ايمان بالخوارق إذا كان يريد أن يعمل في مشروعه الأساسي وهو بناء العلم الوضعي . وهذا لا يتطلّب تهديما عنيفا للدين ولا يقتضي قطيعة فجائية . فليس على المسيحي أن يتخلّى عن المسيحية ولا على المسلم أن يتخلّى عن الإسلام . إنّما على الفئات المستنيرة في كلتا الديانتين الوصول إلى حال من اللامبالاة الخيّرة بحيث يصبح الإيمان الديني بعيدا عن الأذى.

"وقد حصل هذا الأمر في نصف البلدان المسيحيّة تقريبا، ولنأمل أن يحصل الأمر نفسه في الإسلام أيضا .وحينئـذ نتّفق أنا والشيخ ونشرع في التصفيق معا .

لم أقل إنّ جميع المسلمين ، دونما تمييز بين سلالاتهم ، هم جاهلون وسيكونون دوما جاهلين . بل قلت إنّ الإسلام يخلق مصاعب كبيرة أمام العلم ، وهو قد نجح لسوء الحظّ، منذ خمسة قرون أو ستّة ، في القضاء على العلم في البلدان التي سيطر عليها . وكان هذا الأمر سببا في جعل تلك البلدان ضعيفة جدّا . فأنا أعتقد أنّ بعث البلدان الإسلامية لن يكون بواسطة الإسلام بل انه يتمّ بإضعاف الإسلام . والبلدان المسمّاة مسيحيّة هي أيضا قد بدأت بالنهوض عندما هدمت سلطة الكنيسة المستبدّة في العصر الوسيط . لقد رأى بعض الأشخاص أنّني في محاضرتي هذه قد ناصبت المسلمين العداء . غير أنّني لم أقصد إلى هذا أبدا ، فالمسلمون هم أوّل ضحايا الإسلام . وقد لاحظت مرّات عدّة خلال اقامتي في الشرق أنّ التعصّب الديني يبثّه عدد قليل من الأشخاص الخطرين الذين يرغمون الآخرين على ممارسة الشعائر الدينية . إنّ تحرير المسلم من دينه هو أفضل خدمة نستطيع أن نقدّمها له . وإذا أنا تمنّيت لهذه الشعوب الإسلامية التي تضمّ عناصر جيّدة كثيرة أن تتخلّص من النير الذي يثقل كاهلها ، فأنا لا أعتقد أنّني أكون بذلك قد أضمرت لها أيّ سوء . وبما أنّ الشيخ جمال الدين يريدني أن أكون عادلا في نظرتي إلى جميع الديانات ، فإنّني أعتقد أنّي لست أبغي أي شرّ إذا ما رغبت في أن تتضاءل سيطرة المسيحية في بلدان أوروبّية معيّنة" (١).

من هنا يستنتج رينان :

١ــ Débats du 19 Mai 1883

"أن الخلاف بين المتحرّرين حول هذه النقاط ليس عميقا جدّا لأنّهم سواء أكانوا مؤيّدين للإسلام أم مناهضين له، فهم يصلون إلى النتيجة ذاتها وهي نشر الثقافة التي تنمّي العقل بين المسلمين. وأنا أكون سعيدا إذا شارك الزعماء الدينيّون المسلمون في هذا العمل الممتاز، غير أنّني بصراحة أشكّ قليلا في إمكان حصول ذلك. من الممكن أن تظهر شخصيّات متميّزة (وقليلون هم الذين يتمتّعون بالصفات المتميّزة التي يتحلّى بها الشيخ جمال الدين) تبتعد عن الإسلام، كما نبتعد نحن عن الكاثوليكيّة. ومع مرور الزمن ستخرج بعض البلدان عن دين القرآن. إلّا أنّني أشكّ في أن تقوم هذه النهضة بدعم من الإسلام الرسمي. فالنهضة العلمية في أوروبا هي أيضا لم تقم بدعم من الكاثوليكية بل قامت رغما عنها. والكاثوليكية ما زالت تحارب لتحول دون قيام ما يختصر قانون البشرية العقلاني، أي الدولة الحياديّة اللادينيّة." (١).

ويخلص رينان إلى أنّ واجب المجتمع المدني يكمن في عدم هدم الأديان، بل في معاملتها برفق باعتبارها مظاهر حرّة للطبيعة البشرية. ولكن يجب ألّا نؤمّن لها الحماية، وخصوصا ألّا ندافع عنها أمام المؤمنين بها الذين يميلون إلى الإنفصال عنها. وإذا ما تغيّر وضعها إلى آخر شبيه بوضع الأدب والذوق وسواهما من المسائل الفردية والحرّة فإنّها تتغيّر على نحو كلّي لأنّها إذا حُرمت من الرابط الرسمي فهي تتحرّر وبالتالي تتخلّص من القسم الأكبر من مساوئها. ويضيف: كلّ ما أقوله هو طوباوي utopie في الوقت الحاضر، ولكنّه سيصبح حقيقة في المستقبل. أمّا كيف تتصرّف كلّ ديانة حيال نظام الحرّية الذي سيفرض نفسه على

١ــ هذه الفقرة الأخيرة وتلك التي سبقتها لم يتطرّق إلى مضمونها الهامّ لا شلش ولا أمين.

المجتمعات البشرية ،فهذا أمر لا نستطيع مناقشته في عدّة سطور . لقد أردت في محاضرتي أن أعالج فقط مسألة تاريخيّة . ويبدو لي أن الشيخ جمال الدين قد زوّدني بآراء هامّة حول نظريتي الأساسيّة في أنّ الإسلام لم يحل في النصف الأوّل من وجوده دون استقرار الحركة العلمية في الأراضي الإسلامية ،غير أنّه في النصف الثاني خنق الحركة العلميّة وهي في أحضانه ،فكان هذا من سوء طالعه (١).

يتّضح من تعليق رينان هذا على رسالة الأفغاني أنّه عاد فأكّد أنّ اللّغة التي تُكتب بها العلوم لا أهمّية كبرى لها حتّى ننسب هويّة هذه العلوم إليها ،كما اعتبر أنّ انبعاث البلدان التي تعتنق الإسلام لن يتمّ بواسطة الإسلام بل انه يكون بإضعافه(٢) .

ح — أثـــر المحاضـرة المستـمرّ

إلى هنا طويت قضية المحاضرة وردود الفعل التي أثارتها ، على الأقلّ ضمن نطاق المجابهة المباشرة الواضحة . ولكن ، يحقّ لنا أن نتساءل عن مدى الدور الذي أدّته هذه المحاضرة ،وما تبعها ،في قيام جمعية "العروة الوثقى" التي أسّسها الأفغاني وعبده بعد حوالي السنة في باريس،

١ــ Débats du 19 Mai 1883

٢ــ لن أتعرّض لآراء المخزومي وأمين اللّذين اعتبرا أنّ رينان قد رجع في تعليقه على رسالة الأفغاني عن كثير من آرائه السابقة ،لأنّ هذه الآراء ليست بحاجة إلى تعليق . أنظر :
أمين ، زعماء الإصلاح ،ص ٩١ .
والمخزومي ، محمد باشا ، خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني، ص٥٦ .

لا سيّما من حيث اهتمامها بموضوع أسباب ضعف المسلمين ومعالجة هذه المشكلة . وكأنّ هذين المفكّرين ، وخصوصا عبده ، آثرا ألّا يُنشر الحوار الذي دار بين رينان والأفغاني بالعربية خوفا من نقمة المتشدّدين دينيّا ، لا سيّما إذا نظرنا إلى النهج الأوروبّي غير المألوف الذي اتّبعه الأفغاني في توجّهه إلى مفكّر أوروبّي كرينان . وقد وجدا أنّه من الأنسب طيّ تلك الصفحة الخطرة واستبدالها بصفحات "العروة الوثقى"[١] التي اختلف أسلوبها تماما عن أسلوب الأفغاني السابق. صحيح أنّ هذه الجريدة لم تأت على ذكر ما جرى بين المفكّرين الفرنسي والأفغاني ، غير أنّ هذا يعني — بل ربّما يؤكّد — أنّ الأفغاني وعبده قد كتبا فيها ما كتباه وطيف رينان ما يزال ماثلا أمامهما .

ومضى أربعون عاما غابت فيها هذه المسألة حتّى كان عام ١٩٢٣ فأقامت الجامعة المصرية في شهر آذار احتفالا بالذكرى المئويّة الأولى لمولد رينان . وفي ٢٠ آذار ألقى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وهو أستاذ في الجامعة ، محاضرة بعنوان " الفيلسوف رينان وجمال الدين الأفغاني " . ونشرت جريدة "السياسة" المحاضرة في اليومين التاليين . فأثارت هذه المحاضرة اشمئزاز المعجبين بالأفغاني ، ولا سيّما محمّد رشيد رضا الذي خرج من المحاضرة ساخطا على الجامعة التي تحتفل بذكرى "هذا الملحد الطاعن في دين الإسلام" على حدّ تعبيره[٢] . ونقل رضا أنّ عبد الرازق اعتبر أنّ

١ــ صدرت جريدة "العروة الوثقى" التي حملت أفكارهما من آذار إلى تشرين الأوّل ١٨٨٤ .

٢ــ شلش ، الأفغاني في ردّه على رينان ، ص ٥٦ .
نقلا عن المنار ، المجلّد ٢٤ ، الجزء ٣ ، ص ٢٠٣ .

معتقدات الأفغاني قد تغيّرت بعد وصوله إلى باريس، فصار يهاجم الأديان ويعتبرها عدوّة العلم والعقل والمدنيّة، ولذا تقبّل محاضرة رينان(١). فكتب رضا في اللّيلة ذاتها التي سمع فيها المحاضرة، تعليقا نشرته جريدة " الأهرام " في اليوم التالي، وأعاد هو نشره في مجلّته " المنار " مع مقال له مطوّل عن الموضوع. وممّا جاء في تعليقه أنّ أستاذه محمّد عبده ذكر له أنّ رأي أستاذه الأفغاني في الدين والعلم مفاده أنّ

> "الإسلام دين العقل والحكمة والفلسفة الصحيحة، وأنّه لولا هدايته لما انتقل العرب من الأمّية إلى أعلى ممّا كان عليه جميع البشر. لكنّ المسلمين ابتدعوا في الإسلام بدعا كثيرة لم يمكن تداركها بسبب فساد نظام الخلافة.. وبهذا الابتداع الذي صار إسلام القرآن فيه غير إسلام المنتسبين إليه، أضاعوا العلم به، ثمّ عادوا كلّ علم .." (٢)

ويضيف رضا نقلا عن عبده: وكأنّ الأفغاني يقول لرينان:

> "كلّ ما ذكرت من عداوة الإسلام للعلم، ممّا تكثر الشواهد عليه في التاريخ، وإن كانت قليلة في عهد الإسلام بالنسبة إلى غيره من الأديان، فهو الإسلام الذي فهمه خطأ أولئك الذين عادوا العلم والعقل والحضارة، لا إسلام القرآن الذي يخاطب العقل ويرفع شأن العلم في آيات كثيرة.." (٣)

١ــ Kedourie, Afghani, p.45-46
نقلا عن المنار، المجلّد ٢٤، ص ٣١١. ولم يشر كدوري الى رقم الجزء من هذا المجلّد.

٢ــ شلش، الأفغاني في ردّه على رينان، ص ٥٦.
نقلا عن المنار، المجلّد ٢٤، الجزء ٤، ص ٣٠٦ ــ ٣٠٧.

٣ــ المصدر نفسه.

يُخيّل إليّ أنّ عبده كان مهتمّا بأن يدبّج أقوال الأفغاني كي تصبح مقبولة لدى أهل السنّة وحتّى تتغيّر صورته التي طبعت في الأذهان إثـــر ردّه على رينان . فكان عبده حريصا بذلك على تفسير آراء الأفغاني بالطريقة التي يراها هو مناسبة . وقد تبنّى رضا بدوره هذه التفسيرات وذهب إلـى أنّ محمّد عبده قصد في كتابه "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" إلـى شرح رأي الأفغاني في ردّه على رينان(١) .

ط ـ محمّـد عبـــده

لقد شرح عبده أقوال الأفغاني وفي باله محو كلّ ما من شأنه أن يشعر المتديّنين بأنّ الأفغاني قد سلّم بقول رينان إنّ الإسلام قد اضطهد العلم . والواقع أنّ هذا الأمر هو مثال على الاختلاف الكبير الذي بدأ يظهر بين أسلوب الأفغاني وأسلوب عبده في معالجة القضايا الدينية والسياسية التي أدّت من بعد ، بالإضافة إلى اختلافات أخرى أساسيّة ، إلى خلق هوّة بيـــن الرجلين . فأسلوب الأفغاني هو أسلوب ثوري مباشر في حين أنّ عبده كان يؤثر الكتمان ويتوخّى الحذر . كما أنّ العمل السياسي الذي دأب الأفغانـــي على ممارسته كان بالنسبة إلى عبده عملا مرذولا . كذلك كانت مواقفهما مـــن الإنكليز والفرنسيّين متباعدة إلى حدّ التناقض . وقد يكون موقف عبده السلبي من الفرنسيّين ، بخلاف موقف الأفغاني منهم ، قد ساعده على مواجهة رينان

١ـ شلش ، الأفغاني في ردّه على رينان ، ص ٥٧ .

بحدّة أكبر . ويبرز موقف عبده السلبي هذا من النهج الفرنسي في انتقاده المدارس التي أنشأها محمّد علي بإشارة من الفرنسيّين لأنّها أهملت تعليم التربية التي كان هو يوليها اهتماما كبيرا(١) . وقد عمد عبده أيضا إلى الردّ على المفكّرين الفرنسيّين الذين ناقشوا مدى قدرة الإسلام على مواجهة تحدّيات المدنية الحديثة . فعندما كتب غبريل هانوتو وزير الخارجية الفرنسية سنة ١٩٠٠ مقالا بعنوان : "وجهها لوجه مع الإسلام والمسألة الإسلاميّة" في الجورنال دو پاري Journal de Paris ، أثار هذا الموضوع حماسة محمّد عبده فردّ عليه في جريدة " المؤيّد "(٢) ، ونُشر هذا الردّ في كتاب عبده " الإسلام دين العلم والمدنيّة" . وقد شبّه هانوتو فيه بذلك الراهب الذي أثار الحروب الصليبيّة (٣) . والواقع أنّ عبده قد هدف في كتابه هذا

١ــ عبده ، الأعمال الكاملة ، ٣/ ١٠٩ .
والّلافت أن موقف عبده من الانكليز هو أيضا مناقض لموقف الأفغاني السلبي منهم . فعبده يعتبر أنّ "الأمّة الانكليزية هي الأمّة المسيحية الوحيدة التي تقدّر التسامح حقّ قدره" . أنظر :
محمّد عبده ، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنيّة ، ص ١٨٠ . نذكره من بعد باسم الإسلام والنصرانية .
وعندما تلكّأ عبده في الانخراط في العمل السياسي لمواجهة الانكليز وفضّل عليه إنشاء مدرسة تُعنى بإعداد النجباء للزعامة والإصلاح اتّهمه الأفغاني بالتشاؤم والانهزامية وتثبيط الهمم . أنظر :
أمين ، زعماء الإصلاح ، ص ٨٠ .

٢ــ عبده ، الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ٣٧ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(١٨٧٤ـ١٩٢٢)

إلى الردّ على رينان وفرح أنطون، بالإضافة إلى هانوتو، فذكر رأي رينان في الإسلام في صفحة واحدة نقلها عن مجلّة "الجامعة" ثم أفرد عشرين صفحة للردّ عليه(١). ونحن نعتقد أنّ اهتمام الإمام بما كتبه رينان لا ينحصر مطلقا في إطار هذا الردّ الذي وجّهه إليه علنا، بل هو يظهر في معظم ما كتبه عبده حول الإسلام والمسلمين، لا سيّما أنّ فرح أنطون، صدى رينان المشرقي، قد تطرّق هو أيضا وبتأثير من رينان نفسه إلى الحديث عن العلاقة بين الإسلام والعلم. وكانت تربط بين عبده وأنطون صلة وثيقة ولكنّها غير مباشرة. فعندما أصدر أنطون مجلّة الجامعة أثنى عليه عبده وكان هذا الثناء حافزا على مراسلات دارت بينهما في ما بعد(٢). ويبدو أنّ عبده كان يرغب في لقاء أنطون إذ يقول في رسالة إلى رشيد رضا: "لم أر فرحا إلى الآن، ولا أدري هل أراه غدا؟ ..."(٣). غير أنّ رغبة عبده في لقاء صديقه لم تتحقّق. لكنّ هذه العلاقة قد اعتراها بعض التوتّر في إثر مقالة لخّص فيها أنطون فلسفة ابن رشد ونشرها في مجلّة "الجامعة" التي كان يصدرها. وقد انطلق في هذه المقالة، بتأثير من رينان، من شعور لا ديني لديه. غير أنّ عبده رأى أنّه يميّز في موقفه المسيحية عن الإسلام فكتب في "المنار" يردّ عليه. وقد نُشرت مقتطفات من هذه المناظرة الفكرية في الكتاب الذي وضعه في ما بعد أنطون عن ابن رشد كما نُشرت مقتطفات أخرى منها في أعمال عبده الكاملة.

١ـ عبده، الإسلام دين العلم والمدنية، ص ص ١٣٠ ـ ١٥١.

٢ـ عبده، الأعمال الكاملة، ٣/ ١٣٤.

٣ـ المصدر نفسه، ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

وقد كتب عبده هذه الرسالة في الاسكندرية، وذلك في السادس من آب سنة ١٩٠٢.

يقول عبده إنّ جمود المسلمين الذي يعزوه رينان إلى الإسلام ، إنّما سببه دخول عقائد غريبة على هذا الدين وليس الدين نفسه . وفي هذا يقول مخاطبا رينان :

"فجلّ ما تراه الآن ممّا تسمّيه إسلاما فهو ليس بإسلام، وإنّما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحجّ ، ومن الأقوال قليلا منها حُرّفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذي ذكرته وعدّوه دينا ، نعوذ باللّه منهم وممّا يفترون على اللّه ودينه ، فكلّ ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام، وإنّما هو شيء آخر سمّوه إسلاما" (١) .

ويعتبر عبده أنّ الإسلام لم يدع أبدا إلى تعطيل عمل العقل (٢) . وهو يؤكّد على الدور الحضاري الذي قامت به هذه الديانة بالنسبة إلى عرب الجاهلية (٣) . ويقارن بين موقف كلّ من الإسلام والمسيحية من العقل فيجد أنّ الإسلام فاق المسيحية في إطلاق قيود العقل لأنّه يتحدّى البشر من ضمن المتعذّر الممكن ، كإعجاز القرآن مثلا، في حين أنّ المسيحية تتحدّاهم من ضمن المتعذّر المستحيل ، كما في معجزات إحياء الأموات او الشفاء من العلل (٤) .

١ــ عبده ، الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ص ١٣١ ــ ١٣٤ .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٧٨ و ص ١١١ .

٣ــ عبده ، المسلمون والإسلام ، ص ٨٩ــ ٩٠ .

٤ــ عبده ، الإسلام والنصرانية ، ص ص ٥٨ ــ ٦١ .

واعتبر الإمام في ردّه على فرح أنطون أنّ المسلمين لا يجوز لهم اذا هم التزموا بدينهم أن يرفضوا السببيّة في حين أنّ ما جاء في الكتاب المقدّس يسمح للمسيحيّين برفضها[١] . وقال إنّ العلماء المسلمين كانوا أكثر تقبّلا للفلسفة والاكتشافات العلمية من المسيحيّين ، فأطلقوا على أرسطو مثلا لقب "المعلّم الأوّل" بينما وصفه لوثر بأنّه خنزير دنس كذّاب[٢] . غير أنّ المسلمين وصلوا في ما بعد إلى حال من الجمود والتخلّف لأنّهم جهلوا دينهم ، وصار الإسلام بعيدا عن الإسلام الحقّ إلى درجة جعلت عمر الخيّام يقول في شعر له بالفارسية مخاطبا النبي : " إنّ الذين جاءوا بعدك زيّنوا لك دينك ووشّوه وزركشوه حتّى لو رأيته أنت لأنكرته"[٣] . ويعتبر عبده أنّ هذا الجمود الذي يصيب المسلمين قد أوقف مسار العقل ، وأصبح المسلمون ينقلون حتّى عن الذين ليسوا أهلا للثقة[٤] .

لكنّ عبده رفض ما ذهب اليه رينان من أنّ الإسلام ، نتيجة لهذا الجمود ، قد اضطهد العلم والفلسفة ، فراح يتحدّث عن انفتاح المسلمين على أبناء الديانات الأخرى كما على أهل العلم والفلسفة ، مختلفين بذلك عـــن

١ــ عبده ، الأعمال الكاملة ، ٣/ ٤٩٧ و ٥٠٢ .

٢ــ عبده ، الإسلام والنصرانية ، ص ٤٤ .

٣ــ عبده ، الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ص ١٥٩ ــ ١٦١ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ص ١٣٥ ــ ١٤٢ .

المسيحيّين الذين عاملوهم معاملة سيئة[١] . واعتبر أنّ ما ذهب إليه أنطون من أنّ التعصّب الديني عند المسلمين أشدّ ممّا هو عليه عند المسيحيّين غير صحيح على الإطلاق . فالمسلمون لا يعدو تعصّبهم نطاق التعبير اللفظي في حين أنّ المسيحيّين يمارسون التعصّب ممارسة حقيقية[٢] . وكان أنطون قد اعتبر أنّ المسيحيّة هي أكثر تساهلا من الإسلام لأنّ العلم والفلسفة استطاعا التغلّب في اوروبا على الاضطهاد المسيحي في حين أنّهما أخفقا في التغلّب على الاضطهاد الاسلامي ، فأجابه عبده قائلا إنّ ما سمّاه تسامحا وحلما عند المسيحيين ليس في الواقع الّا استكانة وعجزا[٣] . وللتأكيد على تسامح المسلمين والعرب يستشهد عبده بما قاله غوستاف لوبون Gustave Le Bon[٤] من أنّ العرب هم "أوّل من علّم العالم كيف تتّفق حرّية الفكر مع استقامة الدين"[٥] . ويذكر عبده أيضا في هذا الصدد أنّ أبا العلاء المعرّي قال في الدين ما لم يقله ڤولتير وروسو ، ومع ذلك فقد مات على فراشه ، وقبره اليوم هو بمثابة مزار[٦] . غير أنّ عبده سلّم في موضع آخر بأنّ الفتن التي أثارها اعداء الإسلام في

١ــ عبده ، الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ١٠٤ ــ ١٠٥ وص ١٢٢ وص ١٥٦ .
وأيضا عبده ، المسلمون والإسلام ، ص ١٤٣ وص ١٨٥ .
والإسلام والنصرانية ، ص ٢٢ــ ٢٣ .

٢ــعبده ، الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ٩٦ ، ١٥٣ وص ١٦٥ .
وأيضا المسلمون والإسلام ، ص ١٤١ــ١٤٢ .
والإسلام والنصرانية ، ص ص ٣٨ ــ ٤٠ .

٣ــ عبده ، الاسلام دين العلم والمدنية ، ص ١٥٢ وص ١٥٥ .

٤ــ Gustave Le Bon طبيب وعالم اجتماعي فرنسي (١٨٤١ ــ ١٩٣١) . له مؤلّفات كثيرة في العلوم الاجتماعية والنفسية . من كتبه "حضارة العرب" La civilisation des Arabes ، وقد أصدره عام ١٨٨٤ .

٥ــعبده ، الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ١٢٠ .

٦ــعبده ، الإسلام والنصرانية ، ص ٢٣ .

الشرق والغرب قد أدّت الى تطرّف ديني وإلى قيام عداء بين العلم والفكر مع أنّ الإسلام يوجب الاهتمام بهما. واعتبر أنّ الاضطهاد الذي مارسه المسلمون لم يكن الا نتيجة جهل هؤلاء لدينهم، ولا يكون الحلّ إلّا بالعودة إلى هذا الدين(١). وقال إنّ العامّة، سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيّين، يكرهون أهل العلم لأنّ الانسان ينفر عادة من كلّ ما يجهله(٢).

وكان أنطون قد اعتبر أنّ الخلافات التي دارت بين المسلمين في ما بينهم قد نشأت بسبب اختلافات في معتقداتهم الدينية، فأكّد عبده أنّ هذه الخلافات لم تنشأ الا لأسباب سياسية(٣). وقد شنّ عبده حربا على السياسة واصفا إيّاها بأنّها "تلك الشجرة الملعونة في القرآن"(٤).

وفي موضوع العلمنة كان أنطون قد اعتبر، بتأثير من رينان، أنّ المسيحيّة فصلت بين السلطتين الدينية والزمنية عندما قال المسيح للمرائين "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله". فرفض عبده تفسير أنطون لهذه العبارة وأصرّ على أنّ العلم لا علاقة له بالأمور الدنيوية ولا يمكن الا أن يكون خاضعا للسلطة الروحانية الدينية(٥). وقد اعتبر أنطون أنّ ثمّة فصلا تامّا بين العقل

١ــ عبده، الاسلام دين العلم والمدنية، ص ١٦٢.
٢ــ المصدر نفسه، ص ١٦٢ ــ ١٦٣.
٣ــ عبده، الاسلام والنصرانية، ص ١٣.
٤ــ عبده، الاسلام دين العلم والمدنية، ص ١٣٢.
٥ــ عبده، الاسلام والنصرانية، ص ٥١ ــ ٥٣.

والدين فقال عبده إنّ هذا الأمر ينطبق على جميع الديانات ما عدا الإسلام. فهذه الديانات كلّما ازدادت لصوقا بعقائدها أنكرها العلم، أمّا الإسلام فله شأن آخر، إذ كلّما توسّع المسلمون في العلوم الدينيّة، فإنّهم يتوسّعون أيضا في العلوم الكونية[١]. ويرفض عبده ما قاله فرح أنطون من أنّ الفصل بين السلطتين قد فسح المجال أمام المسيحيين لأن يكونوا متسامحين مع العلم، معتبرا أنّ هذا الفصل مستحيل وأنّ النزاع بين السلطتين سيبقى مستمرّا، ولن تتمكّن السلطة المدنيّة من التغلّب على السلطة الدينيّة لأنّ هذه الأخيرة تستمدّ حكمها من الله[٢]. كما يرفض عبده أيضا أن تكون بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة أيّة علاقة لأنّ الإنجيل قد أمر أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهد فيها[٣]. غير أنّه يقرّ مع هانوتو في سياق آخر بأنّ أوروبّا لم تتقدّم إلّا بعدما فصلت هاتين السلطتين، ولكنّه يرى أن هذه الطريقة غير مجدية بالنسبة إلى المسلمين إذ أصابهم ويل عظيم عندما كانت السلطة المدنية المتمثّلة بالقوانين المدنية التي وضعتها الدولة العثمانية أو بالمحاكم الأهلية التي أُنشئت في مصر، هي صاحبة الكلمة الأولى، وذلك لأنّ

١ــ عبده، الإسلام دين العلم والمدنية، ص ١٦١.

٢ــ عبده، الإسلام والنصرانية، ص ٥١ــ ٥٢.

٣ــ عبده، الإسلام دين العلم والمدنية، ص ٥٦.

والجدير بالذكر أنّ كثيرين من المفكّرين العرب ناقشوا فكرة ارتباط المدنية بدين من الأديان. فخير الدين باشا مثلا أنكر مثل عبده أن تكون الديانة المسيحية هي السبب في التقدّم الأوروبّي، أنظر: حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ١١٨. أمّا محمد كرد علي، فقال إنّه ليس في الدين الإسلامي ما يحول بينه وبين المدنية. أنظر: محمد كرد علي، أثر المدنية الغربية في البلاد العربية، ص ٨١ ــ وهي مقالة مستلّة من: طه حسين، آراء حرّة.

الأمراء السابقين لم يعتبروا أنفسهم أمراء الدين الإسلامي (١) .

أمّا الذين يحاولون إقناع المسلمين بأنّ التعصّب الديني يصدّ عن المدنية ويحجب نور العلم ، فيردّ عليهم قائلا: "كذب الخراصون .. إنّ الدين أوّل معلّم ، وأرشد أستاذ .. خصوصا دين الإسلام" (٢) . ويبدي عبده تخوّفه من تخلّي بعض المسلمين الذين تثقّفوا ثقافة غربية عن دينهم فيحاول أن يقنعهم بأنّ السياسة الأوروبيّة تستخدمهم لإفقاد المسلمين عصبيّتهم الدينية بعدما تأكّد لها أنّ جنسيتهم تابعة من ولائهم لدينهم. وهو يرى أنّ هؤلاء الأوروبيّين الذين يريدون للمسلمين أن يتخلّوا عن عصبيتهم الدينية هم في الوقت نفسه أشدّ الناس إمعانا في التعصّب الديني (٣) .

ويؤكّد عبده ، في محاولة منه للحؤول دون سير المسلمين على خطى الغرب ، أنّ التعصّب الديني "أقدس وأطهر وأعمّ فائدة" من التعصّب الجنسي ، ثمّ يهاجم الذين يعتقدون أنّ التعصّب الجنسي ، الذي يعبّرون عنه بمحبّة الوطن ، هو من أشرف الفضائل (٤) . ويضيف قائلا إنّه " لا جنسية للمسلمين إلّا في دينهم" (٥) . والسبيل الوحيد لانتشال الأمّة الإسلامية من

١ــ عبده ، الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ٨٥ .

٢ــ عبده ، المسلمون والإسلام ، ص ١٤٠ ــ ١٤١ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ص ١٤٤ــ ١٤٦ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٣ ــ ١٤٤ .

٥ــ المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

حالة الانحطاط التي تعيشها هو في رجوعها إلى قواعد الدين الإسلامي لتأخذ بأحكامه(١) . وقد رأى عبده أنّ الإسلام يحتّم على أبنائه ألا يدينوا لسلطة من يخالفهم(٢) . وذهب إلى أنّ الدولة العثمانية هي وحدها التي تحفظ سلطان الدين وكأنّه اعتبرها امتدادا مشروعا للخلافة الإسلامية، وقال إنّ هذه الخلافة هي التي تبثّ الثقة في المسلمين ، وأمّا "من ظنّ أنّ اسم الوطن ومصلحة البلاد وما شاكل ذلك من الألفاظ الطنّانة يقوم مقام الدين في إنهاض الهمم فقد ضلّ السبيل" (٣) .

ويستغرب عبده ، بعد ما ذكره عن سماحة المسلمين مع أبناء الديانات الأخرى وانفتاحهم على أهل العلم والفلسفة ، كيف يتوقّع بعضهم أن يبقى النفور قائما إلى الأبد بين الإسلام والعلم . فالدين الكامل في نظره هو عقل وقلب . وإذا اقتصر دين من الأديان على أحد هذين دون الآخر فإنّ هذا يؤدّي إلى سقوط إحدى ركيزتيه . وإذا ما دبّ الخلاف بين العقل والقلب فمعنى ذلك أنّ الانسان قد أصبح انسانين وأنّ الوجود الفرد قد غدا وجودين اثنين . ويؤكّد عبده ، بخلاف ما توقّع الأفغاني في تعليقه على

١ــ عبده ، المسلمون والإسلام ، ص ٨٨ .

والّلافت ان رينان هو أيضا كان قد اعتبر أنّ المسيحية يجب أن ترجع إلى الأناجيل لكي تتجدّد . أنظر: Renan, Vie, p. 460- 461

٢ــ عبده ، المسلمون والإسلام ، ص ٣٤ .

٣ــ عبده ، الأعمال الكاملة ، ٣/ ٧٢ ، ومضمون شبيه أيضا ص ٩٧ .
ويبدي عبده إعجابه بالدولة العثمانية وبالسلطان عبد الحميد ويعبّر عن أمله بأن يتمكّن هذا السلطان من إنقاذ المسلمين . أنظر:
عبده ، الإسلام دين العلم والمدنية ، ص ٨٤ .

محاضرة رينان ، أنّه لا بدّ من أن ينتهي الأمر أخيرا إلى التآخي بين العلم والدين ، وأنّ الإسلام لن يقف أبدا حجر عثرة في سبيل المدنية بل هو سيهذّبها وينقّيها من شوائبها ، كما ان الجمود الذي يعتريه سوف يزول (١) .

لقد حرص عبده على أن يثبت أنّ الجمود الذي يصيب المسلمين اليوم سببه المسلمون الذين ضلّوا دينهم لا الإسلام نفسه ، كما حرص على التأكيد بأنّ الإسلام يدعو إلى العلم واستعمال العقل وأنّه في النهاية لن يعترض سبيل المدنية . ويبدو الإمام في ذلك وكأنّه يردّ على الأفغاني فضلا عن رينان وأنطون .

٣ـ التيّـــار اللادينـــــي

وسط هذه التيّارات الدينية من مسيحيّة وإسلامية برز في الفكـر العربي تيّار مختلف كلّ الإختلاف اتّبع أربابه النهج العلماني . وإن كان بعض روّاد هذا التيّار ، مثل يعقوب صرّوف (١٨٥٢ـ ١٩٢٧) مؤسّـــس المقتطـف احدى أهمّ المجلّات العلمية العربيـة ، قد تأثّروا بالتيّار الوضعي في الغرب عموما ، فإنّ بعضهم الآخر أبدى تأثّرا واضحا برينان تحديدا . وخير من يمثّـل هؤلاء هو فرح أنطون الذي اضطررنا إلى الوقوف علـــى لمحات من آرائـه عند كلامنا علـى المناظـرة الصحافيـة التي جـرت بينـه

١ـ عبده ، الإسلام دين العلم والمدنية ، عرض ١٤٨ ـ ١٥١ .

وبين عبده . وسوف نقصر كلامنا في الحديث عنه على مدى تأثره برينان وعلى موقفه من موضوع الإسلام والعلم .

أ ـ فرح أنطون

قد يكون كتاب رينان عن حياة المسيح هو الذي عرّف فرح أنطون ، صاحب النزعة اللادينية ، إلى رينان ودفعه إلى أن يعجب به . فقد عرّب أنطون هذا الكتاب ونشره في "الجامعة" قائلا إنّ رينان " ترتعد من ذكره فرائص المتغطرسين والمتعصّبين من رجال الدين"(١) . وقد مرّ أن أنطون كان قد كتب في " الجامعة" مقالة عن ابن رشد عقبها ردّ لعبده في "المنار" . فما كان من فرح أنطون الذي أراد التحقّق من معلوماته الخاصّة بابن رشد إلّا أن رجع إلى كتابين في هذا الفيلسوف كان أحدهما " للفيلسوف رينان المشهور(٢) الذي يعرف الأستاذ محمد عبده إنصافه ونزاهته وبراءته من وصمة التعصّب فضلا عن معرفته اللّغة اليونانية لغة أرسطو واللّغة اللاتينية التي تُرجمت إليها كتب ابن رشد" . وتتّضح ثقة أنطون الكبيرة برينان في

١ـ فرح أنطون ، ابن رشد وفلسفته ، ص ١٤٢ . نذكره من بعد باسم ابن رشد .

٢ـ اللّافت أنّ فرح أنطون ، كما الأفغاني ، يطلق على رينان لقب " الفيلسوف " مع أنّه لم يكن فيلسوفا بالفعل .

قوله أيضا : "ومعلوم أنّ عالما عظيما وفيلسوفا كبيرا مثل رنان لا يقدم على شرح فلسفة ابن رشد .. إلّا بعد درسها درسا دقيقا في كتبها العديدة التي كانت قريبة منه في مكاتب اسبانيا وفرنسا وايطاليا"(١) .

وبعد أن رجع أنطون إلى كتاب رينان عن ابن رشد عاد فوضع هو نفسه كتابا عن الفيلسوف العربي حرص فيه على إبعاد الطابع الطائفي عن المناظرة التي دارت بينه وبين عبده . فقال إنّ موضوع الكتاب فلسفي وليس دينيّا ، "ولوكان دينيّا بحتا كما أوهم سيئوّ القصد لأمسكنا عن الخوض فيه لأنّنا لا ندخل في ما لا يعنينا ولا يفيد الدخول فيه . ولكنّنا نعلم أنّ العلم والفلسفة والأدب إنّما هي ... نِعَم ونفائس مشتركة بين الجميع وليست ملكا لفريق دون فريق ... وكلامنا هنا في الفلسفة والعلم والأدب لا في الدين ..."(٢) . أمّا الذي يتّخذ "المبادئ الدينية الكريمة آلة لترويج بضاعته فالأولى به أن لا يقرأ هذا الكتاب لأنّنا لم نكتبه له"(٣) . فالغرض منه هو "تقريب الأبعاد بين عناصر الشرق وغسل القلوب وجمع الكلمة" . والسبيل إلى ذلك يكون باحترام كلّ فريق رأي الفريق الآخر ومعتقده لأنّ الحقائق والفضائل ليست وقفا على فريق دون آخر ولأنّ الله هو إله الجميع . وتابع يقول إنّ غرضه هو كسر الحدّة والتعصّب في كلّ من الإسلام والمسيحية لأنّ نهوض الشرق وارتقاءه يتوقّف على تحقيق المصالحة بينهما(٤) . وقد أهدى أنطون هذا الكتاب "إلى عقلاء الشرقيين في الإسلام والمسيحية وغيرهما" ،

١ــ أنطون ، ابن رشد ، ص ١١٠ .

٢ــ المصدر نفسه ، التمهيد ، ص ٦ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ٦ــ٧ .

٤ــ المصدر نفسه .

اولئك " العقلاء في كلّ ملّة وكلّ دين في الشرق الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين في عصر كهذا العصر فصاروا يطلبون وضع أديانهم جانبا في مكان مقدّس محترم ليتمكّنوا من الإتّحاد اتّحادا حقيقيّا ومجاراة تيّار التمدّن الأوروبّي الجديد لمزاحمة أهله وإلّا جرفهم جميعا وجعلهم مسخّرين لغيرهم "(١) .

وأضاف قائلا إنّ ركيزة الإصلاح المرجوّ في الشرق هي "احترام حرّية الفكر والنشر احتراما مطلقا لتنجلي الحقائق والمبادئ شيئا فشيئا "(٢) .

وقال أنطون إنّه سعى إلى كتابة الحقيقة دون مراعاة لأحد . ثمّ كرّر ما قاله رينان بعدما اضطهده المسيحيون لكونه كتب تاريخ المسيحيّة كما رآه هو : " لا أكتب إلّا لتقرير الحقيقة ومتى كتب الإنسان لهذا القصد وجب أن لا يعبأ بشيء ولا يتساهل في شيء بل أن يعتبر أنّه يكتب لأرض قفراء لا ناس فيها . وإلّا فكل تساهل منه إهانة للحقيقة ولصناعة القلم المقدّسة "(٣) .

وقال مدافعا عن فهمه لفلسفة ابن رشد إنّه لو اطلع عبده على كتاب رينان في الفيلسوف العربي لتحقّق من أنّه لم ينسب إليه شيئا من عنده . فقد قال رينان إنّ ما ذكره ابن رشد في تعريفه للمادّة وفي كيفيّة الخلق واتّصال الخالق بالكون وفي وصفه للعقل الأوّل واتّصال الإنسان بالخالق بواسطة العلم لا الصلاة ، يجعل مذهب ابن رشد قريبا من مذهب الماديّين لأنّه يقيّد الخالق تقييدا لا يقبله أيّ دين من الأديان . ويعتبر أنطون أنّه إذا كانت الثقة واجبة بفلسفة ارسطو التي نقلها ابن رشد وشرحها رغم عدم معرفته باليونانية فإنّ الثقة واجبة أيضا بفلسفة ابن رشد التي نقلها رينان ، خصوصا

١ــ أنطون ، ابن رشد ، من الاهداء .

٢ــ المصدر نفسه .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .

أنّه يعرف اللاتينية والعبرانية واليونانية والعربية[١] .

أما في ما يتعلّق بموضوع اضطهاد الإسلام للعلماء ، فإنّ أنطون يتراجع عمّا سبق أن قاله من أنّ المسلمين لم يسفكوا قطّ دم إنسان بسبب اشتغاله بالفلسفة والعلم ويعترف بأنّه أخطأ في هذا الموضوع ، لا سيّما بعد أن قرأ ما أورده رينان في كتابه عن ابن رشد حول مهاجمة الفلاسفة في الأندلس وإحراق بيوتهم وزج العلماء في السجون وقتل البعض منهم[٢] . وهو إلى ذلك يوافق على ما ذكره عبده من أنّ ثمّة خلفاء رعوا العلم وأهله، إلّا أنّه يذهب مع ثقات المؤرّخين إلى قسمة الخلفاء قسمين : قسم اعتمد على النساطرة والسريان والفرس واليهود والهنود في نشر العلم والفلسفة، وقسم لم يكن يميل إلى هذه العناصر الغريبة ولا إلى فلسفتها وعلومها لأنّ أصلها اليوناني هو أيضا غريب . ويذكر أنطون ما رواه رينان من أنّ المأمون الذي سمّاه عبده " الخليفة العبّاسي الأكبر " قد أثيرت الشكوك بعد وفاته حول صحّة ايمانه لأنّه كان أكبر محبّذ لعلم اليونان وفلسفتهم[٣] . ويستغرب أنطون استهجان عبده لممارسات رجال الدين المسيحيّين إزاء الفلاسفة والعلماء فيقول له إنّ أيّا من رجال الدين ، سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيّين، لا يجوز له أن يستنكر مثل هذه الأفعال . ويؤكّد أنطون لعبده انه لو كان يومئذ في أوروبا لاضطرّ أن يكون إلى جانب رجال الدين المسيحيّين لا إلى جانب أنصار العلم ، لأنّ أولئك كانوا يقاومون أعتى عدو للدين ، أي العلم الطبيعي . ولذا رفض أنطون ما قاله عبده من أن ذلك الاضطهاد كان لرغبة الكنيسة في استئصال كلّ ما فيه "هداية البشر إلى منافعهم وتنوير بصائرهم" .

١ــ أنطون ، ابن رشد ، ص ١١٠ ــ ١١١ .

٢ــ المصدر نفسه، ص ١٢٦ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

فالكنيسة الغربية كانت تحارب بديوان التفتيش من يسمّيهم المسلمون "زنادقة". وقد فعل المسلمون بالقرامطة والاسماعيلية مثلما فعل المسيحيون بمن خالفهم في العقيدة(١) . ويذهب أنطون إلى أنّ رجال الدين كانوا معذورين في إنكارهم الفلسفة لأن العلم الطبيعي لم يكن قد رفع الغطاء عن النواميس الطبيعية . غير أنّه يرى في اضطهادهم الفلاسفة ذنبا كبيرا لأنّ ذلك ينمّ عن رغبتهم في خنق الفكر لمجرّد انه يذهب مذهبا مخالفا لمعتقدهم(٢) .

وعلى ما قاله عبده في التساهل يجيب أنطون محاولا أن يعرّف كلمة "التساهل" حسب اصطلاح الفلاسفة فيقول إنّها تعني عدم إدانة الإنسان لأخيه الإنسان . إنّ الدين هو علاقة خصوصية بين الخالق والمخلوق ، وليس على الإنسان أن يهتمّ بدين أخيه أيّا كان هذا الدين لأنّ هذا شأن لا يعنيه . واعتبر أنطون أنّ السلطة الدينية لا تستطيع أن تكون متساهلة لأنّ غرضها مناقض لغرض التساهل . فهي تعتقد انها تملك الحقيقة وان قواعدها وتعاليمها هي الحقّ الأبدي الذي لا يداخله أدنى شكّ ، وكلّ ما عداه كفر وضلال . وقال أنطون إنّه من الخطأ أن تتسلّم سلطة كهذه رعاية أبناء الطوائف الأخرى لأنّها في هذه الحال ستكون أمام خيارين: فإمّا أن تضغط عليهم ليعتنقوا دينها ، وإمّا أن تنظر إليهم باحتقار ، فتنشأ في الأمّة عدّة فئات منها العزيزة ومنها الذليلة ، فيسقط الحقّ الإنساني وتبطل فضيلة التساهل(٣) .

ويرى أنطون أنّ المبادئ القائمة على الأسس العقلية هي عدوّة جميع

١ــ أنطون ، ابن رشد ، ص ص ٢٠٢ ــ ٢٠٥ .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .

الأديان[١] . وهو يعجب من قول عبده إنّ الإسلام هو دين العقل "وان الإسلام يقدّم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض" ويرى في هذه الأقوال "ضررا عظيما للدين بدلا من الفائدة"[٢] لأنّ الدين متى صار عقليّا لا يعود دينا بل يصبح علما . فالدين هو الايمان بخالق غير منظور وآخرة ووحي ونبوءة ومعجزات وبعث وحشر ، وهذه كلّها أمور غير محسوسة وغير معقولة، ولا دليل عليها إلّا ما جاء في الكتب الدينية ، ولا يمكن أن يكون في العالم "دين عقلي"[٣] .

ويحاول أنطون أن يفسّر السبب الذي من أجله اعتُبر ابن رشد كافرا فيقول إنّ الفلسفة تبعد الفيلسوف عن بعض القواعد الماديّة التي قد يتّخذها البشر سبيلا إلى عبادة اللّه وتجعله يكتفي بالعبادة بالروح والحقّ . وبما أنّ عامّة الناس لا يفهمون هذه العبادة الروحية ولا يعترفون بأي عبادة تختلف عن تلك التي اعتادوها منذ نشأتهم ، فهم يعزون الكفر إلى كلّ من يروم الخروج عنها قيد إصبع[٤]. كما أنّ فلسفة العرب تجعل العالم خاضعا لنواميس طبيعية . ومن عقائدها أنّ العالم قديم أزلي غير مخلوق ، وأنّ الخالق لا يُحدث في الكون شيئا إلّا بسبب "لازم" . وقد حملت هذه العقائد رجال الدين ، سواء أكانوا يهودا أم مسلمين أم مسيحيّين ، على رفض هذه الفلسفة[٥] .

١ــ أنطون ، ابن رشد ، ص ١٤١ ــ ١٤٢ .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ١٠ .

٥ــ المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

وأراد أنطون أن يضع إطارا تاريخيًا للعلاقة بين الدين والعلم فقال إنّ الدين عندما نشأ كان المدبّر الأوحد لشؤون الإنسانية ، الروحية منها والزمنية ، وكان يومئذ يهزأ بكلّ علم لأنّ العلم كان لا يزال قاصرا . ولكن عندما ثبّت العلم خطواته وتبيّن للهيئات الإجتماعية أنّ الدين عاجز عن توحيد الأمّة ثبتت حاجة الدين إلى العلم في تنظيم ما لقيّ الدين عناء في جمعه ، فعرف العلم قدره وصار ينازع الدين سلطته منذ ذلك الحين . وقد استطاع الدين أن يتغلّب عليه في البدء ، ثمّ لم يلبث أن تفوّق على الدين تفوّقا هائلا عندما اكتُشفت نواميس الكون وقامت "مخترعاته البديعة" (١) . وعندما أصبحت نتائج العلم العملية على هذه الدرجة من الوضوح لم يعد بمستطاع الدين إنكارها ، فادّعى أنّها تنطبق على مبادئه بعدما كان صرف عمره في مقاومتها وراح يمعن في قراءة كتبه ليستخرج منها آيات " يشدّها ويمطّها " ليطبّقها على مبادئه ، فكان فوز العلم بذلك عظيما (٢) .

أمّا المحاولة التي قام بها ابن رشد من أجل التوفيق بين الفلسفة والشريعة فيعتبرها أنطون محاولة مخطئة لأنّ ابن رشد جعل الدين فيها خادما للعلم وتابعا له ، في حين أنّ أنطون يرى أنّه يجب أن تصان كرامة العلم وكرامة الدين معا وذلك بتخصيص دائرة لكلّ منهما يستطيع أن يتحرّك فيها بحرّية تامّة دون أن يكون تابعا للآخر (٣) .

وذهب أنطون إلى أنّ الوحدة الدينيّة التي دعا إليها عبده غير قابلة للتحقيق . لذلك مدح محمّد علي الذي أخمد ثورة الوهّابيّين مدحا عظيما في حين وقف عبده منه موقفا سلبيًا جدًا . وكان عبده قد قال إنّ الفرس

١ــ أنطون ، ابن رشد ، ص ١٤٩ ــ ١٥٠ .

٢ــ المصدر نفسه .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٢٣ .

والأتراك قد أدّوا بعدم فهمهم للإسلام دورا سلبيّا ، فأسف أنطون لهذا القول واعتبر أنّ عبده يلومهم لأحد سببين : إمّا لانهم فهموا دينهم فهما عقليا وجاروا مستجدّات الزمان والمكان حتّى لا تتوقّف أممهم عن السير في ركاب المدنية ، وإمّا لأنّه كان يريد بناء جامعة إسلامية على قواعد عربية[١] . وقد ذهب أنطون مذهبا معاكسا أكّد فيه "بلا مداجاة ولا مصانعة أنّه ما أنقذ الإسلام وحفظه إلى اليوم إلّا الترك والفرس" . فالفرس كانوا من أعظم الذين اشتغلوا في العلم والفلسفة، والأتراك قد حفظوا الإسلام بقوّتهم العسكرية[٢] .

واعتبر أنطون أنّ كلّ "التشعّبات" التي حدثت في الإسلام والمسيحية أمور "طبيعية ضرورية لا بدّ منها" . وأمام هذه التشعّبات لا يمكن أن يُهمَل أصل الأديان كما أنّه لا يمكن العودة إلى هذا الأصل ، خصوصا في هذا الزمن، ولا يبقى سوى حلّ واحد هو فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية، فيُحصر الدين في أماكن العبادة ، كما هي الحال في فرنسا مثلا ، ولا يؤذن له بمغادرتها "لأنّه لا دخل له في الدنيا ولا وظيفة له غير عبادة اللّه"[٣] .

وقد أكّد أنطون ، كما رينان ، أنّ المسيحية قد قامت بهذا الفصل في خطبة المسيح على الجبل وفي قول المسيح "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه" . وهو لا يقبل التفسير الذي يقدّمه عبده ورؤساء الدين المسيحي لهذا القول بل يستعين بشرح رينان له[٤] . وقد نشر أنطون خطبة المسيح واستشهد بما قاله

١ـ أنطون ، ابن رشد ، ص ١٧٦ـ ١٧٧ .

٢ـ المصدر نفسه ، ص ١٧٣ .

٣ـ المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

٤ـ المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .

رينان فيها : "هذه هي الديانة الأبدية . وإذا كان في الأجرام السموية أجرام مأهولة فإنّ ديانتهم لا تكون أرقى منها مهما بلغوا من الارتقاء في سلّم الكمال "(١) . ثمّ شرح الظروف التي جعلت المسيح يفصل بين السلطتين فقال إنّ طبيعة الزمان الذي عاش فيه المسيح هي التي دفعته إلى هذا الأمر . فاليهود زمن المسيح كانوا يخضعون للسلطة الرومانية في روما . وبلادهم كانت مضطربة ، ورؤساء الدين اليهودي كانوا ينتظرون مجيء المسيح ، أي الملك ، الذي يجمع كلمتهم ويحرّر أمّتهم من نير روما . وقد ثار كثير من اليهود على الرومانيين قبل أن يثور المعلّم الناصري عليهم ، ومنهم يهوذا الجليلي الذي حرّض بني وطنه على عدم دفع الجزية إلـــى الرومانيين لأنّها سمة من سمات الذلّ . وقد لقي يهوذا هذا مصرعه ، كما حدث لكلّ يهودي ثائر ، على يد حاكم أورشليم الروماني . ثمّ جاء المسيح بعد مدّة قصيرة فقال عبارته " أعطوا لقيصر ما لقيصر وما للّه للّه" لأنّه كان من المستحيل تحرير الناس من نير القيصر الروماني ، فشدّد بذلك على أنّ الإصلاح إنّما هو في داخل النفوس وليس في خارجها . ثمّ عاد القيصـــر فآمن بالمسيحية ، فكان انتصار المسيح المسلمي عظيما . واعتبر أنطون أنّ المسيحية قد استطاعت بفصلها بين السلطتين الحفاظ على نفسها وعلى المدنية كما استطاعت تحقيق التسامح والتساهل(٢) .

أمّا الظروف التي نشأ فيها الإسلام فتختلف كلّ الاختلاف عن تلك التي نشأت فيها المسيحية . ففي حين كانت المسيحية في وضع دفاعي فإنّ الظروف التي أحاطت ببدء الدعوة الإسلامية قد حتّمت أن تكون شريعة الإسلام هجومية .

١ــ أنطون ، ابن رشد ، ص ١٨٦ .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ١٩٤ .

ولم تكن مبادئ الزهد تجدي هذه الشريعة نفعا لأنّ غايتها كانت الاقبال على الدنيا والسيطرة عليها من أجل اقامة الحقّ فيها . ولذا كان من الضروري آنذاك أن تكون الدنيا مقرونة بالدين[١] .

وقد أكّد أنطون على ضرورة الفصل بين السلطتين قائلا إنّ هذا الفصل وحده هو الذي يؤدّي إلى التسامح الحقيقي . وأورد خمسة أسباب تدعو إلى الفصل بينهما أهمّها إطلاق الفكر الإنساني من كلّ قيد خدمة لمستقبل الانسانية . وثانيها الرغبة في تحقيق المساواة التامّة بين أبناء الأمّة بصرف النظر عن مذاهبهم ، ليكونوا أمّة واحدة ، فتحكمهم سلطة لا تتّبع أيّا من مذاهبهم ويكون "الحق البشري" الذي تدافع عنه فوق الأديان جميعا . أمّا السبب الثالث الذي يدعو إلى عدم تدخّل أيّ من السلطتين في شؤون السلطة الأخرى فهو اختلاف المجالات التي يُعنى بها كلّ منهما إذ إنّ السلطة المدنية تهتم بأمور الدنيا في حين يقتصر تشريع السلطة الدينية على الإهتمام بالآخرة . وأمّا السبب الرابع فيرجع إلى الضعف الذي يلحقه بالأمّة الجمع بين هاتين السلطتين . والسبب الأخير الذي يدعو إلى الفصل هو استحالة تحقيق الوحدة الدينية . ثمّ يوجز أنطون حسنات هذا الفصل فيقول إنّه "لا مدنية حقيقية ولا تساهل ولا عدل ولا مساواة ولا أمن ولا ألفة ولا حرّية ولا علم ولا فلسفة ولا تقدّم في الداخل ... ولا سلامة للدول ولا عزّ ولا تقدّم في الخارج" إلّا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية[٢] .

هكذا تبنّى أنطون مسألة العلمنة رغم ان الصعوبات التي تعترض سبيل تطبيقها في الشرق هي أكبر من تلك التي واجهتها في الغرب ، إذ

١ــ أنطون ، ابن رشد ، ص ١٩٨ .

٢ــ المصدر نفسه ، ص ص ١٥١ــ ١٦٠ .

يتحتّم على الشرقي أن يتخطّى العقدة التي ولّدها في نفسه اختلاف الأديان قبل أن يتمكّن من قبول الفكر العلماني . فكأنّ على الشرقي القيام بخطوتين في هذا السبيل في حين أن الغربي لم يكن مضطرًا إلى القيام بأكثر من خطوة واحدة . وقد يكون الفرق بين علمنة رينان وعلمنة أنطون أنّ هدف رينان كان علميًا ، أي أنّه أراد تحرير العلم من سلطة الدين ، في حين أنّ هدف أنطون كان دينيًا وسياسيًا ، أي انّه أراد أن يقرّب بين المسلمين والمسيحيّين من أبناء الشرق ورغب في أن يقوم بينهم تعاون كي يسيروا في ركاب التطوّر العلمي ويتمكّنوا من مواجهة الغرب .

وإذا كان الحوار المباشر بين رينان والمفكّرين العرب قد توقّف ، فإنّ المناظرة التي دارت بين عبده وأنطون تشكّل استمرارا للحوار الهادئ الذي جرى بين الأفغاني ورينان ، وإن اختلفت فيها لهجة هذا الحوار بعض الاختلاف . فإذا كان أنطون قد تابع مسيرة رينان نفسها ، فإنّ عبده قد أضفى على حوار الأفغاني حماسة دينية لم تكن ملامحها واضحة فيه . وقد بدا رينان وكأنّه شبح مخيف ماثل أمام عبده وطيف لطيف مؤازر لأنطون .

ب - ردود الفعـــــل

لم تقف ردود الفعل على ما كتبه أنطون عن ابن رشد عند هذا الحدّ . فرشيد رضا (١٨٦٥ـ١٩٢٥) مثلا الذي كانت تربطه بأنطون صداقة متينة جدًا[1] قد انبرى هو الآخر للدفاع عن الإسلام ، ولكنّ لهجته خرجت عن

١ـ أنطون ، ابن رشد ، ص ٢ .

حدّ الاعتدال فاعترى علاقته بأنطون توتّر شديد[١] . وقد أفرد رضا للردّ على فرح أنطون مقالات ثلاثا[٢] كرّر فيها ما سبق أن قاله أستاذه محمّد عبده من أنّ الإسلام هو دين العقل وأنّ الفصل بين السلطتين الدينية والدنيوية واجب في المسيحية لأنّ السلطة الدينية فيها كانت ضارّة ولا تزال ، في حين أنّ السلطة الدينية في الإسلام هي سلطة مدنية شوريّة وليست مطلقة أو استبداديّة[٣] . وقد حارب رضا الفصل بين السلطتين في الإسلام محاربة فاعلة إذ تمكن عندما كان رئيسا للمؤتمر السوري العامّ من الحؤول دون اتّخاذ هذا المؤتمر قرارا يقضي بفصل الدين عن الدولة[٤] .

ولم تقتصر الأصوات التي عارضت طرح أنطون على المفكّرين المسلمين إذ واكبتها أصوات للمتديّنين المسيحيّين لا تقلّ عنها ارتفاعا . وكان من هؤلاء المتديّنين الأب لويس شيخو (١٨٥٩ ـ ١٩٢٧) الذي كتب في مجلّة "المشرق" مقالة نعت فيها أنطون وجبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١) والريحاني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠) بالكفر والإلحاد والزندقة[٥] . وقد نُشرت مقالات كثيرة حول العلم والدين في تلك المجلّة التي كان يصدرها الآباء اليسوعيّون .

---

١ ـ أنطون ، ابن رشد ، ص ٥ .

٢ ـ محمد رشيد رضا ، شبهات النصارى وحجج الإسلام ، ص ص ٦٠ ـ ١٠١ .

٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

٤ ـ جان دايه ، روّاد النهضة ودورهم في تأسيس التيّار القومي العلماني . محاضرة نُشرت في كتاب ندوة الفكر الوطني في مواجهة المشكلة الطائفية ، ص ٨٦ .

٥ ـ لويس شيخو ، بدائع جبران خليل جبران وطرائفه ، المشرق ، ٢١ (١٩٢٣) / ٤٨٧ ـ ٤٩٣ .

ونذكر من كتّابها الآباء خليل اده وعمانويل رولان ويوسف العمشيتي ولويس معلوف . وقام الجدل حول موضوع العلمنة في عدد من المجلّات الأخرى ، نذكر منها "الهلال" و "المنار" و "المقتطم" . وانتقلت عدوى العلمنة الى المسلمين فجاهر بها عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ــ ١٩٠٢) في "المقتطم" ، وقال إنّ قيام الإسلام لا يتوقّف على قيام دولة ما ، وإلّا كان سقوطها سببا في سقوطه . وهذا غير صحيح لأنّ دولة الخلفاء العبّاسيّين مثلا قد سقطت في حين بقي الإسلام منيعا قويّا . وقد تحمّس رشيد رضا فردّ عليه في "المنار" ، ثمّ عاد الكواكبي فردّ على رضا من جديد . والّلافت أنّ العلاقة بين الرجلين بقيت وثيقة ، ولم تشوّهها المحاورات الصحافية التي كانت من قبل سببا في حلول الجفاء بين رضا وأنطون! وفي مطلق الأحوال ، فإنّ المحاورات التي جرت عبر المجلّات قد شكّلت بطابعها العلمي حينا والصاخب أحيانا حركة فكريّة ناشطة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

ويمكن القول إنّ مواقف المفكّرين العرب حول موضوع العلمنة في تلك المرحلة تندرج في تيّارات ثلاثة : التيّار الأول يضمّ الذين آمنوا بالعلمنة نهج حياة ، على نحو ما فعل أنطون ، والتيّار الثاني يتضمّن الذين رفضوا فكرة العلمنة ووجدوا فيها خطرا على الأمّة الإسلامية ، مثل محمّد عبده ورشيد رضا . أمّا التيّار الثالث فيتألّف من المفكّرين الذين درسوا على عبده ، غير أنّهم نحوا في ما بعد نحوا مختلفا تماما وقالوا إنّ العلمنة وحدها هي سبيل الخلاص .

وكان من روّاد التيّار الأوّل ، فضلا عن فرح أنطون ، شبلي شميّل (١٨٥٠ـ١٩١٧) وأنطون سعادة (١٩٠٤ـ ١٩٤٩) . فقد اعتبر شميّل، على غرار رينان ، أنّ دين الإنسان الحقّ هو العلم[١] . وقال إنّ هذا الدين قد أعلن الحرب على الديانات القديمة التي كانت دوما عنصر تفرقة بين الناس . وذهب أيضا إلى ضرورة فصل الدين عن الحياة السياسية معتبرا أنّ قوّة الأمّة تزداد بنسبة ضعف الدين فيها[٢] . وقد دعا أنطون سعادة أيضا إلى العلمنة ، وكان مفهومه للأمّة قريبا من مفهوم رينان لها . فقد رأى أنّ الأمّة تنشأ عن المصلحة والإرادة لا عن اللّغة أو الدين . وعندما تكلّم سعادة على العناصر التي تسهم في نشوء أمّة من الأمم استشهد برينان الذي قلّل من شأن العنصر او العرق وأكّد بالمقابل على أهمّية القيام بأمور عظيمة مشتركة في الماضي وعلى الرغبة بصنعها في المستقبل[٣] . وقد دعا كذلك إلى تبنّي العلمنة مفكّرون آخرون أمثال سلامة موسى (١٨٨٧ـ ١٩٥٨) ومحمّد كرد علي (١٨٧٦ـ١٩٥٣) . ونادى آخرون بوطن أو بأمّة أو بأيّ كيان سياسي آخر بعيدا عن الدين ، أمثال نجيب العازوري (م. ١٩١٦) وأديب اسحق (١٨٥٦ـ ١٨٨٥) .

١ـ شبلي شميّل، المجموعة الكاملة ، ٢/ ٣٣٠ .

٢ـ شبلي شميّل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، ص ٨١ .

٣ـ أنطون سعادة ، ما قبل التأسيس، ص ٣٣٢ .
والآثار الكاملة ، ٥/ ١٥١ و ٢/ ١١١ و ٥/ ١٥٠ .
ويبدو أنّ سعادة لم يقرأ رينان مباشرة لأنّه ذكر أنّه نقل آراء رينان من كتابين في القوميات والدول لجوانيه Johannet وماك آيفر Mc Iver .

وأمّا التيّار الثاني الذي بدأ هادئا مع الأفغاني فقد استمرّ مع عبده بأسلوب أقلّ هدوءا . وقد كان هذا التيّار قريبا من المنهج العلمي إلّا أنّه اكتسب طابعا أكثر حدّة وتعصّبا مع رشيد رضا ، ولا سيّما مع تلميذه حسن البنّا (١٩٠٦ ــ ١٩٤٩) الذي أصبح مؤسّس مذهب الاخوان المسلمين.

ويشتمل التيّار الثالث على قسم كبير من اولئك الذين تتلمذوا على عبده ثمّ عادوا فانضمّوا الى التيّار الأول الداعي إلى العلمنة . فقاسم أمين (١٨٦٥ ــ ١٩٠٨) مثلا استند في كتابه "تحرير المرأة" الى القرآن والشريعة الاسلامية ، في حين استند في كتاب " المرأة الجديدة" الى الفكر الغربي الحديث . وقد ذهب أمين في كتابه هذا إلى أنّ قوّة العقل والعلم هي أساس كلّ القوى الأخرى(١) . وتكلّم على أهمّية التمدّن الغربي القائم على العلوم العصرية الحديثة واعتبر أنّ جميع أحوال الإنسان خاضعة لسلطة العلم(٢) . كذلك رفض أن يكون التمدّن الإسلامي "نموذج الكمال البشري" لأنّه بدأ وانتهى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلوم ، كما أنّ كثيرا "من ظواهر هذا التمدّن لا يمكن أن يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية" (٣) . وأضاف أمين متأثّرا برينان أنّ البحث عن الكمال البشري يجب أن نتوخّاه في المستقبل وليس في الماضي (٤) . فأوقف بذلك محاولات أستاذه عبده الذي كان يرمي إلى التأكيد على الروابط المشتركة بين الإسلام والمدنية . وهذا ما قام به أيضا طه حسين الذي قال إنّ مصر تستطيع أن تقتدي بالعالم الحديث الذي فصل بين الدين والمدنيّة معتبرا مثل رينان أنّ هذا الفصل أسهل على المسلمين ممّا هو

١ــ قاسم أمين ، تحرير المرأة ، ص ٩٥ .

٢ــ قاسم أمين ، المرأة الجديدة ، ص ١٨٣ .

٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٧٤ــ١٧٥ .

٤ــ المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

على المسيحيّين لأنّ الإسلام ليس فيه كهنوت ولأنّه لم تنشأ فيه طبقة منتفعة من سيطرة الدين على المجتمع[١] . واعتبر طه حسين ان الوحدة الدينية لا تصلح أساسا للوحدة السياسية ولا تصلح قواما لتكوين الدول . فالمسلمون حسب رأيه ـ أصبحوا يعرفون ان السياسة شيء والدين شيء آخر[٢] . وفي حين كان المجتمع الإسلامي محور اهتمام عبده ، فقد أصبح المجتمع ، أي مجتمع موضوع اهتمام تلميذه وصديقه أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ـ١٩٦٣) الذي اعتبر أنّ القومية الإسلامية ليست حقيقية ، وذهب إلى أنّ الدول لا تقوم على الشعور المشترك بل على المصلحة المشتركة . وكان السيّد عضوا مؤسّسا لحزب الأمّة الذي أنشأه في أوائل القرن العشرين اتباع محمد عبده . غير أنّ رأي أعضاء هذا الحزب بالعلاقة بين الإسلام والمجتمع جاء مختلفا عن رأي عبده بها إذ وجد هؤلاء أن العيش في وطن واحد هو الذي يجمع ما بين المصريين وليست الشريعة المنزلة التي كان عبده يتطلّع إليها على أنّها العروة الوثقى[٣] . أمّا محمّد فريد وجدي (١٨٧٨ـ١٩٥٤) فقلب معادلة أستاذه عبده الذي كان همّه أن يبرهن أنّ المدنية الحقيقية مطابقة للإسلام ، فصار همّه هو إثبات كون الإسلام الحقيقي مطابقا للمدنيّة ، مخضعا بذلك الإسلام لمعاييرها[٤] .

هكذا كانت أبرز الاتجاهات الفكرية التي حدّدت مسار العرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أصداء لتقلّبات المفكّر الفرنسي ارنست رينان . فالتيّار اللّبناني الذي تذرّع بأصل اللّبنانيّين الفينيقي كي يثبت

١ـ ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ، ص ٣٩٦ .

٢ـ طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، ص ١٦ـ١٧ .

٣ـ حوراني ، الفكر العربي ، ص ص ٢٠٨ـ٢١٢ ، ٢١٦ـ٢١٨ .

٤ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٩ .

الخصوصيّة المارونيّة ويسير بها نحو استقلال معيّن قد نشأ عن رينان القائل بتمايز المسيحيّة . والتيّار المتمسّك بالإسلام هويّة له كان ردّة فعل على رينان الذي تطرّف في هجومه على الساميّين والمسلمين . والتيّار الذي نزع إلى العلمنة لم يكن سوى انعكاس لفكر رينان العلماني . فهذه التيّارات المتباينة ليست سوى صورة لرجل واحد قد جمع في فكره تناقضات شتّى . فهو تارة يكون هاجسه الأوّل امتداح دين معيّن وذمّ دين آخر ، وطورا يقوم بإخضاع الأديان جميعا لمقاييسه العلمية . ويبقى فكر رينان المتسرّب إلينا وحماستنا في الترحيب به أو في رفضه نموذجا حيّا للصراع الفكري الذي كان قائما بين شرق مستسلم للحلم وغرب يطوي المسافات ويقتحم الأحلام .

الخـــاتمـــــــة

من خلال ما كتبه رينان عن المشرق والإسلام يمكن القول إنّ فكره يتّسم عموما بالدينامية والحركة اللّتين تنتهيان به عادة إلـى أحد احتمالين . فإمّا أن تكون نظرته إلى الأمور التي يعالجها والقضايا التي يطرحها سديدة ثاقبة بعيدة عن التحيّز والانفعال ، وإمّا أن تكون هذه النظرة متحيّزة يغلب عليها الميل والهوى . فمن أمثلة الاحتمال الأوّل اعتبار رينان أنّ الذرّة ربّما كانت قابلة للاقتحام أو معرّضة للفساد أو توقّعه أن تكون أورشليم هي محور الحرب في العالم أو تنبؤه بتوحّد أوروبا بعد انقضاء القرن التاسع عشر . أمّا الاحتمال الثاني فإنّ التمثيل عليه أو البحث فيه يبدو أبعد متناولا وأكثر وعورة لاختلاطه عند رينان بالمنهج العلمي الذي شاء أن يسلك سبيله ويهتدي بهديه . فلقد نشأ رينان نشأة مسيحية تركت فيه أثرا عميقا . غير أنّه ما لبث أن ثار على تلك النزعة الدينية التي غرست فيه منذ صغره وحاول أن يبني على أنقاضها فكرا علميّا وضعيّا فوقف من الأديان السماوية جميعا موقف الناقد المشكّك . إلاّ أنّ هذا الموقف لم يصل معه إلى النهايات المنطقية التي كان يفترض أن يصل إليها لأنّ حنينه إلى نشأته الأولى وضعفه أمام المسيح كانا يقيّدانه ويحولان دون تحرّره من المسيحية تحرّرا تامّا ممّا جعله في دراساته وأبحاثه يصطفي للمسيحيّين منزلة خاصّة . كذلك فهو لم يتمكّن عندما تحدّث عن الساميّين من أن يتخلّص من سطوة محتده الآري الذي إليه ينتمي وبه يفتخر ، فأباح لأهوائه الشخصية بأن تقيم معطيات مسبقة راح يبني عليها تحاليله واستنتاجاته الخاصّة بأولئك الساميّين . فلقد كان رينان شديد الإعجاب مثلا باللّغة العربية وبالعنصر العربي الذي وجده مثالا للتسامح في تعاطيه مع المغزوّين وكذلك في سعة انفتاحه على العلوم . غير أنّ هذا لم يحل دون أن يشنّ هذا المفكّـر حملة شعواء على الفلسفة العربية هدف بها إلى تجريدها من هوّيتها العربية .

وربّما هدأت ثورة رينان على العرب أحيانا لتحلّ محلّها ثورة مماثلة على الساميّين جميعا وخصوصا على المسلمين الذين راح يصبّ عليهم جام حقده وغضبه دون أي مراعاة لأحكام المنطق وقواعد الإنصاف . وهكذا كان معظم ما كتبه رينان حول المشرق والإسلام يخضع لهذا التجاذب الذي تقاسم شخصيته وأفكاره حتّى بدت كتاباته في هذا الموضوع نابعة من شخصيّتين متباينتين ، إحداهما يتبلور في طيّاتها المفكّر العالم والأخرى تجنح بصاحبها إلى مواقف وآراء يستحيل تسويغها من منطلق علمي أو موضوعي . وربّما أمكننا القول إنّ فكر رينان قد ترك آثارا واضحة في المشرقيين والمسلمين الذين لم يكن التباين في آرائهم سوى امتداد لما طبعه فيهم هذا الرجل بكلّ ما فيه من تناقضات .

المصـــادر والمراجـــــع.

أ ـ العربية.

ـ الأسد، ناصر الدين . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخيّة . دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، ١٩٦٩ .

ـ الأفغاني، جمال الدين . الأعمال الكاملة . مع دراسة عن الأفغاني الحقيقة الكلّية لمحمد عمارة . المؤسّسة المصرية العامّـــة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (لا . ت .) .

ـ سلسلة الأعمال المجهولة . تحقيق وتقديم علي شلش، رياض الريّس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٧ .

ـ أمين، أحمد . زعماء الإصلاح في العصر الحديث . القاهرة، ١٩٤٨ .

ـ أمين، قاسم . تحرير المرأة . القاهرة، ١٨٩٩ .

ـ المرأة الجديدة . مصر، ١٩٠٠ .

ـ أنطون، فرح . ابن رشد وفلسفته . منشورات الجامعة، الاسكندرية، ١ يناير ١٩٠٣ .

ـ بدوي، عبد الرحمن . دراسات المستشرقين حول صحّة الشعر الجاهلي . دار العلم للملايين، بيروت، تشرين الثاني ١٩٧٩ .

ـ البستاني، بطرس . أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام . حياتهم، آثارهم، نقد آثارهم . الجزء الأوّل . مكتبة صادر بيروت، الطبعة الخامسة، (لا . ت .) .

ـ الجبلاوي، محمّد طاهر . جمال الدين الأفغاني، حياته وآراؤه . الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنشر، ١٩٧١ .

ـ جمعة، محمّد لطفي . الشهاب الراصد . مصر، ١٩٢٦ .

ـ حسين ، طه . آراء حرّة . المطبعة المصرية ، مصر ، (لا . ت .) .
وفيه أيضا : كرد علي ، محمّد . مصادر الثقافة العربية وتأثيرها في الحضارة الحديثة .
ومشرفة ، علي مصطفى . الأثر العلمي في الثقافة المصرية الحديثة .

ـ في الأدب الجاهلي . دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٧ .

ـ مستقبل الثقافة في مصر . جزآن في مجلّد واحد . مطبعة المعارف بمصر ، ١٩٣٨ .

ـ حوراني ، ألبرت . الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ـ١٩٣٩ . ترجمه من من الانكليزية كريم عزقول . دار النهار للنشر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ .

ـ خفاجي ، محمد عبد المنعم . نظرية طه حسين في الشعر الجاهلي . بحث نشر في كتاب : طه حسين وقضية الشعر . بحوث ودراسات بإشراف صالح جودت . الهيئة المصرية العامّة للكتاب ، ١٩٧٥ .

ـ دايه ، جان . روّاد النهضة ودورهم في تأسيس التيّار القومي العلماني . بحث نشر في كتاب : ندوة الفكر الوطني في مواجهة المشكلة الطائفية . منشورات مجلّة فكر ، ٥ـ٨ آذار ١٩٨١ .

ـ رضا ، محمّد رشيد . تاريخ الشيخ محمّد عبده . الجزء الأوّل ، مطبعة المنار بمصر ، ١٩٣١ .

ـ شبهات النصارى وحجج الإسلام . الطبعة الثانية ، ١٣٦٧هـ .

ـ رينان ، ارنست . ابن رشد والرشدية . ترجمه من الفرنسية عادل زعيتر . القاهرة ، ١٩٥٧ .

ـ محاورات رينان الفلسفية . نقله من الفرنسية علي أدهم . دار العصور للطبع والنشر ، مصر ، ١٩٢٩ .

ـ سعادة ، أنطون . الآثار الكاملة . الجزء الأوّل ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1982 .

ـ ما قبل التأسيس 1921 - 1932 . بيروت ، الطبعة الثانية ، 1982.

ـ س . م . الأب اليسوعي ، "ذكر مولد الملحد ارنست رنان ، تناقض رنان في آرائه" ، المشرق ، ١٩٢٣ .

ـ الشدياق ، طنّوس. كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان . وضع مقدّمته وفهارسه فؤاد أفرام البستاني . الجزء الأوّل . منشورات الجامعة اللّبنانية ، بيروت ، ١٩٧٠ .

ـ شرابي ، هشام . المثقّفون العرب والغرب : عصر النهضة ١٨٧٥ ـ ١٩١٤ . دار النهار ، بيروت ، ١٩٧١ .

ـ شلش ، علي . "جمال الدين الأفغاني في ردّه على أرنست رينان" . مقالة نشرت في الأزمنة ، العدد السادس ، أيلول ـ تشرين الأوّل ١٩٨٧ .

ـ شميّل ، شبلي . فلسفة النشوء والارتقاء . القاهرة ، ١٩١٠ .

ـ المجموعة الكاملة ، الجزء الثاني ، مطبعة المعارف بمصر ، ١٩٠٨ .

ـ شيخو ، لويس . الآداب العربية في القرن التاسع عشر . جزآن في مجلّد واحد . مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت ، ١٩٠٨ .

ـ بدائع جبران خليل جبران وطرائفه . المشرق ، ٢١ (١٩٢٣) .

ـ الصليبي ، كمال . بيت بمنازل كثيرة . الكيان اللّبناني بين التصوّر والواقع . ترجمه من الانكليزية عفيف الرزاز . مؤسّسة نوفل ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٩ .

ـ تاريخ لبنان الحديث . دار النهار للنشر ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٨ .

ـ عبده ، محمّد . الإسلام دين العلم والمدنيّة . عرض وتحقيق وتعليق طاهر الطناحي . دار الهلال ، (لا . ت .) .

ـ الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية . الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة مجلّة المنار ، ١٣٢٣ هـ .

ـ الأعمال الكاملة . جمعها وحقّقها وقدّم لها محمّد عمارة . الجزء الثالث : الإصلاح الفكري والتربوي والالهيات . المؤسّسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، أيلول ، ١٩٧٢ .

— عبده ، محمد . الإمام محمّد عبده . اختار النصوص وقدّم لها أدونيس وخالدة السعيد . دار العلم للملايين ، بيروت ، حزيران ١٩٨٣ .

— سلسلة الأعمال المجهولة . تحقيق وتقديم علي شلش . رياض الريّس ، لندن ، ١٩٨٦ .

— المسلمون والإسلام . تقديم وتحقيق وتعليق طاهر الطناحي . دار الهلال ، (لا . ت .) .

— العروة الوثقى . جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٠ .

— فريحة ، أنيس . معجم أسماء المدن والقرى اللّبنانية وتفسير معانيها . مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢ .

— قرم ، شارل . الجبل الملهم . ترجمه من الفرنسية اسطفان فرحات . منشورات مكتبة الفوّيه ، بيروت ، ١٩٤٥ .

— قلعجي ، قدري . جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق . دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٤٧ .

— الكتاب المقدّس .

— المخزومي ، محمّد باشا . خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني . صادر ، بيروت ، ١٩٣١ .

— نظمي ، وميض . ملامح من الفكر العربي في عصر اليقظة وعلاقته بفكرة القومية العربية . بحث نشر في دراسات في القومية العربية والوحدة . مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، أيلول ١٩٨٤ .

— اليازجي ، كمال . معالم الفكر العربي في العصر الوسيط . دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٩ .

ب ـ الأجنبيـــــــة

- Afghānī , Jamāl ad-dīn al- . Réfutation des Matérialistes. Paru dans les Joyaux de l'Orient, Tome XI. Traduction sur la 3e édition arabe avec introduction et notes par A.M. Goichon. Librairie Orientaliste, Paul Geuthner, Paris, 1942.

. Journal des Débats. See under Renan, Journal des Débats.

- Kedourie, Elie. Afghani and ʿAbduh, An Essay On Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam. Frank Cass, 1966.

- Mott, Lewis F. Ernest Renan. D. Appleton and Company, New York & London, 1921.

- Peyre, Henri. Sagesse de Renan. Presses Universitaires de France, Paris, 1968.

- Phénicia. Propriété - Direction: Aurore Ougour. lère Année, No.1. Janvier 1938-Juillet 1939.

- Renan, Ernest. L'Avenir de la Science-pensées de 1848. Calmann-Lévy, Paris, 1925.

- Renan, Ernest. Averroès et l'Averroïsme. Essai historique. Calmann-Lévy, Paris, 4e édition revue et augmentée, 1882.

. De la part des Peuples Sémitiques dans l'histoire de la civilisation. Discours d'ouverture du cours de langues Hébraïque, Chaldaïque et Syriaque au Collège de France. Michel Lévy Frères, Paris, 5e édition, 1862.

. Dialogues et fragments philosophiques. Calmann-Lévy, Paris, 2e édition,1876.

. Discours de Réception:

- Discours de Réception de F. de Lesseps et Réponse de Renan, 1885.
- L'Islamisme et la Science. Conférence faite à la Sorbonne le 29 Mars 1883.
- Le Judaïsme et le Christianisme. Identité originelle et séparation graduelle. Conférence faite à la société des études juives le 26 Mai 1883.
- Qu'est-ce qu'une Nation? Conférence faite à la Sorbonne le 11 Mars 1882.

. Histoire générale et système comparé des langues sémitiques. Michel Lévy Frères, Paris, 4e édition revue et augmentée, (no date).

- Renan, Ernest. L'Islamisme et la Science. See under Renan, Discours de Réception.

. Journal des Débats, 29 Mars, 18 et 19 Mai 1883.

. Le Judaïsme et le Christianisme. See under Renan, Discours de Réception.

. Qu'est-ce qu'une Nation? See under Renan, Discours de Réception.

. Lettres intimes (1842-1845) précédées de Ma Soeur Henriette. Nelson & Calmann-Lévy, Paris, 1896.

. Mahomet et les origines de l'Islamisme. Extrait de la Revue des Deux Mondes. Paris, 15 Décembre 1851.

. Mission de Phénicie dirigée par Renan. Imprimerie Impériale, Paris, (no date).

. Oeuvres Complètes, tome VII. Edition définitive établie par Henriette Psichari; Calmann-Lévy, Paris, 1955.

. Pages Choisies. Calmann-Lévy, Paris, (no date).

. Souvenirs d'enfance et de jeunesse. Nelson & Calmann-Lévy, Paris, (no date).

- Renan, Ernest. Vie de Jésus. Paru dans: Histoire des origines du christianisme. Livre premier. Calmann-Lévy, Paris, 13e édition, (no date).

- La Revue Phénicienne. Directeur propriétaire: Charles Corm. Édition Maison d'Art, Juillet, 1919.